فراس السواح

الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

هل ... وراة من جزيرة العرب؟

نظ ... الصليبي في ميزان الحقائق التاريخية والآثارية

الحدث التوراتي
والشرق الادنى
القديم

* الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
* تأليف : فراس السواح
* الطبعة الثالثة
* الناشر : دار علاء الدين
دمشق : ص.ب: ٣٠٥٩٨
هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١
تلكس : ٤١٢٥٤٥
فاكس : ٢٣١٧١٥٩
* التنضيد الضوئي : دار علاء الدين
* الإخراج الفني : ناضر شهاب الدين

٢٠٠٠ / ٢ / ١٩٩٧

فراس السواح

الحدث التوراتي
والشرق الادنى القديم

نظرية كمال الصليبي
في ميزان الحقائق التاريخية والآثارية

مقدمة

لقد غدا من نافلة القول اليوم التحدث عن صحة المرويات التوراتية من الناحية التاريخية ، أو المجادلة في إمكانية اعتمادها مرجعاً على هذه الدرجة من المصداقية أم تلك . ذلك أن المعلومات التاريخية والأركيولوجية التي توفرت لدى الباحثين خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، قد أظهرت بجلاء الطابع غير التاريخي لهذه المرويات ، وعدم اتساقها مع تاريخ فلسطين وبقية مناطق الشرق الأدنى القديم خلال معظم الفترة التي تغطيها الأسفار التوراتية . ولقد بدأت ملامح هذا المأزق التاريخي لكتاب التوراة تتوضح منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر ، عندما حاول بعض الباحثين المرموقين من أمثال E.Meyer و Gunkel ، ومنذ ذلك الوقت المبكر ، بأن الأسفار التوراتية ليست تاريخاً موثقاً يمكن الركون إليه ، وأن مصدرها الرئيسي هو الحكايا الشعبية والملاحم والقصص البطولي ، مما كان متداولاً شفاهة في فلسطين والمناطق المجاورة زمن تحرير أسفار الكتاب . ورغم أن هذا الاتجاه التحرري المبكر قد جرى تعطيله من قِبل مدرسة «علم الآثار التوراتي» التي أخذت أفكارها بالانتظام فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ بتأثير العلامة وليم فوكسويل أولبرايت في أمريكا ، ومارست سلطة قوية على الدراسات التوراتية حتى ستينيات القرن العشرين ، إلا أن ما أفاضته التنقيبات الأركيولوجية الجديدة في فلسطين خلال العقدين الأخيرين على وجه الخصوص ، لم يترك مِن الباحثين الجادين مَن يناقش في صحة الخبر التوراتي ، إلا بقية متعنتة من تلامذة أولبرايت تجمعها مجلة «علم الآثار التوراتي» الأمريكية التي يرئس تحريها الصهيوني المعروف هيرشل شانكس .

من هنا ، فقد كان من المستغرب أن يأتي الهجوم المضاد على الاتجاه الجديد المتحرر من اللاهوت التوراتي من قِبل مؤرخ عربي هو الدكتور كمال الصليبي ، لا من أية جهة علمية رصينة في الغرب . لقد أدرك الدكتور الصليبي أن الدفاع عن تاريخية التوراة وفق المعطيات العلمية الراهنة هو مسألة خاسرة ، فقام بالتفافة بارعة على المشكلة برمتها ونقل مسرح الحدث التوراتي في فلسطين إلى منطقة غرب شبه الجزيرة العربية . وبذلك تمت حماية المرويات التوراتية من أية مقارنة جدية مع وقائع علم الآثار وعلم التاريخ ، لأن المنطقة الجديدة للتوراة مجهولة تماماً من الناحية التاريخية والأركيولوجية ، ولم يضرب فيها المنقبون حتى الآن معولاً واحداً . وهو إذ يكرر عبر فصول كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بأن المرويات التوراتية قد وقعت بحذافيرها وكما سجلها أحبار اليهود ، فإنه ينطلق من موقع آمن من هجوم علم الآثار

وعلم التاريخ . كما عمد الدكتور الصليبي إلى حماية نظريته بسور دفاعي آخر عندما تجاهل كلية مناهج البحث التاريخي ولجأ إلى المنهج اللغوي المقارن ، مظهراً براعة فائقة في قراءة النصوص العبرية التوراتية وتأويلها ، وبراعة لاتقل عنها في دراسة وتحليل أسماء المواقع في منطقة غرب شبه الجزيرة العربية ومطابقتها على أسماء المواقع التوراتية .

إن المشكلة التي خلّفها وراءه الدكتور الصليبي لا تكمن في محتوى نظريته بالدرجة الأولى ، بل في المنهج غير التاريخي الذي طبقه على مسألة تاريخية في غاية الحساسية . ذلك أن المقولات غير المدعمة علمياً تصدر عن مؤرخ مرموق ، يمكن أن تقود إلى مزالق ومتاهات أكثر مما توصل إلى حقائق تساهم في النهضة التي يشهدها علم التاريخ وعلم الآثار اليوم في هذه المنطقة من العالم . وقد ساعدت هذه المقولات بالفعل بعض المؤلفين المتأثرين بالدكتور الصليبي على تجاهل المنهج التاريخي لصالح التبرير والرؤية الانفعالية والايديولوجية لأحداث التاريخ .

إن مايلي من صفحات هذا الكتاب هو حوار علمي هادىء ، يستند إلى الحقائق التاريخية والآثارية في مقابل المنهج اللغوي الأحادي لكمال الصليبي ، وفي مقابل المواقف الانفعالية والايديولوجية التي يصدر عنها آخرون . ويتوجب عليَّ أن ألفت نظر القارىء الكريم ، منذ البداية ، إلى أن التوكيد على منطقة فلسطين كمسرح للحدث التوراتي لا يتضمن الاقرار بتاريخية هذا الحدث . ذلك أن محرري التوراة الذين عكفوا على تدوين أسفاره منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، كانوا يهدفون إلى التأصيل للديانة اليهودية التي أخذت ملامحها بالتوضح عقب عودة بقية سبي يهوذا من بابل ، وابتكار جذور للمعتقد التوراتي تضرب في تاريخ فلسطين القديم . وقد عمدوا في سبيل ذلك إلى الاستفادة من كل ما وقع تحت أيديهم من أخبار مملكتي إسرائيل ويهوذا ، (وهما مملكتان فلسطينيتان محليتان لم تعرفا قط الديانة اليهودية) وفسروا هذه الأخبار بما يتلاءم والايديولوجية التوراتية . إضافة إلى استخدامهم لمادة قصصية شعبية شائعة في المنطقة تروي أحداثاً مغرقة في القدم ويختلط فيها التاريخ بالخرافة ، وصاغوا من كل ذلك رواية مضطربة مليئة بالفجوات والثغرات . كما أريد أن ألفت النظر أيضاً إلى مسألة تتعلق بأهداف هذا الكتاب ، فنحن لسنا معنيين حقاً بموطن التوراة ولا نعير كبير اهتمام للتاريخ اليهودي ، ولكننا معنيون بالدرجة الأولى بترسيخ أصول منهج علمي في دراسة تاريخ هذه المنطقة . من هنا ينبغي أن يفهم هذا الكتاب باعتباره أطروحة في الدفاع عن المنهج ، لا وقوفاً إلى جانب هذه الفكرة أو تلك .

فـراس السـواح

١٩٩٧ / ١ / ١

مدخل:
أطروحات كمال الصليبي ونتائجها

لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، يقول المؤلف. فبينما كان يبحث عن أسماء الأماكن ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، فوجيء، بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠ كيلومتر وبعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كيلومتر، تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز. (انظر خريطة الصليبي رقم ١ في آخر كتابنا). وكان أول ما تنبه إليه أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبين له أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهنه، أو جلها، مازال موجوداً فيها، وأن الخريطة التي نستخلصها من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء من ناحية أسماء الأماكن أو من ناحية القرائن أو الاحداثيات، تتطابق تماماً مع خريطة هذه الأرض. وهي، كما يرى، حقيقة ذات أهمية أولية، نظراً لأنه لم يثبت بعد، في رأيه، تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع الخريطة التي اعتبرت حتى الآن أنها كانت بلاد التوراة. وبما أنه لم يستطع العثور على مثل هذا التجمع لاسماء الأمكنة التوراتية، في صيغتها الأصلية عادة، في أي جزء آخر من الشرق القديم، فقد قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه: فاليهودية لم تولد في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار بني اسرائيل كما روي في التوراة، كان هناك، في

غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر*.

وبما أن التوراة عبارة عن نصوص بالغة القدم كتبت أصلاً بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط، ولأن لغة هذه النصوص قد خرجت عن إطار الاستعمال العام من زمن يعود إلى ما قبل القرن السادس والخامس قبل الميلاد، أي إلى ما بعد استكمال نصوص التوراة، فانه لا يمكن لأحد ان يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب الذي تكلمها. وهذا بغض النظر عن مسائل أخرى كثيرة تتعلق بالتهجئة والصرف والنحو. ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يتوجب على الباحث إما أن يتبع تقليد العبرية المتأخرة، أو أن يسعى إلى الارشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حية مثل العربية والسريانية التي هي صيغة مستمرة من الأرامية القديمة. وعلى العموم فان من الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها لغة مجهولة عملياً، ويجب تفكيك رموزها من جديد بدلاً من معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار فيما عدا بعض الغوامض.

إلا أنه بفضل الأمانة العلمية الدقيقة التي تحلى بها «المسّوريون» وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية فيما بين القرن السادس والتاسع الميلاديين، فان النص المكتوب بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل الينا من القدم دون أن يمس تقريباً، رغم أن ادخال الحركات والضوابط عليه، بصورة اعتباطية في احيان كثيرة، قد غير اعراب الجمل وحور المعاني، وأدخل على النص التوراتي تحريفات

* ـ نحاول في هذا العرض الموجز والوافي لنظرية الصليبي اعتماد كلام المؤلف بحرفيته ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وهو مأخوذ من مقدمته ومن الفصلين الأول والثاني من الترجمة العربية الصادرة عن مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت ١٩٨٥. وقد أعدنا ترتيب التسلسل في أفكار المؤلف بطريقة رأيناها أفضل لاعطاء صورة واضحة ووافية عن نظريته في هذا الحيز الضيق، دون أن تغفل، على ما نعتقد، فكرة أساسية واحدة.

هي أضخم بكثير مما يتصوره علماء التوراة. ذلك أن عمل الماسوريين قد بدأ بعد مضي ألف سنة على الوقت الذي كانت فيه العبرية لغة حية ومتداولة. ومن هنا وصلتنا أسماء الأمكنة التوراتية بنصها العبري غير المصوت دون أن يطالها تحريف أو تبديل. أما اسماء الأماكن في غرب شبه الجزيرة العربية فقد شهدت بعض التغيير في اطاري علم الأصوات وعلم التشكل الكلامي بعد حوالي ثلاثة آلاف سنة فصلت بين الصيغ التوراتية لهذه الأسماء ومثائلها القائمة اليوم. وفي اطار التغييرات اللغوية التاريخية تبدو هذه الفترة الزمنية طويلة جداً، ولابد أنها استوعبت أكثر من تغير لغوي واحد جرى في بلاد الشرق القديم. ولكن المدهش فعلاً هو أن هذه الأسماء بقيت، في أكثرها، قابلة للتمييز الفوري في زيها العربي الراهن.

ولا يمكن معرفة الكيفية التي كانت تلفظ بها أسماء الاماكن التوراتية. وإذا أراد الباحث أن يقارن بين الصيغتين المكتوبتين لهذه الأسماء، بالعبرية التوراتية وبالعربية الحديثة، فعليه أن يأخذ في الاعتبار طبيعة الأبجدية السامية. هذه الأبجدية كانت تقتصر في الأصل على ٢٢ حرفاً ساكناً، بما فيها الوقفه الحنجريه، أي الهمزة، التي تعتبر في اللغات السامية حرفاً ساكناً، والحرفين شبه الصوتيين الواو والياء. ولكن النطق بهذه اللغات كان يعتمد حروفاً أكثر من هذه الحروف منذ البداية. وفي العبرية المتأخرة أضيف حرف ساكن جديد إلى الأبجدية الأصلية بتنقيط الحرف المسمى سين، فصار يمكن تصويته كسين أو كشين. والعربية التي استعارت من شقيقاتها الساميات كتابتها استخدمت هي أيضاً الأبجدية ذات الأحرف الـ ٢٢ الأصلية في البداية، ومع مرور الزمن، أدخلت عليها لا أقل من ستة أحرف جديدة باضافة النقط إلى ستة أحرف كانت موجودة في الأصل. ولا شك أن الأمر نفسه كان ينطبق على العبرية في زمانها حيث عرفت لغة النطق عدة أحرف ساكنة لم تكتب بأحرف مستقلة إلا في وقت متأخر. ولا بد أن الناطقين بالعبرية، شأنهم شأن الناطقين بالعربية، كانوا يعون العلاقة بين أحرف

النطق وأحـرف الكتـابة هذه عن طريق الحدس. ولا يستبعد إطلاقاً أن يكون المتكلمـون بالعـبرية في القدم قد تلفظوا بأحرف ساكنة لم يكتبوها، مثل الذال والضـاد والظـاء. وبنـاء على هذا فلابـد أن اللفـظ العـبري القـديم لأسـماء الأماكن التوراتية في غرب شبه الجزيرة العربية، كان أقرب إلى اللفظ العربي الحالي. والدراسة الميدانية للطريقة التي تلفظ بها هذه الأسماء اليوم قد تساعد كثيراً على فهم طبيعة الفونولوجيا العبرية القديمة التي لم يكشف سرها بعد.

ولكي يستطيـع البـاحث أن يتعـرف على الأسـماء التوراتية القديمة في صيغتها العربية الحديثة، لا بد له من تتبع عملية القلب والاستبدال في الجذر المشـترك بين اللغتـين العبرية والعربية، وهي ظاهرة مشهودة كثيراً في اللغات السـاميـة (زوج ـ جوز)، وكـذلـك عمليـة تحولات الأحـرف. فالأبجـديتان تشتركان في ٢٢ حرفاً، وتنفرد العربية بستة أحرف هي: ث، خ، ذ، ض، ظ، غ. وهناك جذور كثيرة مشتركة بين العبرية التوراتية والعربية، وذلك دون تغير في الأحرف في بعض الأحيان، ومع تحول في الأحرف في أحيان أخرى. والتحولات في الأحرف التي يقرها علماء اللغات السامية بين اللغتين هي الآتية:

ء ← و، ي	ك ← خ، ق
ج ← غ، ق	م (خصوصاً في لاحقة جمع المذكر).
د ← ذ، ز	← ن (خصوصاً في لاحقة جمع المذكر)
وأحياناً ض، ظ	ن ← م
و ← ء، ي	ع ← غ
ز ← ذ، ص	ف ← ث
ض، ظ	ص ← س، ض، ز، ظ
ح ← خ	ق ← ج، غ، ك
ط ← ت	ش ← س، ث
ي ← ء، و	س ← ش
	ت ← ث، ط

ويلاحظ من المقابلة بين أسماء الأماكن التوراتية، وتلك الموجودة إلى اليوم في غرب شبه الجزيرة العربية أن معظم هذه الأسماء قد تعرب في اللفظ وليس في المعنى. ولذلك فان التغيير في معظم هذه الأسماء قد تم اما عن طريق قلب الأحرف، أوعن طريق تغيير الأحرف شبه الصوتية (ء، و، ي) دون الأحرف الصحيحة. ولم يتعرب من هذه الأحرف في أكثر الأحيان إلا الأحرف العبرية التي تقابل الأحرف العربية الإضافية (ث، خ، ذ، ض، ظ، غ)، والميم عندما تكون لاحقة المذكر العبرية، فتنقلب نوناً في العربية. ومن ناحية أخرى هناك أسماء أماكن عبرية ما زالت موجودة اليوم بشكل مترجم لا بشكل معرب، مثل «شعلبيم» والتي هي اليوم «الثعالب» في صفة جمع التكسير العربي بدلاً من جمع المذكر في الاسم التوراتي. ويلاحظ أيضاً أن حرف اللام في الأماكن التوراتية، مهما كان موضعه في التركيب، كثيراً ما ينقلب إلى «أل» التعريف في الاسم المعرب، فالاسم «جلعد» يصبح «الجعد» و«لمعله» يصبح «المعلاة». أضف أن اداة التعريف العبرية وهي الهاء تنقلب إلى أداة التعريف العربية في معظم الأحيان. وهناك أيضاً اسماء الأماكن التوراتية على وزن «يفعل» و«تفعل» التي تتحول إلى العربية على وزن «فعل» و«فعله». فالاسم التوراتي «يقطن» يصبح في شكله الحالي «قطن». والاسم «تعنك» يصبح «عنقه».

والمقابلة بين الألفاظ في اللغات السامية تكون بمقابلة التركيب الاساسي لهذه الألفاظ بين لغة وأخرى دون النظر إلى اللواحق وأحرف العلة عندما تكون هذه معتمدة فقط للتصويت. فاسم المكان التوراتي «شمرون» هو في الأصل «شمرن» بدون تصويت، يقابله في العربية اسم المكان «شمران» الذي هو أيضاً «شمرن». و«شبعه» التوراتية هي في الأساس «شبع» يقابلها في العربية اسم «الشباعه» الذي هو أيضاً «شبع».

اعتماداً على هذا المنهج في مقابلة الأسماء، عثر المؤلف على كامل الأرض التوراتية في غرب العربية. ولكي نعطي فكرة عن هذه الأرض

التـوراتيـة التي وجدها كمال الصليبي، لا بد من ايراد بعض الأمثلة عن أسماء الأمـاكن التـوراتيـة التي عثـر عليهـا هنـاك باسمائها كما يقول، لنوضح بشكل تطبيقي كيفيـة استخـدامـه لمنهجـه. وسنقوم فيما يلي بتقسيم الأمثلة العشوائية التي أخـذنـاهـا من الكتـاب إلى زمرتين. في الأولى أمثلة عن مقابلات تؤدي إلى نتيجـة فيهـا نظـر، وفي الثـانية أمثلة عن مقابلات جاءت نتيجة عمليات معقدة من القلب والاستبدال لا يمكن تصور حصولها إلا نظرياً.

الزمرة الأولى

جرار «جرر»	القرارة (ص ١٠١).
كنعان «كنعن»	القناع (ص ١٠٢).
غزه «غز»	آل عزه (ص ١٠٠).
صيدون «صيدن»	آل زيدان (ص ٩٩).
صور «صر»	زور الوادعه (ص ٣٤).
جبيل «جبل»	القابل (ص ٣٥)
قادش «قدش»	عين قديس (ص ٩٣).
سدوم «سدم»	دامس (ص ٩٩).
عموره «عمره»	الغمر (ص ٩٩)
مجدو «مجد»	مقدي (ص ١١٩).
يافو «يف»	وفيه (ص ١٢٠).

الزمرة الثانية

نتينيم «نتين»	طناطن (ص ١٦١).
طباعوت «طبعوت»	العثابيات (ص ١٦١).
برقوس «برقس»	الكرباس (ص ١٦٤)

هسوفرت «هـ سفرت»	رصفه (ص ١٦٥).
أدونيقام «ء د ـ نيقم»	القائم (ص ١٦٨).
فرعوش «فرعش»	الجعافر (ص ١٧٠).
مغبيش «مجبيش»	مشاجيب (ص ١٧٢).
زكاي «زكي»	الضيق (ص ١٧٣).
نفتوحيم «نفتحيم»	المفاتيح (٢٤٩).
فتر وسيم «فترسيم»	الشرفات (ص ٢٥٠).
كفتوريم «كفتر يم»	الرفقات (ص ٢٥٠).
عقرون «عقرون»	الجرعان (ص ٢٥٣).
أورشليم «اورشليم»	آل شريم (ص ١٨٣).

إضافة إلى هاتين الزمرتين هناك زمرة ثالثة لا تحتوي على الكثير من الكلمات. فعندما لا يجد المؤلف موقعاً مقابلاً للإسم التوراتي، يعمد إلى الجمع بين اسمين لموقعين متجاورين. فكركميش، الموقع المعروف تاريخياً على الفرات في الشمال السوري يجده في القريتين المتجاورتين «القر» و «القماشه» في منطقة الطائف (ص ٣٧)، وكأحد البدائل المقترحة لأورشليم يضع القريتين المتجاورتين «أروي» و «آل سلام» قرب النماص (ص ١٨٣).

وإذا كان من الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها العبرية لغة مجهولة يجب تفكيك رموزها من جديد، كما يقول المؤلف، فانه ينظر إلى النص التوراتي بأحرفه الساكنة ويقرؤه بعيداً عن التصويت التقليدي، مخالفاً في قراءته الخاصة للأمثلة التي يقدمها، ليس فقط النص المسّوري العبري المحرك، وهو النص العبري الكامل الوحيد، بل كل الترجمات التي وضعت للكتاب منذ الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية التي تمت أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. ثم يضيف إلى ذلك وجهات نظر خاصة جداً في نحو وصرف اللغة العبرية لم يقل بها أحد من علماء التوراة قديمهم وحديثهم، ويعمد إلى

استنبـاط معـان جديـدة لبعض الكلمات العـبر ية استناداً إلى اللغة العربية أو الآراميـة. وسنـورد مثالاً على ذلك من قراءته لقصة ابراهيم وملكي صادق في سفر التكوين: ١٤ التي عالجها في فصله الثاني عشر.

هل كان هنـاك حقـاً، في أي مكـان، ملك ـ كاهن معـاصـر لابراهيم يدعى «ملكي صادق»؟ هكـذا يتسـاءل المؤلف في مطلع فصله المـوسـوم: «ملكي صادق وآلهـة السـراة» ثم يتابع: هذا ما يعتقده اليهود والمسيحيون بناءً على قراءتهم المغلوطـة للتـوراة، سواء في نصهـا المسّـوري المحـرك، أو في الـترجمات القديمة والحديثة. والواقع ان التوراة العبر ية، بنصها الأصلي غير المحـرك، لا تذكـر ملكـاً ـ كاهنـاً بهذا الاسم. صحيح أنه قد وردت في نصين توراتيـين بنيـةٌ من الأحـرف السـاكنة التي تقرأ «ملكي صدق» (التكوين ١٤: ١٨ والمـزامـير ١١٠: ٤)، لكن هذه البنيـة في كلتـا الحـالتـين، ليست اسـماً لشخص. والـواقـع هو أن «ملكي صدق» في التكـوين ١٤: ١٨ ليست اسم علم بل تعبـير اصطـلاحي يفيـد معنى الطعـام. والنص الكامل في التكوين ١٤: ١٨ يقرأ بأحرفه الساكنة كما يلي: «و ـ ملكي صدق ملك شلم هو صيء لحم و ـ يين و ـ هو ـ كهـن ل ـ ء ل عليـون». وقـد جرى تصـويـت هذا النص تقليـديـاً لكي يؤدي المعنى التالي: «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي».

لكن «ملكي» في هذا الاطـار، يتـابـع المؤلف، ليست لفظـة «ملك» بمعنى «الملِك» مضـافـة إلى ضمـير المتكلم، بل هي جمع «ملك» صيغـة تقليص للفظة «ملوك» بمعنى «لقمة» أو «ملء الفم»، وهي اشتقاق من جذر فعلي وارد في العربية دون العبر ية«هو «ء لك» (ألك، أي علك أو مضغ) ومن مشتقـات هذا الجـذر بالعربية* عبارة «ألوك صدق» أي ما يؤكل وهو الطعام.

---

* ـ هكـذا وردت في الترجمة العربية للكتاب. ونعتقد بوقوع خطأ مطبعي لأن المقصود هنا «العبر ية» وليس «العربية».

وهكـذا يصبـح المعنى الصحيـح لنص التكوين ١٤ : ١٨ كما يلي «وملك شلم أخرج ألوك صدق (أي طعاماً)، خبزاً وخمراً وكان كاهناً لـ ء ل عليون».

هذا الإكتشـاف المـذهل، كما يصفه المؤلـف، والذي جاء نتيجة مقابلة الأسماء، قد قاده إلى تقـديم الأطـروحة الرئيسية لكتابه. ففي دراسته تنقلب الأمـور رأسـاً على عقب. وبـدلاً من أخـذ جغـرافية التوراة العبرية كمسلمة ومنـاقشـة صحتها التاريخية، فانه يأخذ تاريخيتها كمسلمة ويناقش جغرافيتها. فمن بين شعـوب الشـرق الأدنى القـديم، يبدو أن بني اسرائيل كانوا وحدهم المـالكـين لاحسـاس مرهف بالتـاريـخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصـلاً. وعليـه فليس هناك أدنى شك بأن اسلاف الاسرائيليين كانوا ذات يوم قومـاً قبليـاً وقـع في الأسـر وأجـبر على العمـل والسخـرة في مكان يسمى «مصريم»، لم يكن بالضرورة مصر، وأنهم خرجوا من هناك برعاية قائد يسمى موسى نظمهم في مجتمـع ديني وأعطـاهم الشـريعـة، وأنهم عبروا نقطة معينة تسمى «هـ - يردن» ليست بالضـرورة نهر الأردن ليستقـروا في أرض كانت لهم عليها أخيراً السيطرة السياسية، وهي ليست من حيث المبدأ فلسطين. وبعد عصـر القضـاة والمملكـة الموحدة تحت راية شاول فداود فسليمان، تابع التاريخ الاسرائيلي مساره كما ذكرت التوراة العبرية أنه فعل.

ولكن افـتـراض أن كل هذا التـاريـخ حصـل في فلسطـين، ودراسـة النصـوص التـوراتيـة على هذا الأسـاس، سيؤدي إلى الابقاء على بحر من الأسئلة بلا جواب. وإذا نقلت جغـرافيـا التـوراة من فلسطـين إلى غرب شبه الجـزيـرة العـربية، لا تبقى هناك أية صعوبة. وتصبح الصورة التاريخية العامة للتـوراة العـبريـة، التي هي الـوحيدة التي تروي القصة الكاملة لأحد شعوب الشـرق الأدنى القـديم، مفتـاح اللغز لكل الأحاجي الغامضة لتاريخ الشرق القـديم، بدلاً من أن تكـون هي نفسهـا الأحجية، وهي بعيدة كل البعد عن كونها ذلك.

أمـا لماذا كانت نصـوص التـوراة بمثـابـة اللغز في تاريخ الشرق القديم

فيرجع، كما يرى المؤلف، إلى ان الدراسات والأبحاث الضخمة التي انتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال المائة سنة الأخيرة، تلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة. ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فان جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات، والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وان بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأرخت، في حين أنه لم يعثر في أي مكان كان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة إلى أي حد بالتاريخ التوراتي. واكثر من ذلك، فان التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة، وليس بين هذه أكثر من قلة قليلة تماثلت لغوياً مع أسماء أمكنة في فلسطين. وحتى في هذه الحالة فان الاحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية.

ومع أنه قد جرى التحقيق في كامل ميدان التاريخ القديم للشرق الأدنى بعمق، وبالعلاقة مع دراسة التوراة العبرية، فان هذا التاريخ، في الموقع الذي هو فيه حالياً، ما زال مليئاً بألغاز عدم اليقين، مثله مثل علم التوراة الحديث. وسجلات مصر والعراق القديمة، التي قرئت على ضوء النصوص التوراتية، والتي أخذت تلميحاتها الطبوغرافية تقليدياً على أنها تتعلق بفلسطين والشام ومصر والعراق، أجبرت على اعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين. والحملات المصرية والآشورية التي فهمت على أنها كانت موجهة ضد فلسطين وبلاد الشام، كانت في الواقع موجهة نحو غرب شبه الجزيرة العربية. وأخبار هذه الحملات إذا قرئت في نصوصها الأصلية، لا من خلال الترجمات التي وضعت لها حتى الآن، سوف تساعد في كشف حقيقة مجريات الأحداث في الشرق القديم.

كل هذا لا يعني في رأي المؤلف، أن اليهود لم يكن لهم أي وجود في

فلسطين خارج غرب شبه الجزيرة العربية في أيام التوراة، بل جل ما يعني هو أن التـوراة هي بالـدرجة الأولى سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية في زمن بني اسرائيل. وفي غياب السجلات الضرورية لا بد من التكهن بكيفيــة استقـرار اليهـوديـة في وقت مبكـر في فلسطـين. وهنـا يقـول الصليبي أنه سيغامر بتفسير يقدمه.

فأولاً: يرى الصليبي أن بني اسـرائيـل قد طوروا في منطقـة عسـير منذ مطلع القـرن العـاشـر قبـل الميلاد ديانة قادرة على اجتذاب المهتدين إليها من خارج موقعهـا الأصـلي، خصـوصاً وأنها كانت ديانة ذات كتاب طورها أناس قادرون على القـراءة والكتابة. والمرجح أن الانتشار المبكر لليهودية من موطنها الأصلي إلى فلسطين وبقاع أخرى في الشمال اتبع مسار القوافل التجارية، لأن منطقة عسير كانت نقطة تقاطع الخطوط التجارية الرئيسية في ذلك الزمن.

ثانيـاً: بسبب مواردهـا الطبيعيـة ومـوقعها التجاري كان غرب شبه الجزيرة العـربيـة محطـاً لأنظار الفاتحين. وبعد كل هجوم شامل من ناحية مصر أو بلاد الرافدين، كانت موجات جديدة من المهاجرين تتجه نحو جنوب بلاد الشام.

ثالثـاً: كان للحـروب التي نشبت بين ملوك «يهـوذا» وملوك «اسـرائيل» والتي لم تتـوقف منـذ انهيـار مملكـة سليمان الموحدة، أكبر الأثر في دفع الهجرات نحو فلسطين. كما كانت هذه الهجرات تتعزز بالغزوات الخارجية.

رابعاً: في عام ٧٢١ ق.م قام الملك الآشوري صارغون الثاني بتصفية مملكة اسرائيل واستاق الأعيان من سكانها أسرى إلى بلاد فارس. ثم في العام ٥٨٦ ق.م قضى الملك البابلي نبوخذ نصر على مملكة يهوذا واقتاد الألوف من رعاياها إلى بابل. ويبدو أن وجوداً يهودياً، قوياً كان قد قام خلال هذه المرحلة في فلسطين، فلما ساءت أحوال الاسرائيليين في غرب شبه الجزيرة العربية صار اليهود هناك يتوسمون الخير في أرض الاستيطان الجديدة.

خامسـاً: بعد انهيار الدولة البابلية الجديدة على يد الفرس الذين كانوا يميلون إلى مصادقة اليهود، سمحوا لهم بالعودة فرجع منهم حوالي ٤٠ ألفاً مع

عائلاتهم إلى غرب شبه الجزيرة العربية وفي نيتهم اعادة بناء مجتمعهم هناك. غير أن الوضع الدولي الجديد كان قد غير مسالك التجارة من الجنوب إلى الشمال مما أدى فجأة بشبه الجزيرة العربية وشبكاتها التجارية إلى الركود الاقتصادي.

سادساً: عندما عاد المنفيون إلى بلادهم وجدوا كل ما حولهم خراباً وفقراً، ولم تكن الأوضاع العامة في شبه الجزيرة العربية تسمح لهم باعادة بناء مجتمع متوازن اقتصادياً واجتماعياً. ويبدو أنهم أخفقوا في اعادة الروح إلى دولة ماتت وعفا عليها الزمن. وأما ما تلا ذلك فلا يمكن اكتشافه إلا بالتكهن، لأن الرواية التاريخية للتوراة تتلاشى وتنتهي عند هذه النقطة وينتهي معها تاريخ بني اسرائيل الذين زالوا من الوجود كشعب. أما اليهودية كدين فاستمرت. ويحتمل أن يكون معظم العائدين في المرحلة الأخمينية قد رجعوا إلى بلاد فارس والعراق. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً وحتى تدمير الرومان لأورشليم الفلسطينية عام ٧٠ ميلادية تركز التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين. وقبل أن يمر وقت طويل كانت أصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت غياهب النسيان.

سابعاً: منذ بدايات استيطانهم في فلسطين قادمين من غرب شبه الجزيرة العربية، أطلق اليهود على مستوطناتهم التي أحدثوها وعلى مستوطنات بائدة أحيوها أسماء مدنهم القديمة في موطنهم الأصلي. وفعلت مثلهم الشعوب التي جاورتهم هناك والتي هاجرت أيضاً إلى فلسطين وبلاد الشام مثل الفلستيين والكنعانيين والآراميين والموآبيين.

ثامناً: من العوامل التي ساعدت على طمس ذكرى الماضي اليهودي، ما يتعلق بالتطورات السياسية في غرب شبه الجزيرة العربية وفي فلسطين بعد انقراض بني اسرائيل. ففي غرب شبه الجزيرة العربية، أدى الضعف التدريجي الذي أصاب الامبراطورية الأخمينية إلى نشوء كيانات سياسية جديدة، مثل دولة معين التي قامت في المنطقة ذاتها التي شهدت قبلاً قيام مملكة

الاسرائيليين . وقد تشتت يهود شبه الجزيرة العربية بين هذه الكيانات المحلية . أمـا في فلسطـين فقـد رسمت فتـوحـات الاسكنـدر عام ٣٣٠ ق . م نهايـة الامـبراطـورية الفارسية ، وبعد موته واقامة المملكة السلوقية في سورية ومملكة البطالسة في مصر، خضعت فلسطين للسلوقيين بعد نزاع عليها مع البطالسة . وخـلال القـرن الثـاني قبـل الميـلاد ، اغتنم اليهـود فرصة استمرار النزاع على فلسطـين بين السلوقيـين والبطالسة فقاموا بثورة ناجحة حوالي سنة ١٤٠ ق م ، وتمكن قادة هذه الثـورة من الحشمـونيـين الكهنـة من السيطـرة على أورشليم وتوسيع رقعة الأراضي اليهودية في فلسطين . وكان يهود العالم قد اعتادوا على النظـر إلى هيكـل أورشليم الفلسطينيـة على أنـه قدسهـم الـرئيسي ، على ما يبـدو، فاعتـبر الحشمـونيـون أنفسهم الـورثـة الشـرعيـين لاسرائيل القديمة واستمرت مملكتهم حتى مجيء الرومان الذين أنهوا استقلالهم .

وبغض النظر عما كانه الاسم الأصلي لأورشليم الفلسطينية في الحقيقة ، فمن المؤكد انه قد تم الاعتراف بها كأورشليم داود وسليمان الأصلية ، وذلك في أيام الحشمونيين ، إن لم يكن أبكر . وفي ذلك الوقت كان قد تم أيضاً اعتبار فلسطـين بأنهـا هي الأرض الأصليـة لشعب اسرائيل البائد وللتوراة العبرية . وكان المسرح الجغرافي للروايات التوراتية قد أصبح يفهم على أنه يضم بشكل رئيسي بلاد الشرق الأدنى الشمالية ، وليس غرب شبه الجزيرة العربية .

نتائج اطروحات الصليبي :

بعـد هذا العـرض المـوجـز والـوافي للأطـروحات الرئيسية لنظرية كمال الصليبي ، نريد أن نبسط عدداً من النتائج الخطيرة التي توصلنا اليها النظرية . ونحن معنيـون بهذه النتـائـج وحـريصون على مناقشتها أكثر من حرصنا على مناقشة مسألة أصل التوراة وتاريخ قدماء الاسرائيليين . وإذا كان لحوارنا المقبل عبر صفحات هذا الكتاب أن يتركز حول مسرح الحدث التوراتي ، فذلك من

أجل المسألة الرئيسية التي أثارت نظرية الصليبي الشكوك حولها، وأعني تاريخ الشرق الأدنى القديم، برمته، وخصوصاً خلال النصف الثاني من الألف الثاني، وكامل الألف الأول قبل الميلاد.

أولاً: إن النقاش الدائر داخل حلقات علماء التوارة والتاريخ والآثار حول مصادقية التوراة ككتاب تاريخي، يمكن الركون إلى معلوماته المتعلقة بأحداث الشرق القديم، وهو نقاش لم يحسم بعد، قد حسمه كمال الصليبي لصالح كتاب التوراة الذي اعتبره كتاباً تاريخياً موثوقاً في جميع تفاصيله. فالاسرائيليون من بين جميع شعوب الشرق القديم كانوا وحدهم المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره (ص ٥٣). ولم يأت هذا الحسم لصالح المسائل التي صمتت عنها وثائق الشرق القديم وأوردها كتاب التوراة، بل تعدى ذلك إلى التشكيك في مصداقية كل وثائق الشرق القديم لصالح النصوص التاريخية التوراتية.

ثانياً: تضع نظرية كمال الصليبي تاريخ منطقة الشرق القديم على أرضية مهتزة، لأنه يرى أن السجلات التاريخية للمنطقة قد قرئت حتى الآن بشكل مغلوط، وأجبرت على اعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين (ص ٥١ - ٥٢). وبذلك يسقط المؤلف من اعتباره كل الجهود المضنية لعلماء اللغات القديمة، التي بذلت خلال أكثر من قرن ونصف بكل دقة ودأب المناهج العلمية الحديثة، ويضرب صفحاً عن شبكة المعلومات المتماسكة التي وصل اليها علم التاريخ استناداً إلى وثائق الشرق القديم المكتوبة. وبذلك يخرج كتاب التوراة من دائرة الشكوك لتدخل إليها ألواح الشرق القديم.

ثالثاً: أسقط المؤلف من حسابه كل نتائج علم الآثار في فلسطين وبلاد الشام، وكل شبكة المعلومات المتماسكة والمتقاطعة مع شبكة المعلومات التاريخية، التي رسمتها بدقة أجيال متعاقبة من علماء الآثار خلال قرن ونصف

القـرن، وذلـك لضـالح معلوماته المتحصلة عن طريق مقابلة أسماء الأماكن. وهو يرى «أن الدراسة اللغوية لأسماء الأماكن هي ضرب من علم الآثار» (ص ١٨) بل تتفـوق عليـه أحيـانـاً [«لأن الاكتشافات الأثرية اكتشافات خرساء مالم تتضمن كتـابـات منقـوشه، في حين أن أسماء الأماكن ناطقة، لا تخبرنا بما هي فحسب بل تخبرنـا أيضـاً بكيفيـة نطقهـا الفعلي وبمعناها وباللغة أو نوع اللغة التي انبثقت عنهـا. وفي غيـاب الكتـابـات والنقوش تبقى الاكتشافات الأثرية صعبـة التفسـير، وإلى درجـة تجعـل الجـدل بين علماء الآثـار حول المغـزى التـاريخي لاكتشـافـات معينـة كثيراً مايتدنى إلى مستوى الضغائن الشخصية»] (ص ٦٠). وهكـذا تتحـول كل انتصارات علم الآثار الحديث إلى معلومات متناقضة، عند المؤلف، تهبط إلى مستوى الضغائن الشخصية.

رابعـاً: نادراً ما استخـدم المؤلف تعبـير «علماء تاريخ» أو «علماء آثار»، وغـالبـاً ما استخـدم تعبير «الباحثين التوراتيين» أو «علماء التوراة» وكأن تاريخ الشـرق القـديم قد كتبـه البـاحثون التوراتيون، وآثاره قد نبشها علماء التوراة. وهـذه صورة غير مطـابقـة للواقـع تماماً، ففي مجال تاريخ وآثار الشرق القديم اليـوم، هنـاك تصنيف دقيق جداً يفـرق بين البـاحثين الموضوعيين ونتائجهم، وعلماء التوراة والمؤرخين والآثاريين الدائرين في فلكهم. وانه لمن الظلم لنتائج علمي التاريخ والآثار في حقل الشرق القديم أن تدمغ بهذا الشكل التعسفي.

خامساً: يرسم كتاب الصليبي خارطة سياسية وبشرية فريدة من نوعها لبـلاد الشـام وغرب العربية. فبعد أن نقل مسرح الحدث التوراتي إلى غرب العربية، كان عليه أن ينقل معه كل مواطن الشعوب التي تشابكت أخبارها في الرواية التوراتية. وبما أن هذه الشعوب موجودة تاريخياً وآثارياً باسمائها ومواطنها في منطقـة مصـر والهـلال الخصيب، فقـد عمـل على ايجـاد مثـائلها في غرب العـربيـة. فالكنعـانيـون موجـودون في فلسطـين والساحل السوري وأيضاً في عسـير وغـرب العـربيـة، ومـدنهم تحمل الأسماء ذاتها هنا وهناك. والآراميون موجودون في بلاد الشام الداخلية وأيضاً في غرب العربية ومدنهم تحمل الأسماء

ذاتها، وكذلك الفلستيون بمدنهم الخمس الرئيسية القائمة على الجهة البحرية من فلسطين، وفي أماكن متفرقة من غرب العربية، ومثلهم الأمورين والموآبيون والعمونيون وغيرهم. حتى لكأنها مرآة عاكسة وضعت عند خط ما في شمالي شبه الجزيرة العربية تلقي بصورة بلاد الشام نحو غرب العربية، لتخلق هناك طيفاً لا نظنه إلا وهماً لا سند له.

سادساً: غير أن تلك الصورة المعكوسة تغدو هي الأصل وفق نظرية المؤلف، ونصوص الشرق القديم يجب اعادة دراستها من جديد في نصوصها الأصلية، لتظهر بما لا يدع مجالاً للشك بأنها كانت سجلات لوقائع جرت في غرب العربية لا في بلاد الشام. كل ذلك يخلق معضلة تاريخية لم يحدد المؤلف أبعادها ولم يعن بتقديم مفتاح واحد لحلها: فإذا كانت سجلات مصر وبلاد الرافدين (خصوصاً آشور) معنية بتاريخ غرب العربية، فأين الوثائق المعنية ببلاد الشام وهي الجار الأقرب سواء بالنسبة لمصر أم لآشور؟ وأين تاريخ بلاد الشام في أخبار الوثائق القديمة التي تتقاطع فوقها دون أن تحفل بها؟ ان النتيجة التي لم ينتبه اليها المؤلف، لمثل هذا الطرح، هي تغييب تاريخ بلاد الشام وابراز تاريخ بني اسرائيل.

هذه النتائج هي موضوع حوارنا مع كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» عبر الصفحات المقبلة.

حول المنهج

سوف يعتمد منهجنا في هذا الكتاب، أساساً، على مناقشة النتائج لا على الدخول في جدل عقيم حول الوسائل. ففيما يتعلق بكل مسألة من المسائل الرئيسية التي أثارها كمال الصليبي، سوف نفترض الصحة في منهجه ووسائله، حتى نتوصل إلى نتائج معاكسة نستمدها من البينة التاريخية والبينة الأركيولوجية والبينة النصية المستمدة من كتاب التوراة ذاته ومن مواضع غير مختلف على قراءتها. أي ان هذا الكتاب سيكون بمثابة الفصل المفقود في كتاب الصليبي، الذي يعني باختبار النتائج المتحصلة وفق منهج مقابلة أسماء المواقع، ومقاطعتها مع النتائج المتحصلة باستخدام منهج مغاير.

ففي حالة بارزة هي حالة مدينة «صور» الوارد ذكرها مراراً في التوراة، يصل الصليبي إلى نتيجة مفادها أن صور التوراتية ليست هي «صور» الفينيقية الواقعة على الساحل السوري، بل هي الواحة المسماة اليوم «زور» أو «زور الوادعه» في منطقة نجران بمحاذاة بلاد «يام» المجاورة للصحراء العربية الداخلية، وسفن صور التي تروي عنها التوراة كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة لا سفن تمخر البحر (ص ٣٤ ـ ٣٥). إن امتحاننا لهذه المسألة لن يبتدىء بمجادلة المؤلف في نوعية القلب والاستبدال التي طرأت على الاسم التوراتي ولا في الطريقة التي قرأ بها كلمة «سفن» بالعبرية، وما إلى ذلك من وسائل منهجه، بل بالتعامل مع النتيجة مباشرة.

فإذا كانت وثائق وادي الرافدين التاريخية هي سجلات لأحداث جرت في غرب العربية، كما يؤكد المؤلف، فاننا واجدون فيها ولا شك ما يؤيد صحة نتائجه حول مدينة صور التوراتية. وهنا نبدأ في اجراء التقاطع الأول للنتيجة مع البينات التاريخية، فنأخذ في التفتيش عن صور في وثائق وادي الرافدين، فإذا تبين لنا أن صور، أينما وردت في تلك الوثائق، هي مدينة بحرية وأنها تتألف من قسمين واحد يقع على جزيرة قرب الشاطيء والآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الأول الذي يشير إلى «صور» المدينة الفينيقية على الساحل السوري لا الى «زور» الصحراوية في غرب العربية. ثم ننتقل بعد ذلك إلى اجراء التقاطع الآثاري، فإذا كانت الاكتشافات الأركيولوجية في موقع صور الفينيقية تؤكد ان المدينة القديمة كانت مؤلفة من قسمين واحد في البحر وآخر على البر المقابل،حصلنا على الدليل الثاني. أخيراً يبقى أن نجد في نصوص التوراة ما يؤكد هذا أو ذاك. فإذا قرأنا في سفر حزقيال: ٢٦ عن صور ما يلي: [كيف بدت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم]، وفي سفر زكريا: ٩ [. . وقد بنت صور لنفسها حصناً وكومت الفضة كالتراب والذهب كطين الأسواق. هوذا الرب يمتلكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار]، ثم اتفقت معظم المواضع التي ورد فيها ذكر صور مع ما ورد في سفري حزقيال وزكريا من وصف لمدينة بحرية، نكون قد حصلنا على الدليل الثالث وتوصلنا إلى نتيجة مدعمة علمياً تناقض نتيجة كمال الصليبي، التي تبدو عقب ذلك معلقة في الفراغ وفي حاجة إلى دفوع جديدة يقدمها صاحب النظرية، خارج منهجه في مقارنة أسماء المواقع والأمكنة.

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب: واحد يعنى بتقديم البينة التاريخية وآخر بتقديم البينة الآثارية (الأركيولوجية) وثالث بتقديم البينة النصية. ولغرض تعميم الفائدة على جميع شرائح القراء، فقد حاولنا أن

نصوغ حوارنا بطريقة نعرض من خلالها، بشكل سلس ومتتابع ، إلى المفاصل الرئيسية في تاريخ الشرق القديم وبعضاً من أهم معضلاته واشكالاته . وغامرنا بكل حذر علمي في ابداء وجهات نظر شخصية نبقيها مفتوحة للمناقشة والتعديل، لما قد نتعلمه من الزملاء الباحثين السباقين في هذا الميدان

الباب الأوّل

البيّنة التاريخيّة
وثائق الشرق القديم"

قبل حملة نابليون على مصر، كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم مستمدة من المصادر الاغريقية والرومانية (المصادر الكلاسيكية)، إضافة إلى ما تضمنه كتاب التوراة من أخبار متفرقة. ولم تكن هذه المصادر موثوقة بما فيه الكفاية، لأن تدوينها لم يعتمد المنهج العلمي في التدقيق والتمحيص وتقصي الحقائق، كما هو شأن علم التاريخ الحديث، بل اعتمد الأخبار المنقولة والقصص المتداولة والمشاهدات الشخصية العابرة، وتداخلت فيها الأهواء الشخصية للمؤلفين. ولكن التنقيبات الأركيولوجية في المنطقة التي افتتحتها حملة نابليون، وما نتج عنها من حل رموز الكتابات الشرقية وفهم لغاتها، قد وصلتنا بالحضارات القديمة مباشرة من دون وسيط، وأمدتنا بحقائق لا يمكن الشك بصحتها. وقد تكونت لدينا الآن وبعد أكثر من قرن ونصف من بذل الجهود المتضافرة لعلماء الآثار والتاريخ واللغات القديمة، صورة واضحة عن تاريخ وحضارات بلاد الشرق القديم. وبشكل خاص، لعبت الوثائق التاريخية التي دونتها تلك الشعوب عن أحداث زمنها دوراً أساسياً في معرفتنا بها وبحضاراتها ومجريات تاريخها وتاريخ الشعوب التي احتكت بها.

لقد حُلت منذ زمن، الكتابات الهيروغليفية المصرية والحثية، والمسمارية. السومرية والأكادية والآشورية والأوغاريتية، والأبجدية الكنعانية والآرامية، وفهمت لغاتها، وقرئت نصوصها وصححت قراءاتها مراراً وتكراراً

من قبل علماء كرسوا حياتهم لهذه الغاية، وبنت أجيال من المختصين عملها على انجاز من سبقها وطورته وفق المستجدات والمستحدثات، حتى صارت قراءتنا لنصوص الشرق القديم إلى حالة من الاستقرار لا يطاله نقض جذري، رغم بقائها منفتحة على التعديل والتنقيح مما يطال الغوامض والاشكالات الطفيفة من دون الأساسيات. من هنا، فنحن نرى أنه من التعميم الظالم أن تتهم كل هذه الجهود بالانطلاق من وجهة نظر توراتية والسير في ركاب علماء التوراة، لأن الواقع في معظم جوانبه هو عكس ذلك تماماً. فلقد كان اكتشاف رقم سومر وبابل وآشور وماري وأوغاريت، بداية لظهور اتجاه علمي جديد في نقد كتاب التوراة وتمحيصه بمنهج منفتح بعيد عن التعامل مع التوراة ككتاب مقدس يجسد كلمة الاله الموحاة، وتمت اعادة النظر في مجمل معطياته التاريخية والادبية والدينية على ضوء النصوص المكتشفة.

من هنا فنحن ننظر إلى دعوة كمال الصليبي إلى اعادة النظر بقراءات وثائق الشرق القديم بكثير من التردد والحذر، خصوصاً وانه لم يبين ولو بمثال واحد موضع الخطأ في قراءة أي نص آشوري أو بابلي أو مصري، ولم يبين لنا أي منهج جديد نستبدله بالمناهج القائمة في قراءة هذه النصوص. نستثني من ذلك نصاً فلسطينياً من بضعة أسطر مكتوباً بالكنعانية الفلسطينية (المدعوة خطأ بالعبرية المبكرة) ينقد فيه قراءة العالم التوراتي والأركيولوجي واختصاصي اللغات السامية المعروف وليم. ف. ألبرايت (انظر الصفحات من ٣١٣ إلى ٣١٤)، وهو الشخصية البارزة في المدرسة التوراتية في مجال تاريخ وآثار ولغويات فلسطين. وفيما عدا ذلك فهو لا ينـي عن تكرار القول بأن علينا أن نعيد قراءة سجلات مصر وبلاد الرافدين بلغاتها الأصلية من دون الترجمات التي وضعت لها حتى الآن، وذلك من غير أن يقدم نموذجاً نقدياً واحداً، سواء أكان هذا النموذج من نتاجه أم من نتاج غيره من الباحثين.

ولما كانت سجلات الشرق القديم، التي تعتبر احدى ركائز علم التاريخ الحديث، مجهولة لدى غالبية قراء كتاب كمال الصليبي، وحبيسة

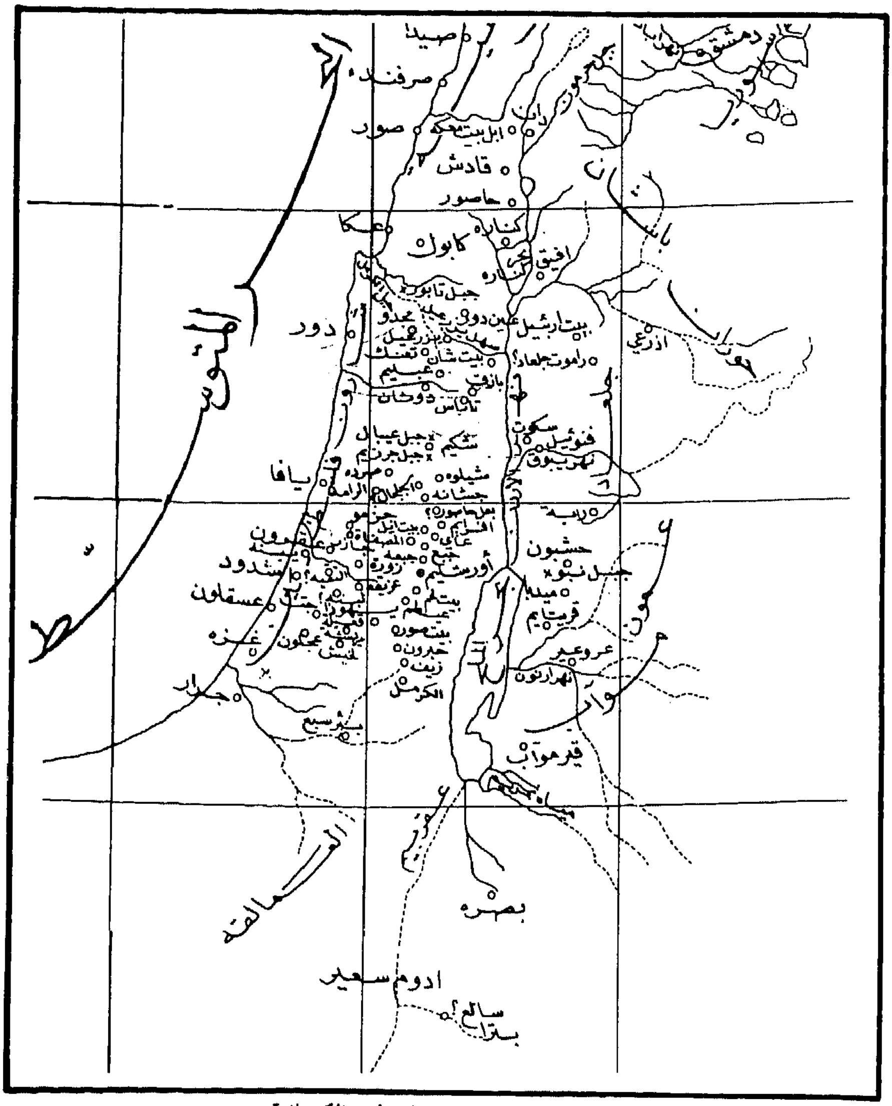
الكتب الاختصاصية جداً، فاننا سنعمد في هذا الباب من كتابنا إلى ايراد عدد كاف منها في حدود موضوعنا المطروح، ونختبر أطروحات المؤلف الرئيسية على محك المعلومات الثابتة التي تقدمها، مركزين بشكل خاص على سجلات الحملات المصرية والآشورية وما تضمنته من معلومات طبوغرافية وجغرافية، مع اجراء التقطاعات بين هذه المعلومات ونتائج التنقيب الأركيولوجي الحديث في المنطقة.

وكما أشرنا سابقاً، فان جهدنا لن يكون منصباً على تاريخ بني اسرائيل، بل على تاريخ أرض كنعان، وبلاد الشام عموماً. ذلك أن الاسرائيليين ما شكلوا يوماً قوة سياسية يعتد بها، ولا قدموا اسهاماً حضارياً يمكن وصفه بالاسهام الاسرائيلي المتميز بخصائص واضحة، بل عاشوا طيلة تاريخهم القصير تحت مظلة كنعان الوارفة.

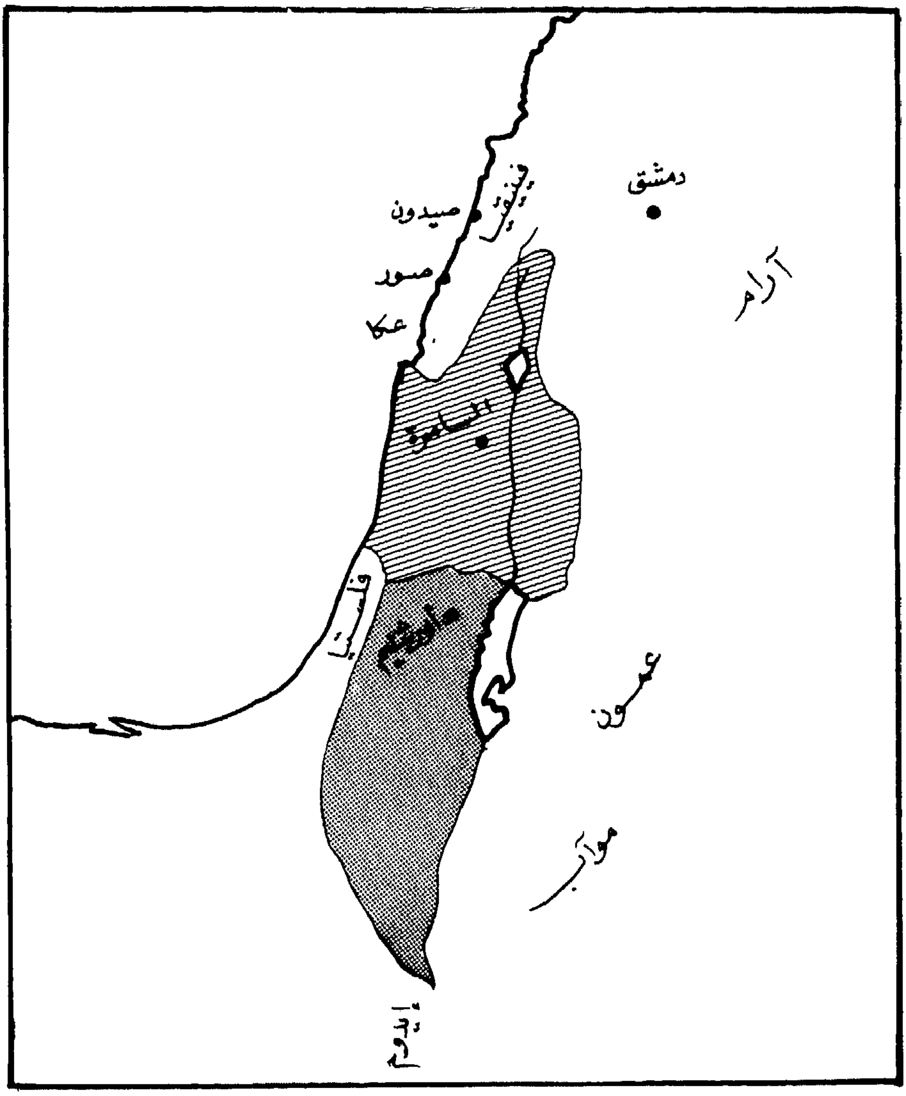
فبعد مملكة داود وسليمان الموحدة التي لم تدم أكثر من خمسين سنة إبان القرن العاشر قبل الميلاد، والتي بسطت سلطتها السياسية لفترة مؤقتة على كامل أرض كنعان الفلسطينية (انظر خريطتنا رقم ١) انقسمت السلطة السياسية إلى مملكتين، مملكة اسرائيل في الشمال تبعها عشرة أسباط، ومملكة يهوذا في الجنوب وتبعها سبط واحد اضافة إلى سبط يهوذا (انظر خريطتنا رقم ٢). لم تدم حياة مملكة اسرائيل، التي عاشت كمملكة كنعانية في ديانتها وشتى مظاهر حضارتها، اكثر من قرنين من الزمان، إذ تم محوها من الخارطة بشرياً وسياسياً على يد الآشوريين عام ٧٢٠ ق.م، وحملت أسباطها العشرة إلى المنفى حيث ضاعت إلى الأبد، ولم يعد أحد من المنفيين قط، على ما تؤكده الرواية التوراتية. وقد أحل الآشوريون في الأرض سكاناً جدداً من مناطق بلاد الشام المقهورة الأخرى، على ما تذكره الرواية التوراتية وتؤكده السجلات الآشورية التي تذكر بالتفصيل المناطق التي جرى ترحيل السكان منها إلى اسرائيل. أما مملكة يهوذا فاستمرت بعد دمار مملكة اسرائيل قرابة قرن من الزمان إلى أن دمرها «نبوخذ نصر» البابلي واقتاد جل أهلها إلى المنفى (عام

٥٨٧ق.م). ولم يعد من هؤلاء المنفيين سوى قلة قليلة أيام «قورش» الفارسي الــذي قضى على المملكــة البـابليـة الجـديـدة عام ٥٣٩ق.م، وقـد حاول العـائـدون تشكيـل دولة صغيرة جداً في أورشليم وجوارها لم تتجاوز مساحتها سدس مسـاحـة فلسطين الاجمالية (انظر خريطتنا رقم ٣). وبعد ذلك تدخل فلسطـين تحت الحكم اليـونـاني فالروماني، ويتم الافناء النهائي للقلة اليهودية عام ٧٠ ميلادية عقب ثورة قامت بها على السلطة الرومانية.

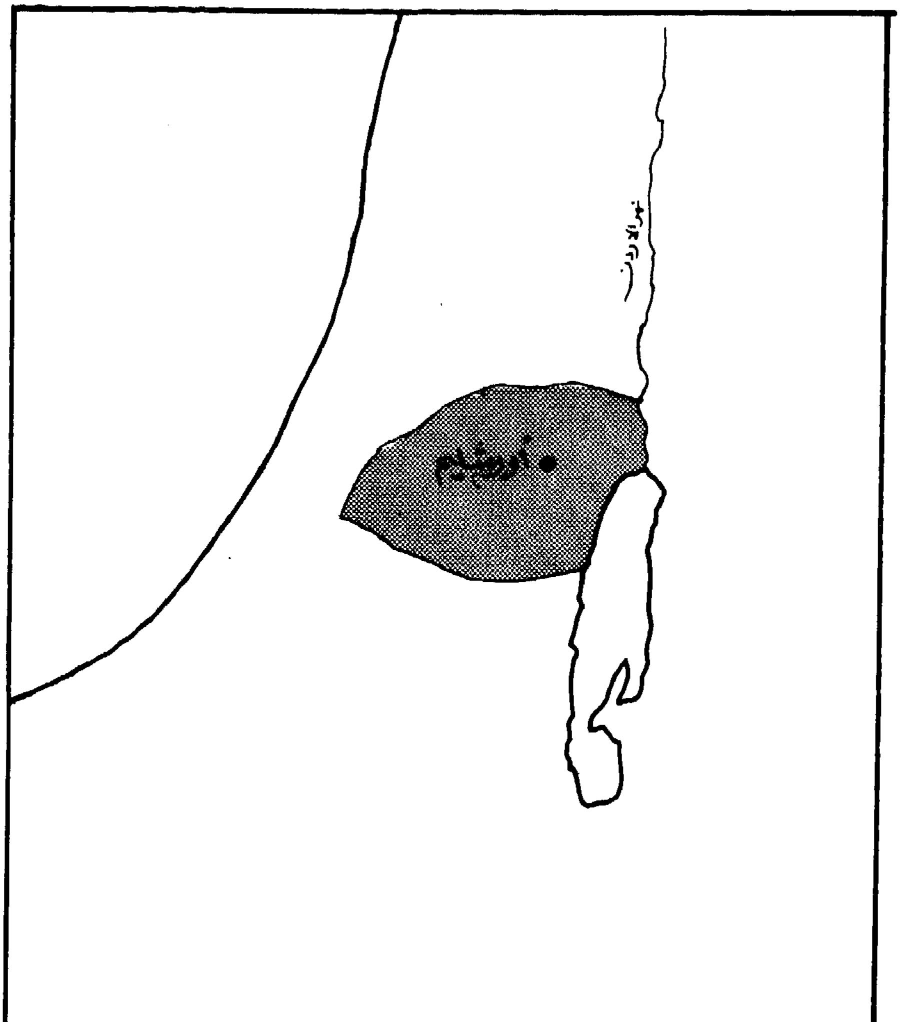
فالـوجـود السيـاسي للاسرائيليين، إذن، لم يستمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف القـرن في أرض كنعـان التي يضـرب تاريخها الطويل في مطالع التاريخ ابـان الألف الـرابع قبل الميلاد. ومأثرتهم الثقافية الوحيدة كانت كتاب التوراة الذي بدأ أحبار اليهود بتحريره، نقلاً عن وثائق متفرقة وروايات متناقلة، إبان الأسـر البـابـلي وأنهـوا عملهم بعد العودة من السبي. وهذه المأثرة الوحيدة هي في الـواقـع ظاهـرة ثقافية لا يمكن فهمها ودراستها إلا في السياق العام للحضارة الكنعانية اجمالاً، واعتبارها انجازاً من انجازاتها تم على يد فئة لم تزد عن كونها فئة كنعانية في شتى مناحي حياتها وثقافتها.



الخارطة رقم (١) ـ فلسطين الكنعانية



الخارطة رقم (٢) ـ مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا



الخارطة رقم (٣) - رقعة يهوذا بعد السبي

١ـ سجلات مصر الفرعونية

المملكة القديمة والمتوسطة :

رغم أن مصر كانت أقل تطلعاً إلى الخارج وأقل رغبة في التوسع قبل طرد الهيكسوس (حوالي عام ١٥٧٠ق. م) واعادة توحيد البلاد، إلا أن علاقاتها مع جيرانها الشرقيين في بلاد الشام لم تنقطع قط منذ بدايات التاريخ المصري، يشهد على ذلك العديد من النصوص التاريخية المصرية والأعمال الفنية. فمن سجلات المملكة القديمة وصلتنا وثيقة للفرعون «سينفرو» الذي حكم حوالي ٢٦٥٠ق. م، تتحدث عن وصول أربعين سفينة محملة بخشب الأرز لاستخدامها في صنع أبواب القصر الملكي[1]. ورغم أن مصدر الخشب غير مذكور في النص، إلا ان السفن التي صعدت به نهر النيل لا يمكن أن تكون قد أبحرت إلا من أحد الموانيء السورية على شاطيء المتوسط.

ويبدو أن إبقاء خطوط التجارة مفتوحة مع سورية كان يتطلب، بين الحين والآخر القيام بحملات عسكرية. ولدينا نصوص ورسوم تصف مثل تلك الحملات منذ عصر الأسرة الخامسة، منها رسم يصور سفناً عائدة بأسرى آسيويين من عهد «ساهو- رع» الذي حكم حوالي ٢٥٥٠ ق. م، ورسم آخر عثر عليه في أحد أضرحة الأسرة السادسة يصور هجوماً مصرياً على قلعة

1- John A. wilson, Egyptian Historical Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Priceton 1969) p 227

يدافع عنها آسيويون[2]. وهناك نص من موقع «أبيدوس» تركه قائد عسكري عمل لدى الفرعون «بيبي الأول»، وهو أحد فراعنة الأسرة السادسة، وحكم حوالي عام ٢٣٧٠ق.م، يتحدث فيه عن انتصارات المصريين على الآسيويين[3] دون أن يقدم معلومات كافية عن نوع الشعوب الآسيوية التي تعرضت للهجوم، أو تفاصيل جغرافية تعين على تحديد المناطق التي غطتها الحملات المصرية في ذلك الوقت.

تقدم نصوص المملكة المتوسطة معلومات أكثر تفصيلاً تساعدنا على معرفة الأماكن والشعوب الآسيوية التي كان المصريون على احتكاك بها. ففي نص تركه أحد أفراد حاشية الفرعون «سينوسرت الثالث» الذي حكم حوالي عام ١٨٨٠ ق.م، يتحدث كاتب النص عن حملة الفرعون جنوباً نحو بلاد النوبة، ثم انقلابه شمالاً لتأديب الآسيويين: [اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الآسيويين، فوصل المنطقة الأجنبية المسماة «شكميم»، فسقطت بيده شكميم مع الـ «ريتينو» الأنذال..][4]. ورغم قصر هذا النص واختزاله، فانه يقدم لنا معلومات لا بأس بها عن مسرح حملة الفرعون. فبعد انتصاره في حملات النوبة جنوباً، يتوجه شمالاً للقاء الآسيويين في فلسطين، لا شرقاً نحو عسير عبر البحر الأحمر. وهو يصل إلى «شكميم» التي هي «شكيم» التوراتية، المدينة الكنعانية المزدهرة في فلسطين خلال عصر البرونز الوسيط، والتي تذكر الرواية التوراتية أن ابراهيم قد نصب خيامه بجوارها (التكوين ١٢ : ٦) وأن يعقوب قد ابتاع فيها قطعة نصب فيها خيمته (التكوين ٣٤ : ٢). ويبدو أن شكيم في هذا النص كانت على رأس حلف من الدويلات المجاورة، لأن الفرعون يهزمها ومعها الـ «ريتينو». وكلمة الريتينو تشير، باجماع علماء الهير وغليفية

2- Ibid p 227

3- Ibid, P228

4- Ibid, P 230

المصرية، إلى بلاد سورية وفلسطين[٥]، ولا يوجد في النصوص المصرية ما يدل على علاقتها بجزيرة العرب.

وفي الحقيقة يقدم لنا هذا النص أقدم مثال عن أحلاف الدويلات السورية التي كانت تعقد لمواجهة الخطر الذي يأتي إما من وادي النيل أو وادي الرافدين، دون أن تتحول هذه الأحلاف إلى دولة مركزية واحدة.

إلى جانب النصوص والمشاهد التصويرية الفنية المصريه، تساهم المكتشفات الأثرية في سورية في اعطاء صورة عن العلاقات المصرية السورية خلال عصر المملكة المتوسطة. فقد عُثر في العديد من المواقع السورية على مصنوعات يدوية مصرية عليها أسماء فراعنة من المملكة المتوسطة أو أسماء لمبعوثين مصريين، وذلك في «جبيل» (بيبلوس) و«بيروت» و«أوغاريت» على الساحل السوري، وفي «قطْنا» (تل المشرفة) أواسط سورية، وفي «مجدو» بفلسطين[٦]. ويبدو أن هذه المصنوعات كانت هدايا ملكية للتعبير عن العلاقات الديبلوماسية بين الفراعنة وملوك الدويلات السورية. وقد أمدتنا حديثاً مكتشفات موقع «ايبلا» بشمال سورية بمثال جديد عن العلاقات المصرية السورية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. فقد عثرت بعثة التنقيب هناك خلال حملة ١٩٧٨ - ١٩٧٩ على صولجان ملكي عليه اسم الفرعون «حوتيب إبرا» من الأسرة الثالثة عشرة، والذي حكم بين عام ١٧٧٥ وعام ١٧٦٥ ق.م، وكانت الحملات التنقيبية في فلسطين قد اكتشفت في «اريحا» نحتين صغيرين يمثلان جُعلاً، عليهما اسم الفرعون نفسه. كما عثر في «جبيل» على نحت بارز للفرعون «نيفر حوتب الأول»، وفي «تل حزين» قرب «بعلبك» عثر على تمثال للفرعون «سوبيك حوتب الرابع» وكلاهما من الأسرة

5- Ibid, P 230

6- Ibid, P 228

الثالثة عشرة نفسها(٧).

كان اجتياح الهكسوس القادمين من بلاد الشام، لمصر، بمثابة رد على محاولات التوسع لفراعنة المملكة المتوسطة. وقد احكم الهكسوس سيطرتهم على مصر قرابة مائتي عام من ١٧٣٠ إلى ١٥٧٠ ق.م، عندما تم طردهم على يد «أحمس الأول». ولدينا نص هيروغليفي من تلك الفترة يتحدث عن الحملة الأخيرة على مدينة «افاريس» عاصمة الهكسوس في منطقة الدلتا، ومطاردتهم من ثم إلى مواطنهم الأصلية في سورية. نقرأ في الجزء الأخير من النص على لسان أحد قادة الحملة: [.. ثم سقطت أفاريس ونهبت، فغنمت رجلاً وثلاث نساء وهبهم لي جلالته عبيداً. بعد ذلك حوصرت «شاروحين» لمدة ثلاث سنوات سقطت بعدها ونهبت، فغنمت امرأتين ورجلاً جعلوا لي عبيداً وأعطيت ذهباً لشجاعتي. وبعد أن قضى جلالته على الآسيويين اتجه جنوباً لمحق النوبيين. بعد هذه الأمور أتى «تحوتمس الأول» فتوجه إلى بلاد «ريتينو» ليشفي غلة فؤاده في الأراضي الأجنبية، فوصل جلالته إلى «نهارين» حيث التقى بالاعداء بينما كان ينظم صفوف الجند، فأعمل فيهم مذبحة عظيمة..](٨).

يقدم لنا هذا النص معلومتين هامتين تتعلقان بموضوعنا، الأولى حول مدينة «شاروحين» والثانية حول منطقة «نهارين»، فبعد هدم عاصمة الهكسوس في الدلتا، يتابع الجيش المصري مطاردة الهكسوس الذين تحصنوا في مدينة شاروحين عند الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان في فلسطين، ويبدو أن المدينة كانت واقعة تحت سيطرتهم نظراً لقربها من الحدود. ومدينة شاروحين مذكورة في التوراة كاحدى المدن الكنعانية التي قسمت لسبط

7- Scandone And Matthiae, The Mace of Hotepibra (In: Studies In The History And Archaeology Of Palestine, Aleppo University 1987) PP 49-52

8- John A. Wilson, op. cit PP 233- 234.

شمعـون ضمن أراضي سبـط يهوذا في جنـوب فلسطـين. نقـرأ في سفر يشوع ١٩ : ١ ـ ٥. [وكـان نصيبهم داخـل نصيب بني يهوذا. فكان لهم في نصيبهم بئـر سبـع و شبـع ومولادة وحصر شوغال وباله وعاصم والتولد. وتبول وحرمة وصقلغ وبيت المركبوت وحصر سوسة وبيت لباوت وشاروحين].

وهكـذا يتحـدد معنـا المكـان التقريبي لاحدى المدن الحدودية الجنوبية لأرض «يهوذا». فالجيش المصري لم يطارد الهيكسوس، بعد تدمير عاصمتهم في الـدلتـا، قاطعـاً صحراء سيناء ثم ملتفاً حول خليج العقبة هابطاً شواطيء البحـر الأحمر إلى مناطق عسير حيث المكان المفترض لأرض يهوذا التوراتية في نظـريـة الصليبي (انظـر الفصـل ٨ من كتابه)، وانما توجه مباشرة من أفاريس إلى الطـرف الجنـوبي الغـربي لأرض كنعـان، حيث داهم خط الدفاع الثاني الذي أقامه الهيكسوس في شاروحين اثناء تراجعهم نحو الأراضي التي أتوا منها أصـلاً، كمـوجـة من موجـات العمـوريـين التي انسـاحت في منطقـة الهـلال الخصيب مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

كما أن تحديد موقع شاروحين في جنـوب فلسطين يساعدنا على تحديد موقـع توراتي هام استبعـد الصليبي وجـوده في أرض كنعـان وهـو «بئر السبع» (انظر الفصل ٤ من كتابه). فبئر السبع ترد في النص التوراتي المذكور أعلاه بالـترافق مع شاروحـين ومجمـوعـة المـدن التي أعطيت لسبـط شمعون ضمن أراضي يهوذا. وبـذلـك يتحـدد موقعهـا في جنوب فلسطين وفي مكان لا يبعد كثـيراً عن موقـع بئـر السبـع الحـاليـة. وتحدد بئر السبع بدورها مكان صحراء النقب التوراتية (هـ ـ نجب) باعتبارها البادية الواقعة جنوبي فلسطين، وهي التي نقلها الصليبي مع بئر السبع إلى أواسط منطقة عسير في غرب العربية.

المملكة الحديثة ـ تحوتمس الأول:

بعد أحموس الأول، يتابع الفرعون «تحوتمس الأول»، في النص أعلاه،

مطـاردة الهيكسـوس واستئصـال شأفتهم، فيسـير على خطى أحمس إلى بلاد «ريتينـو» حتى يصـل «نهـارين» فيقضي على العدو في معركة حاسمة. ويعود أدراجه. وبلاد ريتيينو، كما ذكرنا منذ قليل، هي حصراً سورية، وفلسطين في النصـوص المصرية. أما نهارين فهي مثنى «نهر» وتشير في النصوص المصرية، كما سنـرى مراراً فيـما بعـد إلى حوض الـرافـدين وإلى حوض الفرات الشمالي بشكـل خاص. وسـوف نتحـدث بالتفصيـل عن علاقـة «نهارين» النصوص المصرية بآرام النهرين التوراتية، لاحقاً.

تحوتمس الثالث:

تراخت قبضـة مصـر عن الدويلات السورية قليلاً إبان حكم «تحوتمس الثـاني» والملكـة «حتشبسـوت». ولكن ما ان ارتقى العـرش «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق. م)، حتى بدأ بسلسلة من الحمـلات على بلاد الشـام دامت طيلة حيـاتـه. وكـانت معركة «مجدو» بفلسطين، التي قادها ضد تحالف سوري، فاتحـة معاركه الكبرى، والمؤسسة الحقيقية لسلطة الأسرة الثامنة عشرة في آسيـا. ولـدينا نص طويل منقوش على جدار معبد الكرنك يسرد الحوليات الحـربيـة لتحوتمس الثالث ويتحدث بتفصيل وإفاضة عن حملة مجدو، مع ذكر الأماكن والتواريخ بدقة. وسنقدم فيما يلي ملخصاً لأهم فقراته:

في مطلع النص، يجتـاز تحوتمس الثـالث حصن «صـايـل» - Sile على الحـدود المصـريـة قرب بلدة القنطرة الحالية في برزخ السويس، وذلك في اليوم الخـامس والعشـرين من الشهر الرابع من الفصل الثاني للسنة، ثم يتقدم نحو بلدة «شـاروحـين» التي كانت الحـاميـة المصـريـة معسكرة فيها، ويجتازها إلى «غزه» التي يصلها في اليوم الرابع من الشهر الأول من الفصل الثالث للسنة. أي خلال مدة مقدارها تسعة أو عشرة أيام. وفي اليوم السادس عشر من الشهر نفسـه يصـل الجيش المصـري إلى مدينـة «يـاهيم» - Yehem، التي حدد

الباحثون موقعها عند الطرف الجنوبي لجبل الكرمل، أي خلال مدة مقدارها احد عشر يوماً، هناك يعقد الفرعون اجتماعاً لقادة جيشه شارحاً لهم الوضع العسكري :

[لقد دخل جيش «قادش»، العدو اللئيم، إلى مدينة «مجدو». وهناك جمع اليه أمراء كل البلاد الأجنبية التي كانت موالية لمصر. وكذلك «نهارين» و «ميتاني» من حوريين ـ Hurru وكوديين ـ Kode، باحصنتهم وجيوشهم ورجالهم. وكما نمي الينا، فقد قرر العدو أن ينتظر في مجدو ليقاتل صاحب الجلالة. فهلا أفضيتم إلي برأيكم في هذه المسألة؟]. بعد الاستماع إلى الفرعون، شرح له القادة الوضع التكتيكي للعدو. فجناح دفاعه الجنوبي في «تعنك» ـ Taanak، والشمالي في «وادي قينا» Qina قرب مجدو. وهناك ثلاثة محاور تؤدي إلى العدو. الأول مباشر وقصير ولكنه ضيق لا يسمح بالتقدم إلا في رتل واحد، والآخران أطول ولكنهما أسلم، واحد ينتهي في تعنك والآخر في «زفته» Djefti. ورجوه ألا يأخذ الطريق القصير المباشر. ولكن الفرعون، خلافاً لنصيحة قواده، قرر التقدم على الطريق القصير الضيق مباغتاً العدو الذي لم يكن يتوقع ذلك فهزمه هزيمة منكرة، أتى بعدها الأمراء المتحالفون لتقبيل قدميه وطلب العفو][9].

يعطينا هذا النص القيم معلومات جيدة حول عدة مواقع كنعانية قديمة ورد ذكرها في التوراة وهي : غزة وشاروحين وتعنك ومجدو. كما يذكر مدناً وشعوباً عرفنا بها علم الآثار وعلم التاريخ مثل قادش وميتاني وكود. ورغم أن كمال الصليبي لم يتعرض لحملات تحوتمس الثالث الشرقية بشكل خاص، إلا أنه حدد في مواضع متفرقة من كتابه أماكن بعض المواقع الواردة أعلاه في غرب العربية. فغزة هي «آل عزه» القرية الجبلية في أواسط سلسلة السراة جنوب النماص (ص ١٠٠)، وميتاني هي «وادي متان» في منطقة الطائف، ونهارين

9- Ibid, P 235-238.

هي قرية «النهارين» في موقع غير بعيد عن وادي متان في منطقة الطائف (ص ٢١٩)، ومجـدو هي «مقـدي» في منطقـة القنفـذة (ص ١١٩)، وتعنـك هي «الكنعه» في تهامة زهران - (انظر خريطة الصليبي رقم ٣).

فإلى أي حد ينطبق مسـار حملة تحوتمس الثـالث على هذه المـواقـع في غرب العربية؟

يتضـح من النص أن حلف الـدويلات السورية قد عقد هذه المرة تحت لواء مملكة «قادش»، التي كانت مملكة مزدهرة في تلك الأيام وتحكم منطقة واسعة في أواسـط وجنـوب بلاد الشـام. وقـد ورد ذكـرهـا مراراً في السجـلات الحثية والآشـوريـة وغيرها من وثائق الشرق القديم، مما ساعد المؤرخين على تحديد موقعها التقريبي، الى أن تمكن علم الآثـار من اكتشاف مدينة قادش تحت تل النبي منـد على الطـرف الجنوبي الغربي لبحيرة قطينة إلى الجنوب من مدينة «حمص» الحـاليـة[10]. ويبـدو أن ملك قادش قد جمع اليـه العـديـد من حكام الممالـك الشـماليـة، يذكـر النص منهـا الحوريين والميتانيين والكوديين. وكان الحـوريـون، وهم شعب يتكلم اللغـة الهنـدو أوربية، قد بدأوا بالتسرب إلى مناطق بلاد الشام الشمالية والجزيرة العليا منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، واستغلوا فترة ضعف السلطة في وادي الرافدين لتشكيل ممالكهم هناك، وأهمها مملكـة «ميتـاني» التي ازدهـرت أواسـط الألف الثـاني قبـل الميلاد في حوض نهر الخـابـور. ومعظم معلومـاتنـا عن مملكـة ميتاني مستمد مباشرة من وثائق مدينة «نـوزي» الميتـانيـة التي تم الكشف عن أطـلالهـا قرب «كـركوك» في الأراضي العـراقيـة الآن[11]. أمـا «كود» و«كوديون» فهي تسمية أطلقها المصريون على

10- الـدكتـور علي أبـو عسـاف، آثـار الممـالـك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٤١٢.

11- المرجع نفسه ص. ص: ٤٠٣ - ٤٠٥.

مناطق وسكان كيليكيا وشمال غربي سورية[١٢].

وقد انضمت الممالك الشمالية بقيادة قادش الى الممالك الجنوبية التي انضوت تحت لواء «مجدو» الكنعانية في فلسطين. وقد استطاع علم الآثار التعرف على مجدو القديمة تحت تل المتسلم على بعد عشرين ميلاً جنوب شرقي حيفا، وهو تل بيضوي الشكل يتحكم بالممر الاستراتيجي الذي يفصل جبل الكرمل الذي يندفع نحو البحر، عن سلسلة الجبال المركزية في فلسطين. وقد كانت مصر دائماً راغبة في ابقاء هذا الممر الاستراتيجي تحت سيطرتها من أجل تأمين تحركاتها نحو فلسطين الداخلية. كما كشفت التنقيبات أيضاً عن بلدة «تعنك» على مسافة خمسة أميال جنوب غربي مجدو تحت التل المعروف اليوم بتل تعنك. وقد أثبتت نتائج التنقيب الأركيولوجي أن الموقعين قد هدما وانقطع فيهما الاستيطان منذ مطلع القرن الخامس عشر، أي منذ حملة تحوتمس الثالث ومعركة مجدو، إلى أواخر القرن الرابع عشر حيث انتعشتا مجدداً واستمرتا إلى فترة الحكم الاسرائيلي[١٣].

ويرد في التوراة أن الاسرائيليين قد فتحوا مجدو أيام يشوع بن نون (راجع سفر يشوع ١٢ : ٢١ و١٧ : ١١). وهناك انتصر «باراق» و«دبوره» على الكنعانيين المدافعين بقيادة «سيسرا» (راجع سفر القضاة ٤ : ١٦ - ١٧). وتذكر مجدو مع تعنك باعتبارهما جارتين في منطقة واحدة (راجع سفر القضاة ٥ : ١٩ ويشوع ١٧ : ١٩).

والآن لنتابع مسار حملة تحوتمس الثالث على ما تذكره الوثيقة المصرية، وفي ضوء ما تشكل لدينا من معلومات حديثة. فالجيش المصري يجتاز حصن صايل المعروف في السجلات المصرية بوقوعه على الحدود المصرية مع شبه

12- John A. Wilson, op.cit p 262

13- Kathleen Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Menthuen, London 1985, PP 181-202, 342,335

جزيـرة سيناء قرب قرية القنطرة الحالية، ويدعى أيضاً حصن «تجارو»[14]. ثم يجتـاز بلدة شـاروحـين التي حددنـا موقعهـا سابقاً عند الطرف الجنوبي الغربي لفلسطـين، ليصـل إلى مدينـة غزة بعـد عشرة أيام، وهي المدة اللازمة لقطع المسافة بين القنطرة وغزة وطولها حوالي مائة وخمسين ميلاً، ضمن أراضٍ مسالمة واقعـة تحت تهديـد الحاميات المصرية التي كانت معسكرة في شاروحين. وبعد قضاء ليلة في غزة يتابع الجيش مسيرته إلى سفح جبل الكرمل على مقربة من مجدو التي تعسكـر حولهـا قوات التحالف السوري بقيادة ملك قادش، فيقطع المسافة بين غزة وجبل الكرمل، وطولها ثمانين ميلاً في أحد عشر يوماً، وهي مدة طويلة نسبياً والسبب في ذلك عائد إلى كون القوات المصرية تتقدم على طول الساحل الفلسطيني عبر مناطق عاصية ومعادية، وذلك على عكس تقدمها في المقطع الأول من الحملة عند بلدة ياهيم، يتوقف تحوتمس الثالث ليضع خطة الهجـوم، فنعـرف من حديث قادتـه العسكـريين أن المتحالفين كانوا يدافعون على خطوط متتابعة، حيث المؤخرة في تعنك والقلب حوالي مجدو والمقدمة الى الشـمال منهـا. ولكن مفاجأة الفرعون تُفشل خطة التحالف ويسقط المدافعون فريسة سهلة في يد تحوتمس الثالث.

وهكـذا نجـد أن مسـار حملة تحوتمس الثـالث ينطبق بكـامـل تفـاصيله ومسـافـاتـه على جغـرافيـة فلسطين من دون غرب العربية. فإذا كانت غزة المقصودة في هذه الوثيقة المصرية هي «آل عزه» الواقعة في أواسط جبال السراة جنوب النماص، لتـوجب على الجيش المصري بعد اجتيازه حصن صايل عند برزخ السـويس ان يقطـع صحراء سيناء، ثم يلتف حول خليج العقبة ويهبط سواحل البحر الأحمر إلى منطقة القنفذة حيث يلتف شرقاً نحو جبال السراة في طريق وعـرة وشـاقـة لا تقـل مسـافتها عن ١٢٠٠ ميلاً، وهي مسافة لا يمكن اجتيازها في عشرة أيام على ما ذكره النص المصري بوضوح، بل تتطلب قرابة

14- John A. Wilson, op.cit P 235

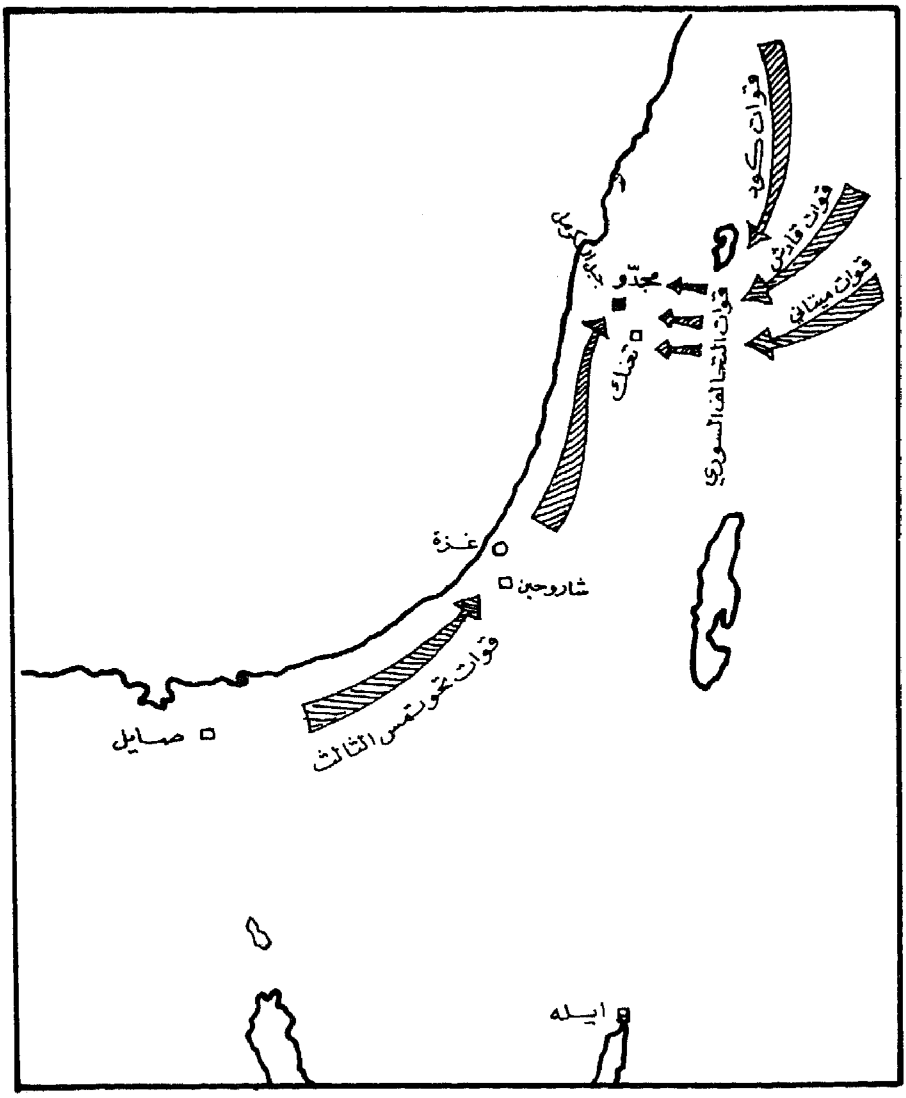
الشهر ونصف الشهر، إذا اخذنا المعدل العصري لمسيرة جندي المشاة في الساعة وهي ثلاثة أميال ونصف الميل. وإذا كانت «مجدو» التي نظمت حولها قوات التحالف السوري صفوفها هي «مقدي» غرب العربية، لوجب أن تكون «الكنعة» التي هي «تعنك» عند الصليبي على مقربة منها، ولكن نظرة إلى خريطة الصليبي رقم ٣ توضح أن المسافة بين «مقدي» في منطقة القنفذة و «الكنعة» في تهامة زهران لا تقل عن مائتي كيلومتراً، الأمر الذي يجعل من المستحيل تكتيكياً توزيع فرق المتحالفين على هذه المساحات الشاسعة، يضاف إلى ذلك أن النص المصري كان واضحاً كل الوضوح بخصوص تجمع قوات العدو في مجدو وجوارها (انظر خريطتنا رقم ٤).

وفي نص آخر قصير وقليل التفاصيل منقوش على مسلة معروفة بمسلة «عرمات» نسبة إلى المكان الذي اكتشفت فيه بمصر، نجد اشارة أخرى إلى حملة تحوتمس الثالث على مجدو. فالفرعون يتوجه إلى بلاد «زاهي» Djahi، وبلاد «ريتينو» لاخماد العصيان فيها، ويخوض معركة فاصلة ضد العدو الذي جمع قواته في مجدو[١٥]. وبلاد ريتينو كما رأينا هي فلسطين وسورية، أما بلاد زاهي، فهي كما يعرف كل دارس للنصوص المصرية، الساحل الفينيقي بشكل خاص، وقد تستعمل الكلمة بشكل مرن أحياناً للدلالة على الأجزاء القريبة من الساحل نحو سورية وفلسطين[١٦].

بعد حملة مجدو، تتابعت حملات الفرعون تحوتمس الثالث على بلاد الشام حتى بلغت ست عشرة حملة خلال عشرين سنة. بعض هذه الحملات كان حروباً حقيقية صعبة، وبعضها الآخر كان استعراضاً للقوة وجمعاً للجزية. وسنتابع فيما يلي استعراض بعض النصوص ذات العلاقة بموضوعنا، لأن المجال لا يتسع لعرضها جميعاً.

15- John A. Wilson, op.cit P 234

16- Ibid P 234



الخارطة رقم (٤) ـ معركة مجدّو

في حملته السادسة يتوجه تحوتمس الثالث إلى قادش، ثم ينقلب إلى مدن الساحل: [والآن كان جلالته في بلاد ريتينو ابان حملته السادسة المظفرة. وصل إلى قادش وجعلها خراباً، قطع أشجارها وحصد قمحها. بعد ذلك اجتاز جلالته «ريات» ـ Reyet متوجهاً إلى «سيميرا» ومنها إلى «أرداتا» ففعل بهذه المدن فعله بقادش، وحصل منها على الجزيات التالية. . (تعداد لأصناف الجزية المقدمة). وأخذ أولاد الأمراء أسرى إلى مصر، حتى إذا ما مات أمير منهم أرسل بولده خلفاً له][17] من المدن الواردة أعلاه، نعرف على وجه التأكيد قادش التي تم اكتشافها، كما ذكرنا، تحت تل النبي مند قرب مدينة حمص الحالية في سورية. كما تم التعرف على «أرداتا» إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان[18]، وبشكل شبه مؤكد على «سيميرا» المدينة الكنعانية الساحلية الكبيرة، وذلك تحت «تل الكزل» قرب ميناء طرطوس السوري، على ما تفيد التقارير الأولية لبعثة التنقيب الأثرية العاملة في الموقع الآن برئاسة الدكتورة ليلى بدر من الجامعة الاميركية ببيروت. وبذلك يتوضح مسار هذه الحملة التي ابتدأت من ضفاف نهر العاصي عند بحيرة قطينة ثم انعطفت شرقاً نحو الساحل القريب.

وعن حملته الثامنة تذكر حوليات الكرنك ما يلي: [كان جلالته في بلاد ريتينو. وصل إلى «قَطْنا» ـ Qatna في حملته المظفرة الثامنة، اجتاز بعد ذلك منعطف نهارين الكبير إلى شرق هذه المياه حيث نصب مسلة إلى جانب مسلة أبيه. ثم مضى شمالاً فاجتاح مدن نهارين وسلبها ودمر معسكرات الأعداء، ثم طاردهم بالمراكب مسافةً، فكانوا أمامه يفرون كقطيع حيوانات صحراوية لا يلتفتون إلى الوراء. بعد ذلك اتجه جلالته جنوباً فوصل بلاد «ني» Ni وقفل عائداً بعد أن وسع حدود مصر]. وفي نص آخر يعطي الفرعون

17- Ibid P.239

18- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق ص ٤١٤.

تفصيلات عن كيفية عبوره مياه نهارين : [لقد صنعت سفني من خشب الأرز عند جبال «بلاد الاله» قرب «سيدة جبيل» وحملتها على عربات تجرها الماشية سارت أمامي من أجل عبور النهر الكبير الذي يفصل بين هذه البلاد الأجنبية ونهارين . . وفي كل عام كانت أخشاب الأرز تحتطب من لبنان ويؤتى بها إلى بلاطي][19].

في نص الحملة الثامنة هذه ، يرد ذكر مدينة سورية هامة جداً هي مدينة «قَطْنا» التي كانت عاصمة لمملكة قوية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد . ويرد ذكر هذه المملكة في وثائق الدول المجاورة وخصوصاً وثائق مدينة «ماري» المعروفة على الفرات ، فقد تزوج «يمسخ حدد» ملك ماري من ابنة ملك قطنا ، على ما تذكره احدى الوثائق العديدة المتعلقة بالصلات مع مملكة قطنا ، كما عثر حديثاً على وثائق تذكر مملكة قطنا في أرشيف مدينة «ايبلا» في الشمال السوري . وقد كشفت التنقيبات الأثرية موقع قطنا تحت «تل المشرفة» على مسافة ١٨ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص الحالية بوسط سورية . ورغم أن الموقع لم يكشف بكامله بسبب وجود قرية «المشرفة» فوقه ، إلا أن ما تم اكتشافه كان كافياً للتعرف على عاصمة المملكة القديمة ، وخصوصاً النصوص التي حصلنا عليها من معبد المدينة والتي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ويأتي أحد هذه النصوص على ذكر أسماء الملوك الذين تتابعوا على حكم المدينة[20] . هذا وتعمل مديرية الآثار والمتاحف السورية حالياً على اخلاء القرية المذكورة تدريجياً من أجل متابعة عمليات التنقيب . كما ورد ذكر مدينة قطنا أيضاً في الوثائق الحثية بالأناضول . وفي احدى

19- J. A. Wilson, op. cit PP 239-240

20- P. Matthiae, Ebla, Hoder and Stoughton, London 1980, PP 23-24, 180

الدكتور علي أبو عساف ، آثار الممالك القديمة في سورية ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٨ ، ص ٣٢٥ .

هذه الوثائق، يذكر الملك «شوبيليوماس» أخبار انتصاراته في الجزيرة العليا وسورية الداخلية. فبعد توجهه إلى آشور، يعود الملك فيقطع نهر الفرات متوجهاً إلى «حلبا» (حلب)، وبعد فتحها يتابع مسيرته شرقاً إلى مملكة «موكيش» (التي تم اكتشاف عاصمتها تحت تل عطشانة شرقي انطاكية)، ثم يتجه جنوباً إلى «قطنا» فيدمرها ويتابع إلى «دمشق» التي يهاجمها بالتعاون مع قوات قادش[٢١].

من قطنا هذه تبتدي، حملة تحوتمس الثالث، الثامنة، في الأرض التي يدعوها النص ببلاد الاله، وهي تسمية معروفة في الوثائق المصرية للدلالة على بلدان المشرق عموماً حيث يصدر اله الشمس المصري كل صباح من أفقه الشرقي. وبعد القضاء على مقاومة المدينة يتوجه الفرعون نحو المنعطف الكبير لنهر الفرات، حاملاً معه السفن التي صنعت له خصيصاً في مدينة «جبيل» وقطعت لبنائها أخشاب الأرز من جبل لبنان. أما تعبير «سيدة جبيل» الوارد في النص فهو اسم تبادلي للإلهة «عستارت» إلهة الساحل الكنعاني عموماً ومدينة جبيل على وجه الخصوص، وكان المصريون يقدسونها ويقرنونها بالهتهم «هاتور». عند نهارين يجتاز الفرعون النهر الكبير إلى الضفة الشرقية فيقضي على مدن الأعداء ويطارد فلولهم بمراكبه.

فأين مسار هذه الحملة من مواقع كمال الصليبي المفترضة في غرب العربية؟ لم يتعرض الصليبي لمدينة قطنا القديمة، ولم يعط لها مقابلاً في غرب العربية، أما جبيل (بيبلوس عند الاغريق) المدينة البحرية المعروفة على الساحل اللبناني، والتي تدعوها النصوص المصرية «جيبال» Gebal[٢٢]، فقد

21- A. Goetze, Hitite Historical. Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 318

22- John. A. Wilson, Egyptian Myths (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 27

وجد مقابلها في موقع «القابل» في إقليم نجران الداخلي، ونهارين في «وادي متان» قرب الطائف (انظر الصفحات ٢٣٥ و ٢٢٩)، أما «لبنان» نصوص التوراة ووثائق الشرق القديم فهو ليس لبنان الشام، بل «لبينان» في شمال اليمن، وهو مرتفع تكثر فيه أشجار العرعر. وليس هناك ما يمنع في رأيه ان يكون أرز لبنان هو عرعر لبينان، لأن القواميس العربية تفيد بأن الأرز قد يكون العرعر (انظر الصفحات ٧٨ و١٥٢). وفي الحقيقة لا يمكن لمسرح الحملة الثامنة لتحوتمس الثالث أن يكون في غرب العربية. فالهدف الأول للحملة كان مملكة قطنا التي عثر عليها المنقبون في سورية وقرأوا نصوصها المكتوبة، وبعد اخضاع قطنا جاءت إلى الفرعون سفن مبنية في مدينة جبيل التي لا يمكن أن تكون «القابل» في اقليم نجران الجبلي الداخلي في غرب العربية، لأن السفن تبنى على الشواطىء لا على قمم الجبال. والخشب الذي استخدم في بناء مراكب تحوتمس الثالث، هو خشب الأرز المحتطب من جبل لبنان القريب من جبيل، لا خشب العرعر الآتي من لبينان نجران، لأنه إذا كانت كلمة الأرز في القواميس العربية قد تعني العرعر فان المصريين كانوا قادرين على التمييز بين الأرز والعرعر دون الرجوع إلى القواميس العربية، وهم عندما يذكرون الأرز فانما يعنون هذا الشجر تحديداً، وموطنه الوحيد في المنطقة هو مرتفعات سلسلة الجبال السورية الساحلية. وأخيراً أين مياه نهارين التي تقطعها المراكب إلى الجهة الشرقية ويبحر فيها المصريون لمطاردة الهاربين، من وادي متان قرب الطائف؟

وتعريف مياه نهارين على أنها نهر الفرات، يساعد على ازالة الشكوك التي أثارها كمال الصليبي في كون مدينة «كركميش» الواردة في النصوص المصرية هي كركميش السورية الواقعة على نهر الفرات إذ يقول: [.. والدراسة الصحيحة لحملة مصرية أخرى تذكرها التوراة العبرية هي حملة نخو الثاني في السنوات الأخيرة من القرن السابع، تدل على أن هذه الحملة أيضاً كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية الذي كان يسيطر

عليه البابليون آنذاك. ومعركة كركميش الواردة في أخبار الأيام الثاني وأشعيا وارميا التي جرت بين المصريين والبابليين بهذه المناسبة، انما جرت قرب الطائف في جنوب الحجاز، حيث ما زالت هناك قريتان متجاورتان تسميان «القر» و«قماشه». ولعل الحملات العسكرية الأبكر والتي تعود بتاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، والتي يفترض عموماً أنها كانت موجهة ضد فلسطين والشام، انها كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية..] (ص ٣٧). والحقيقة أن مدينة كركميش في سجلات حملات تحوتمس الثالث ترد كمدينة واقعة على مياه نهارين، والآتي اليها يعبر مياه النهر من عندها. نقرأ في نص تركه أحد قادة تحوتمس الثالث في حملته على نهارين: [.. ومرة أخرى كسبت الغنائم في هذه الحملة بأرض كركميش فحصلت على عدد من الأسرى الاحياء، ثم عبرت فوق مياه نهارين][٢٣]. فاضافة إلى ما أثبتناه من تطابق مياه نهارين مع نهر الفرات، فان موقع كركميش الواضح في هذا النص يتطابق مع موقع كركميش السورية على الضفة اليمنى لنهر الفرات*، (انظر خريطتنا رقم ٧).

وكانت كركميش عاصمة لمملكة سورية هامة تتحكم في حوض الفرات الشمالي منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وورد ذكرها مراراً في وثائق أرشيف مدينة ماري المجاورة لها والتي كانت على علاقات طيبة معها. وقد تم اكتشاف موقع المدينة قرب مدينة جرابلس الحالية على الضفة اليمنى للفرات عند الحدود التركية. خضعت المدينة للحثيين الأناضوليين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبعد انهيار الامبراطورية الحثية على يد شعوب البحر حوالي

23- L. Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts (in : James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts Princeton, 1969) P 241.

* ـ يحدد اتجاه مجرى النهر عادة ضفته اليمنى واليسرى، فإذا جرى جنوباً كانت ضفته اليمنى شرقية.

١٢٠٠ ق.م، صارت كركميش من أقوى الدويلات السورية الشمالية التي دعيت بالدويلات الحثية الجديدة[٢٤]، وهي تسمية خاطئة درج استعمالها بين المؤرخين، رغم دعوة بعضهم حديثاً إلى تغييرها. هذا وسيكون لنا عود على كركميش عندما نأتي إلى دراسة النصوص الآشورية التي ذكر فيها هذا الموقع مراراً.

قبل أن نترك سجلات تحوتمس الثالث، سنتوقف عند حملته السادسة عشرة والأخيرة: [والآن كان جلالته على الطريق الساحلي في سبيله الى تدمير «عرقاتا» ـ Irqata والمراكز الواقعة إلى جوارها. . تم الوصول إلى «تونيب» ـ Tunip التي أحرقت واجتثت مزروعاتها وقطعت أشجارها. ثم عاد الجيش مظفراً إلى منطقة قادش واستولى على ثلاث مدن هناك وأسر أعداداً كبيرة من المرتزقة الأجانب القادمين من نهارين للمعونة. .][٢٥].

ومرة أخرى فان مسرح هذه الحملة لا يخفي نفسه. فمدينة «عرقاتا» التي توجه اليها الفرعون على الطريق الساحلي، قد تم التعرف عليها في موقع «عرقا» اليوم وهي قرية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان[٢٦]. وقد وردت أيضاً في النصوص الآشورية مراراً كمدينة ساحلية، وباسمها الحالي عرقا دون تحوير[٢٧] أما «تونيب» فرغم عدم تمكن علماء الآثار حتى الآن من تحديد موقعها بدقة، إلا أننا نعرف من تقاطعات أخبارها في وثائق بلاد الشام أنها كانت عاصمة لمملكة صغيرة سيطرت على المناطق

24- Paolo Matthae, op . Cit P 19

الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه صفحة ٣٢٢.

25- John A.Wilson op. cit p 241

26- الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه صفحة ٤١٤.

27- Leo Oppenheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts (in: J. Pritchard's ٢٧ـ Ancient Near Eastern Texts) P 283

الممتـدة غربي مدينـة حمص. وهنـاك نص معـاهـدة مكتـوبة بين أحد ملوكها واسمه «آري ـ تشوب» وملك أوغاريت «نقم ـ عفا» تم العثور عليه في اوغـاريت[٢٨]. كما تم العثـور في أرشيف مدينـة «ألالاخ» عاصمـة مملكـة «مـوكيش»، التي اكتشفت تحت «تـل عطشانة» في سهـل العمق في الشمال السوري غربي حلب، على معاهدة مكتوبة بين ملك ألالاخ «نقميبا» وملك توتيب المـدعـو «يـاريم» تنظم علاقـات حسن الجوار بين البلدين نقتطف منها الفقرات التالية الموضوعة على لسان ملك ألالاخ:

ـ إذا أراد تاجـر من أحـد البلدين أن يبيـع بضـاعته في البلد الآخر، سواء أكانت قمحاً أم شعيراً أم زيتاً أم.. فانه يفعل ذلك دون الحصول على ترخيص مسبق بذلك.

ـ إذا تآمـر في بلادك أفـراد ضدي، وكـانـوا من مواطني «مـوكيش»، وسمعت بالأمر، عليك أن تبحث عنهم، ثم لا تقتلهم بل تقوم بتسليمهم إلي.

ـ إذا أبق عبد أو جارية في بلدي ولجأ إلى بلدك، عليك أن تقبض عليه وتعيده إلي.

ـ إذا رحلت بعض الأسر من بلدي إلى بلدك سعياً وراء الرزق، عليك باستقبـالهم وتأمـين معـاشهم. فإذا أرادوا العـودة عليـك أن تعمـل على تسفيرهم، ولا يحق لك احتجاز أي أسرة في بلدك منهم[٢٩].

اخناتون وفترة تل العمارنة:

بعد وفاة تحوتمس الثالث، تتراخى قبضة مصر تدريجاً عن مناطق نفوذها

28- الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه ص ٤١٢.

29- Erica Peiner, Akkadian Treaties From Syria :In: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 531-32

التقليـديـة في بلاد الشـام. وقـد بلغت مرحلة الانحسـار أوجهـا ابـان حكم الفـرعـون امنحوتب الرابع (اخناتون) الذي حكم بين عامي ١٣٦٩ و١٣٥٣ ق.م، حيث تركت المـمالـك السـوريـة لصـراعـاتها الداخلية ولهجمات قبائل «العـابـيرو» التي استهـدفت فلسطـين بالدرجة الأولى، بينما انشغل الفرعون باصـلاحـه الديني الشامل وديانته التوحيدية المتمركزة حول الاله «آتون» القوة الالهيـة الـوحيـدة المتمثلة في قرص الشمس الملتهب. اتخـذ اخنـاتون عاصمة جديـدة له في مدينـة «أخيت آتـون» أي افق آتـون، ليبتعـد عن مراكـز القوى الدينية القديمة. وقد تم اكتشاف هذه المدينة تحت «تل العمارنة» بمصر العليا في نهاية القرن الماضي وكان أهم ما عثر عليه هناك أربعمائة وثيقة مكتوبة باللغة الأكـاديـة التي كانت لغة الديبلوماسية الدولية في ذلك العصر، دعيت برسائل تل العـمارنـة لأن معظمهـا عبارة عن مراسلات تمت بين الفرعون وحكام آسيا الغـربيـة في بابـل وآشـور وميتـاني وكنعـان وحـاتي (مملكـة الحثيين). وغطت الرسائل فترة زمنية امتدت بين أواخر حكم «امنحوتب الثالث» والد اخناتون، وكامل سنوات حكم اخناتون، مما اصطُلح على تسميته بعصر تل العمارنة.

شغلت المراسلات المتبادلة مع ملوك الدويلات السورية حيزاً كبيراً من رسـائـل تل العـمارنـة، فهناك مراسلات مع ملوك «جبيل» و«عكا» و«مجدو» و«شكيم» و«جازر» و«أورشليم» وغيرها. إلا أن كمال الصليبي يرى في وثائق تل العمارنة رسائل متبادلة مع ملوك وحكام دويلات غرب شبه الجزيرة العربية فيقـول: [إن بعض أسـماء الأمـاكن المفردة الواردة في رسائل تل العمارنة تطابق فعـلاً أسـماء أمـاكن موجـودة في فلسطـين وفي غرب شبه الجزيرة العربية في آن معاً. وأبرز هذه الحالات تلك المتعلقة بـ «عكا» و«يافا». أما إذا أخذت أسماء العـمارنـة جماعياً، فإنها لا تندرج عملياً إلا في غرب شبه الجزيرة العربية] (ص ١١٧). وقـد توصـل الصليبي إلى هذه النتيجـة من غير أن يقـدم لنا نموذجاً واحـداً من رسـائل تل العمارنة، بل اكتفى بعرض جدول باسماء بعض المواقع الواردة في الرسائل ومقابلاتها في غرب العربية.

وقـد قمنـا بدراسة جميع رسائل تل العمارنة المتعلقة بالدويلات السورية في بلاد الشام، بكل عناية، فتبين لنا بها لايدع مجالاً للشك بأنها مراسلات قد جرت مع ملوك سوريـة وفلسطـين، ولا يمكن بحـال من الأحـوال ان تنطبق المعلومـات التـاريخيـة والأركيـولـوجيـة الواردة فيها على غرب العربية وسنقدم الدليل على ذلك من خلال عرض بعض تلك الرسائل.

نقرأ في النص EA, No190، وهو عبارة عن احدى رسائل ملك اورشليم الكنعـانيـة في فلسطـين إلى الفرعون ما يلي: [إلى الملك مولاي. هكذا يقول خادمك «عبدي هبة». انظر إلى ما فعله «مِلْك ـ ايلو» ـ Milkilu و«شوارداتا» ـ Shuwardata بأراضي الملك، مولاي. لقد دفعوا بقوات من «جازر» ـ Gezer ومـن «جـت» ـ Gath ومن «كيله» ـ Keilah. أخـذوا أراضي «روبـوتـو» ـ Rubutu، وأراضـي المـلك سلمـت إلى شعب «العـابـيرو». حتى بلدة في أراضي «أورشليم» من أمـلاك سيـدي اسمهـا «بيت لحم» ـ Bit-Lahm قد اعطيت الى «كيله»، فليصغ مليكي إلى خادمه «عبدي هبة» ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك. وإذا لم تصل القوات، فان أراضي الملك ستغدو للعابيرو](٣٠).

في هذا النص، كما في أي نص تاريخي آخر، هناك مواقع لم يتم التعرف عليهـا، وأخـرى مرجحـة، وثـالثة ثابتة بالدليل الاركيولوجي. فموقع «كيله» مشكوك بأمره، و «روبوتو» يرجح أن تكون في مكان ما جنوب غربي موقع «مجـدو»(٣١). أمـا «جـازر» فمـدينـة كنعانية هامة تقع على المنحدرات الغربية للسلسلة المـركـزيـة في فلسطـين، بدأ التنقيب في موقعهـا منـذ مطلع القـرن الحـالي، وتم التعـرف عليها خلال الحملات المتتابعة باجماع كل علماء الآثار.

30- W. F. Albright, Akkadian Letters (in:J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 489.

31- Ibid. P 489

وقـد افـادت التنقيبات الأخيرة أن المدينة ترجع بأصولها إلى الألف الرابع قبل الميـلاد، وبقيت مسكـونـة مع بعض الانقطـاعـات إلى الفـترة التوراتية[٣٢]. (ويمكن مراجعـة أخبـارهـا في التـوراة في المـواضع التالية: يشوع ١٠: ٣٣ و ١٦: ٣ و ١٠ و ٢١: ٢١ والأيـام الأول ٦: ٦٧ و ٢٠: ٤ والـقـضـاة ١: ٢٩ وصموئيل الثاني ٥: ٢٥ والملوك الأول ٩: ١٥ ـ ١٧).

وأمـا «جت» فكـانت احـدى مدن الفلستيـين الـرئيسيـة وحصنـاً من حصـونهم. أمكن لعلم الآثـار التعـرف عليهـا في موقع «تل جت» في الشريط السـاحـلي الفلستي جنـوبـاً[٣٣] (ويمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع التـاليـة (صموئيل الأول ٦: ١٧ و٧: ١٤ و١٧: ٤ وصموئيل الثاني ٢١: ١٥ ـ ٢٢ ويشوع ١١: ٢٢ والعدد ١٣: ٣٣ والتثنية ٢: ١٠ ـ ١١ وغيرها..).

ويلفت نظـرنـا في النص أعـلاه ورود ذكر بلدة «بيت لحم» لأول مرة في السجـلات القـديمـة، وتـرد هنـا مترافقـة مع «أورشليم» باعتبـارهـا تقع في منطقتها. فماذا قال كمال الصليبي بشأن هذين الموقعين الواردين في رسائل تل العـمارنـة؟. فيـما يتعلق بأورشليم، حدد مكـانها جنوب مدينة النماص بعسير حيث توجـد إلى الآن قريتـين توأمين اسم الأولى «أروي» والثانية «آل سلام» قرب التنومة (ص ١٢٠) أما «بيت لحم» فلم يأت على ذكرها في جدوله لمواقع تل العـمارنـة، بل في الفصل الثامن الذي يرسم فيه حدود مملكة يهوذا القديمة في عسير، حيث حدد موقع بيت لحم بقرية «أم لحم» الحالية في وادي أضم (ص ١٧٢). وبما أننا سنفرد لاحقاً في باب «البينة الآثارية» حيزاً كبيراً لأركيولوجية مدينـة أورشليم، فاننـا سنكتفي هنا بالاشارة إلى تناقض في طبوغرافية موقعي اورشليم وبيت لحم عند كمال الصليبي على ضوء رسالة تل العمارنة. فالرسالة تقـول أن بلدة بيت لحم تقـع في أراضي أورشـليم وهوما يتفق تماماً مع الوضع

32- Kathleen Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Mantheun, London 1985 P.326.

33- Ibid, P. 80, 215

الطبـوغـرافي للموقعين في كنعان حيث لا تبعد بيت لحم عن أورشليم أكثر من عشـرة كيلومـترات، أمـا في خريطـة الصليبي فان المسـافـة بين منطقة جنوب النـماص حيث تقـع القـريتـين التوأمين أروي وآل سلام، ومنطقة وادي أضم الشـمالي حيث المـوقع المفترض لبيت لحم، تبلغ الـ ٢٥٠كم، وهوما يتعارض مع نص رسالة تل العمارنة الواضح بهذا الشأن.

ولعـل من أكثـر رسـائـل تل العمارنة تمثيلاً للوضع السياسي في فلسطين والسـاحـل الكنعـاني، رسـالـة «رب عدي» ملك مدينة «جبيل» إلى الفرعون يشكو اليه فيها تعديات «عازيرو» ملك «آمورو» تقول الرسالة:

[من «رب عدي» ـ Rib-Addi إلى مولاه الملك، إله شمس البلاد. عند قدمي الملك أسجد سبع مرات وسبع. لقد كتبت مراراً في طلب قوات الحماية ولم أحصل عليها، فالملك لا يصغي لكلمات خادمه، ورسولي الذي بعثت به إلى البلاط عاد خالي الوفاض وبلا قوات. وعندما رأى أهل بيتي أن الفضة لم تعـط إلى، هزئـوا بي، وكـذلـك قوادي واخـوتي واحتقـروني. مضيت إلى «هـامـونـيري» ـ Hamuniri وكان أخي يؤلب المدينة ضدي ليعطيها إلى أبناء «عبـدوعشـيرتـه» ـ Abdu Ashirta. وعنـدمـا عرف أخي ان رسولي عاد خالي الوفاض وبدون قوات لدعمي، ازدراني وطردني خارج المدينة. أرجومن الملك ألا يقف مكتـوف اليـدين أمـام فعال ذلك الكلب. انظر إلى حالي، فأنا رجل مريض ومسن ولا أستطيـع القـدوم إلى مصـر... ولكني ارسلت ابني، خادم الملك مولاي. فليستمـع الملك الى كلمـة خادمـه ويرسل قوات من الرماة إلى جبيـل، لكي لا يدخلهـا المتمـردون وأبناء عبدوعشيرته... إن المتمردين لقلة ومعظم أهـل المـدينـة إلى جانبي، وعنـدما يسمعون بوصول القوات، ستعود المدينة إلى الملك مولاي... إن في مدينتنا جبيل ثروات كبيرة للملك مولاي، جاءت من أسـلافنا، فان لم يتدخل الملك من أجل المدينة فانه سيفقد كل مدن كنعان][٣٤].

34- W.F. Albright, op. cit. p 483

ويبدو أن تعديات «عازيرو» ابن «عبدوعشيرته» ملك آمورو قد شملت معظم مناطق الساحل الكنعاني. ولدينا رسالة من «أبي - مِلْك» - Abimilk ملك صور تكرر الشكوى نفسها، يقول في آخرها: [. . . إنني أحمي «صور» المدينة العظيمة من أجل مولاي الملك، إلى أن تصلني قواته فتهبني ماء لأشرب وحطباً لأدفأ. ثم إن «زيمير يدا» ملك «صيدون» قد كتب مراراً إلى المجرم «عازيرو» - Aziru ابن «عبدوعشيرته» بخصوص كل ما سمعه من مصر. وها أنا قد كتبت إليك بكل ما يتوجب عليك معرفته][٣٥].

«عازيرو» ملك «آمورو»، الشخصية المركزية في هاتين الرسالتين، معروف لدينا من وثائق أخرى بعضها من بلاد الشام وبعضها الآخر من موطن الحثيين في الأناضول. ومملكته آمورو، كما نعرف من هذه الوثائق، كانت تسيطر على السهول الممتدة حول نهري الكبير والأبرش وعلى المنطقة الساحلية من طرطوس وحتى البترون. وقد أسس فيها «عبدو-عشيرته» سلالة تسلمت زمام الأمور منذ مطلع القرن الرابع عشر وحتى مطلع القرن الثاني عشر عندما قضت عليها موجات شعوب البحر[٣٦]. وكانت عاصمتها مدينة «سيميرا» التي أشرنا سابقاً إلى موقعها في تل الكزل قرب طرطوس، عند دراستنا لسجل الحملة السادسة لتحوتمس الثالث (انظر الصفحة ٤٩ سابقاً). ويبدو أن الملك عازيرو كان يلعب في هذه الأحداث الدامية، التي جرت في فلسطين والساحل الكنعاني أواسط القرن الرابع عشر، دوراً مرسوماً له من قبل الحثيين الذين استغلوا فرصة ضعف مصر ابان حكم اخناتون لملء الفراغ في سورية. ويؤكد لنا هذا الاستنتاج معاهدة عقدت بين الملك الحثي «شوبيلوليماس» وعازيرو ملك آمورو. وقد عثر على نص المعاهدة في «بوغازكوي» موقع عاصمة الامبراطورية الحثية بالأناضول منقوشاً على

35- Ibid P. 484

36- الدكتور علي أبو عساف المرجع السابق ص ٤١٢.

نسختين واحدة حثية والأخرى أكادية، يعود تاريخ هذه المعاهدة إلى فترة تل العمارنة، ويرد فيها اسم عازيرو في النسخة الحثية «عازيراس». وهذه فيما يلي مقدمتها الموضوعة على لسان الملك الحثي:

[أنا الملك الشمس جعلتك يا «عازيراس» تابعي. فان صنت أرض ملك «حاتي» سيدك، فان سيدك ملك حاتي سيقدم لك الحماية بنفس الطريقة. عليك أن تحمي روح مليكك وشخصه وجسمه وأرضه كما تحمي روحك وشخصك وجسمك وأرضك، وملك حاتي سيقدم لك بالمقابل نفس الحماية، وكذلك أولاده وأحفاده. ويتوجب عليك دفع ٣٠٠ شيكل من الذهب الخالص لملك حاتي في كل سنة جزيةً، يجري وزنها بموازين تجار بلاد حاتي. وعليك أن تأتي بلاد حاتي، إلى الملك الشمس مرة في كل عام. لقد كان ملك «مصر» وملك «الحوريين» وملك.. وملك «كنزا» وملك «نوخاشا» ـ Nuhassa وملك «نييا» ـ Niya وملك.. وملك «موكيش» ـ Mukis، وملك «حلب» ـ Halba وملك «كركميش» ـ Kargamis، كانوا جميعاً يناصبون الملك الشمس عداوةً. غير أن عازيراس ملك آمورو قد ترك بوابة مصر وصار موالياً للملك الشمس][٣٧].

إن معظم المدن والممالك الواردة أسماؤها في هذا النص قد كشف علم الآثار عن مواقعها وقرئت نصوصها وقوطعت مع نصوص غيرها من ممالك الشرق القديم. فـ «حاتي» هو اسم مملكة الحثيين في الأناضول، به دعوا أنفسهم وبه عرفهم جيرانهم، والحوريون هم شعب مملكة «ميتاني» في الجزيرة العليا التي عرفنا الكثير عن أخبارها من وثائق موقع «نوزي» (انظر الصفحة ٤٤ سابقاً).

و«كنزا» هي مملكة «قادش» على نهر العاصي قرب مدينة حمص الحالية

37- Albercht Goetze, Egyptian And Hittit Treaties (in: James pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P. 529

(انظر الصفحة ٤٤ سابقاً)، و«موكيش» هي مملكة آلالاخ في سهل العمق بين مدينتي حلب وانطاكية، وقد تم اكتشافها تحت «تل عطشانة» الذي امدنا بفيض من النصوص الهامة، و«حلبا» هي مملكة حلب أو «يمخاض» التي كان مركزها في مدينة حلب الحالية، أما «نوخاشا» (أونوخشي) فنعرف من تقاطعات أخبارها في نصوص الممالك الأخرى أنها شغلت مكاناً يقع بين مدينتي «حماة» و «حلب». وهكذا نجد أن مملكة آمورو التي شغلت أخبارها حيزاً لا بأس به من رسائل تل العمارنة قد قامت في بيئة سورية شأنها في ذلك شأن بقية ممالك عصر تل العمارنة. فأي حجة تبقى بعد ذلك لنقل مسرح هذا العصر الحافل إلى غرب شبه الجزيرة العربية؟.

سيتي الأول ـ وثائق من كنعان:

بعد سقوط أخناتون، لم تستطع مصر اعادة سيطرتها على مناطق نفوذها في سورية وفلسطين إلا في عهد «سيتي الأول» (١٣٠٢ ـ ١٢٩٠ق.م)، وهو الفرعون الثاني من الأسرة التاسعة عشرة. وتكمن أهمية سجلات هذا الفرعون أن بعضها قد وجد في أرض فلسطين، وهذا ما يمدنا بمعلومات مباشرة من ساحة الحدث ذاتها، لا من أرشيفات مصر ومسلاتها ونصبها التذكارية.

فلقد تم العثور في موقع «بيت شان»، المدينة الكنعانية الهامة في فلسطين، على نصب تذكاري نقش عليه سيتي الأول اخبار حملته على مدينة بيت شان التي تمركز فيها مناوئوه. نقرأ في النص، بعد المقدمة الفخرية المعهودة:

[هو الذي ينفذ إلى جحافل الآسيويين ويجبرهم على الرضوخ، الذي يحطم أمراء «ريتينو» وتطال يده كل الخارجين عليه. في هذا اليوم، جاء من يخبره بأن العدو اللئيم في بلدة «حمث» ـ Hamath قد جمع اليه العدد الغفير من الجنود واستولى على «بيت شان»ـ Bet-shan، ثم عقدوا حلفاً من «باهيل»

Pahel . وهـاهم قد حجـزوا أمير «رحوب» ـ Rehob عن الخروج . عند ذلك قام جلالتـه بارسـال جيش إلى بلدة حمث وآخـر إلى بيت شان وثـالث إلى «ينوم» ـ Yanoam . وما ان انقضى النهار حتى هزموا جميعاً أمام عظمة جلالته ملك مصر العليا والسفلى . .][38] .

لقـد كشفت التنقيبـات الأثـرية عن بيت شان تحت «تل الحصن» قرب مدينـة «بيسـان» الحالية في فلسطين التي حافظت على الاسم القديم للمدينة الكنعـانيـة ، وتبـين أن الموقع كان مسكوناً منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، وبقي مأهـولاً بالسكـان عبر العصـر البرونزي وصولاً إلى العصر الحديدي في أواخر الألف الثاني والألف الأول قبل الميلاد[39] . أما بقية الأماكن الواردة في النص ، فقـد أمكن تحديـد مواقعهـا إمـا بشكل تقريبي أو مؤكد . فـ «حمث» هي «تل الحـامـة» . على بعـد عشرة أميال جنوبي بيسان ، و «رحوب» من المحتمل أن تكـون «تـل الصـارم» على بعـد ثلاثـة أميـال جنـوب بيسـان ، و «ينـوم» من المحتمل أن تكون في موقع «تل النعامة» شمالي بحيرة الحولة[40] . هذا وإضافة إلى بيت شان ، المدينة التي شهدت أحداثاً هامة في التوراة ، فقد ورد في التوراة أيضـاً ذكـر رحـوب (راجـع سفر العدد ١٣ : ٢١ وصموئيل الثاني ١٠ : ٦ ٨ ، يشـوع ١٩ : ٢٨ ـ ٣٠ و٢١ : ٣١ وأخبـار الأيـام الأول ٦ : ٧٥) وينـوم (راجع يشوع ١٥ : ٥٣) .

وبـذلـك يقـدم لنـا نص سيتي الأول دليلاً قاطعاً مزدوجاً . فمدينة بيت شان التـوراتيـة قد تم العثـور عليهـا في أرض كنعـان ، والبينـة عليهـا ليست أركيـولـوجيـة فحسب بل وكتابية أيضاً ، إذ يظهر بوضوح اسم المدينة في النص المكتشف بين أنقـاضهـا . ومن ناحيـة أخـرى يثبت هذا النص أن الحمـلات

38- John A. Wilson, op. cit P. 253

39- Bray and Trump. Penguin Dictionary of Archaeology, PP. 37-38

40- John A. wilson, op. cit, P. 153

المصرية كانت موجهة نحو سورية وفلسطين لا نحو غرب شبه الجزيرة العربية، وإلا كيف يترك فرعون مصر حجراً تذكارياً في فلسطين يخلد فيه انتصاراً حققه في عسير؟، إضافة إلى ذلك فقد تم العثور في موقع بيت شان على نصب تذكاري ثان تركه سيتي الأول أيضاً، ورغم تحطم النصب وصعوبة قراءة الكتابة المنقوشة عليه، فاننا نفهم منه أن الفرعون قد صد هناك هجمات العابيرو القادمين من الأردن. كما عثر على تمثال للفرعون «رمسيس الثالث»، وعلى نص تركه أحد القادة العسكريين في حملة هذا الفرعون ضد شعوب البحر، يحكي عن وصول الجيش المصري إلى شمال فلسطين سعياً وراء فلول القوات المتراجعة[41].

أمام كل هذه الحقائق التاريخية والأركيولوجية، لا نستطيع الاتفاق مع كمال الصليبي في نقل «بيت شان» السجلات المصرية إلى غرب العربية، حيث وجد مكانها في موقع «الشنية» في منطقة الطائف (ص ٢٠٩ - ٢١٠) ولا نستطيع مجاراته في القول بأن الباحثين من شتى المشارب قد أساؤوا تفسير السجلات الطبوغرافية المصرية، وهو قول ما انفك يردده عبر كتابه.

ترك لنا سيتي الأول أيضاً عدداً من الرسوم على جدران الكرنك تصور معاركه في آسيا وأفريقيا، ومع كل رسم نص توضيحي قصير. وسنقدم فيما يلي ترجمة للنصوص المتعلقة بحملاته الآسيوية[42].

[في السنة الأولى لحكم ملك مصر العليا والسفلى، بطشت يد الملك الجبار بأعدائه من «الشاسو» من حصن «صايل» إلى «كنعان»، حيث تغلب عليهم جلالته كأسد هصور فجعلهم أشلاء تسبح في دمائها بالأودية]. وقد كتب هذا النص تحت صورة تظهر حصار الجيش المصري لمكان محصن غير محدد الهوية. أما الشاسو المذكورون هنا فهم، كما يقول خبراء النصوص

41- Kathleen Kenyon, op. cit pp. 201-204, 227

42- John A. Wilson, op. cit, PP. 254-255

المصـريـة، البـدو المتجـولـون في جنوب فلسطين وشمال العربية[43]، ويبدو أن الفـرعـون قد طارد هؤلاء حتى وصـل إلى بعض المـدن الكنعـانيـة التي كان حكامها يستأجرونهم أو يحرضونهم على العصيان.

وهناك مشهد يصور استيلاء الجيش المصري على بلدة «ينوم» الكنعانية وقـد ذكـر تحت المشهـد اسم المدينة دون أي شرح. ويبدو أن هذه المعركة هي معـركـة ينـوم نفسها الواردة في نصب بيت شان التذكاري. ومشهد آخر يصور مجمـوعة من الآسيويين تقطع الأشجار في بلدة أشار النص المرافق إلى حاكمها بأنـه أمـير لبنـان العظيم. ومشهـد يصور عودة الفرعون المظفرة من حملة له في سورية كتب تحته: [عودة جلالته من ريتينو العليـا، بعد أن وسع حدود مصر. ومشهد يصور قيام الفرعون بتقديم القرابين للآلهة بعد عودته من قتال الحثيين نقـرأ تحتـه: [تقـديم القـرابين من الاله الطيب - أي الفرعون - إلى أبيه آمون رع، لدى عودتـه من بلاد حاتي بعـد سحق المتمـردين ومحق الآسيـويـين وبلدانهم، وقد أتى معه بأمراء ريتينـو الأنذال ليضعهم في معبد أبيه آمون رع].

وهنـاك مشهـد يصـور حصار مدينة قادش السورية كتب تحته: [صعود الفـرعـون لتـدمير قادش وبلاد آمورو]. ومما يؤكد أن قادش المذكورة في هذا النص هي قادش بلاد الشام، العثور على بقايا حجر تذكاري للفرعون سيتي الأول في موقع المدينة السورية المكتشفة[44].

رمسيس الثاني - الوفاق الدولي:

تابـع «رمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق. م) ما بدأه سيتي الأول من

43- د. محمود عبد الحميد أحمد، الهجرات العربية القديمة، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨، ص ١٩٥.

44- John A. Wilson, op. cit P.254

اعادة النفوذ المصري الى مناطقه التقليدية في بلاد الشام، بعد فترة الانحسار التي ابتدأت بحكم الفرعون اخناتون، وهي الفترة التي نشط خلالها الحثيون وبسطوا نفوذهم تدريجاً على معظم مناطق بلاد الشام. وكما فعل سيتي الأول، فقد ترك لنا رمسيس الثاني عدداً من النُصب التذكارية في بلاد الشام، أهمها النصب الذي تم العثور عليه في موقع بيت شان بفلسطين، وقد نُقش عليه: [في السنة التاسعة، الشهر الرابع من الفصل الثاني، اليوم الأول. عند طلوع الفجر تمت هزيمة الآسيويين. جميعاً أتوا صاغرين ينحنون أمامه في قصره في «بير - رمسيس - ميري - آمون» اسم مدينة رمسيس في الدلتا](٤٥). وهناك أيضاً ثلاثة نصب تذكارية أخرى تركها رمسيس الثاني عند مصب نهر الكلب بين بيروت وجبيل، ولكنها أخرجت من الموقع في حالة مهشمة لا تسمح بالقراءة الواضحة لنصوصها(٤٦).

وكان لا بد لنشاطات هذا الفرعون الطموح من أن تصطدم بعناد الحثيين وتصميمهم على الاحتفاظ بمناطق نفوذهم، وهم القوة العظمى الثانية في المنطقة إلى جانب مصر بعد أفول بابل، فقامت بين الامبراطوريتين حروب شرسة أهمها معركة قادش على ضفة نهر العاصي عام ١٢٨٦ق. م، التي خلدها الفرعون في نص مفصل طويل، نقتطف فيما يلي بعض فقراته ونلخص الأخرى(٤٧).

[السنة الخامسة، الشهر الثالث من الفصل الثالث، اليوم التاسع. . توجه جلالته إلى بلاد «زاهي» في حملته المظفرة الثانية. نصب معسكره على التلال الواقعة إلى الجنوب من قادش. وعندما أخذ بالتحرك شمالاً ووصل إلى

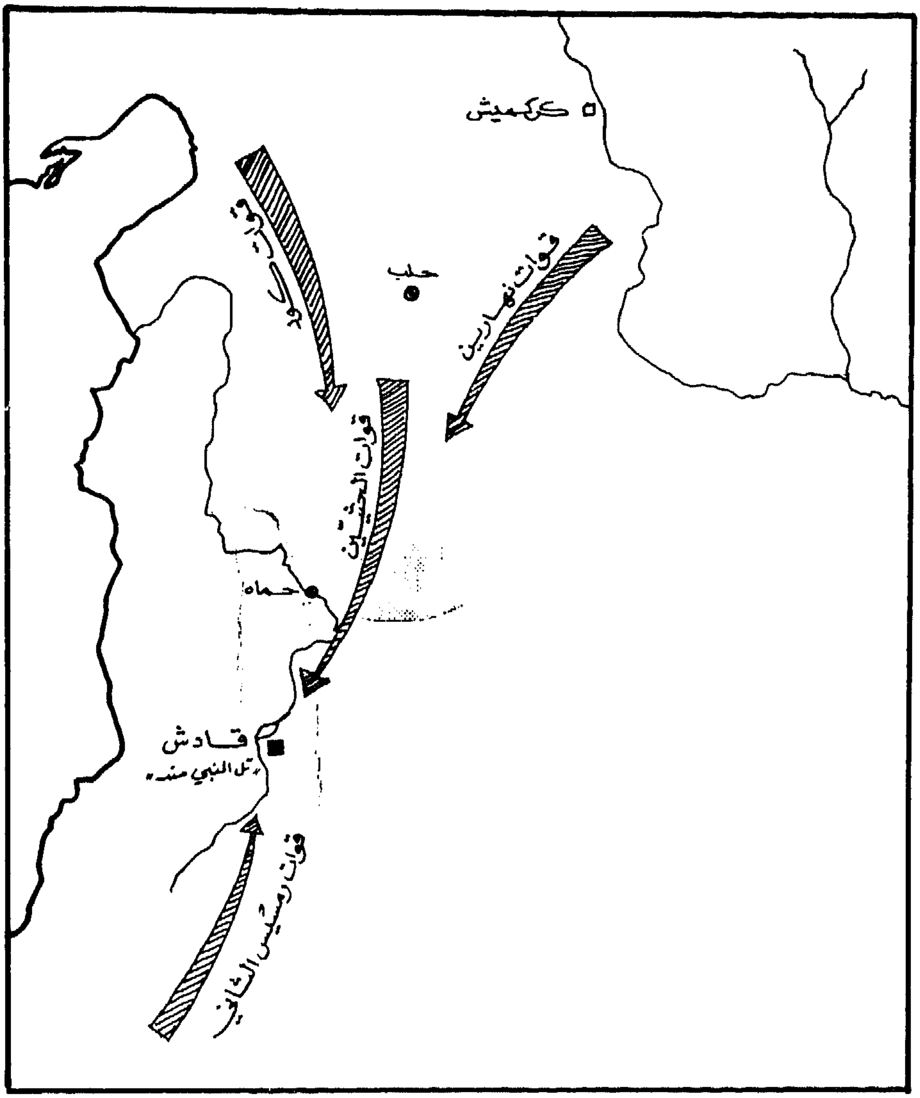
45- Ibid, P.255

46- Ibid, P.255

47- W. McNeill and J. Sendlar, the Ancient Near East, Oxford University, London 1968, PP. 16-19

بلدة «شاباتـونا» ، أتاه اثنان من «الساشو» وقالا له أنهما ينتميان إلى أكبر الأسر العـاملة إلى جانب ملك الحثيـين المهزوم ، وأنهما وأصحابهما سيتركون الحثيين وينضمــون إلى الفـرعـون . كما أبلغاه بأن ملـك الحثيـين يعسكـر في أراضي «حلب» إلى الشـمال من «تـونيب» ويخشى التقـدم جنـوبـاً فزعـاً من جلالـة الفرعون]. وقد تبين فيما بعد أن هذين البدويين كانا جاسوسين لملك الحثيين ، وأنهـما أبلغـا الفـرعون نبأ كاذباً ليتقاعس عن المضي شمالاً لملاقاة العدو. وبينما كان المصـريـون آمنـين في معسكـرهم جنوبي مدينة قادش وصل الحثيون إلى تخومهـا وتهيأوا للمفـاجأة [فـوصـل ملك الحثيـين ومعـه ملوك بلدان عديـدة بمشـاتهم وعـربـاتهم ، ساقهم إلى جانبه عنوة وقسراً ، واصطفوا للقتال خلف قادش المـدينـة المراوغة . وعندما علم جلالته بالأمر حرك قواته شمالاً ونزل إلى الشـمال الغـربي من قادش]. وهنـاك قبض جنوده على جاسوس للعدو أخبر الفـرعـون بمعلومـات هامـة عن مواقع الحثيين وقواتهم التي رفدتها جيوش من «نهـارين» و «كود» كاملة العدد والتجهيز. وبينما كان يعقد اجتماعاً لقادته على عجل ، أطبق عليهم الحثيـون فتضعضعت قوات المصـريـين غير أن شجـاعـة الفـرعـون واقدامه قد رجحت كفة الميزان ، حيث أعمل في الخصوم تقتيلاً بيده وسلاحه ورمى بجثثهم في نهر العاصي .

لا يمكن لمسـرح هذه المعـركـة أن يكـون في غرب شبـه الجزيرة العربية (انظر خريطتنا رقم ٥) فجميع المواقع المذكورة في هذا النص قد حددنا أماكنها في بلاد الشـــام . فرمسيس الثـــاني يتحـرك على الطـريق السـاحـلي عبر بلاد «زاهي» وهي في النصـوص المصـريـة المنـاطق الساحلية لفسطين ولبنان (انظر الصفحـة ٤٧ سابقـاً) ثم يتـابـع مسـيرته شمالاً ليعسكر إلى الجنوب من مدينة «قـادش» (انظـر الصفحـة ٦١ سابقاً) . أما قوات الحثيين فتتجمع في أراضي حلب شمال «تونيب» (انظر الصفحة ٥٤ سابقاً) ترفدها قوات من «نهارين» و «كود» (انظر الصفحة ٤٤ سابقاً) ويتقدم الحلفاء إلى شمالي موقع قادش حيث تقـع المعـركة على ضفاف نهر العاصي (ويدعى بالهير وغليفية المصرية Yarnet



الخارطة رقم (٥) ـ معركة قادش

التي يقابلها باليونانية (Orontes) .

لم تكن معركة قادش هي الفاصلة، بين القوتين الأعظمين، فقد استمرت المناوشات بينهما طيلة ستة عشر عاماً تلت ذلك، انتهت بتوقيع معاهدة بين الطرفين تعتبر من أشهر معاهدات العالم القديم، حيث أطلقت يد الحثيين في مناطق بلاد الشام الواقعة إلى الشمال من قادش واحتفظ المصريون بسيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب منها. وقد تم اكتشاف نسختي المعاهدة في موقعين يبعدان عن بعضهما آلاف الأميال. فالنص الحثي للمعاهدة وجد في مدينة «حاتوسس» عاصمة الحثثين في الأناضول التي اكتشفت قرب «بوغازكوي»، وهو مكتوب باللغة الأكادية، والنص المصري وجد على جدار معبد آمون في «طيبه» بمصر وهو مكتوب بالهيروغليفية المصرية(٤٨). وقد أعقب المعاهدة زواج رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي «حاتوشيلي».

نصوص أدبية :

ترك المصريون القدماء نصوصاً أدبية كثيرة، لا يقل بعضها عن الوثائق التاريخية اهمية نظراً لما تتضمنه من معلومات دقيقة ووصف مفصل للأحداث والأمكنة. مثل قصة «سنوحي» و«الأخوين» و«وينامون» ورسالة «أمين ـ رام أوبت». وقد اخترنا النص الأخير لعلاقته الوثقى بموضوعنا، وهو عبارة عن رسالة موجهة من كاتب القصر الملكي المدعو «أمين ـ رام ـ أوبت» إلى موظف رسمي تحت التدريب يتهيأ للسفر إلى خارج أراضي المملكة، ينقل له فيها معلومات جغرافية عن مواطن عمله المقبل. وسنقتطف من الرسالة المقاطع

48- Ibid, PP. 42-43

المتعلقة ببلاد الشام[49].

[. . أنت تقول أنك كاتب ماهر. فان كان ذلك صحيحاً، هلم إلى الاختبار. هذا حصان مسرج لأجلك، سريع كابن آوى، وكالزوبعة في انطلاقه. . أنت لم تذهب بعد إلى بلاد «حاتي»، ولم تر أرض «أوبه» ـ Upi، ولم تعرف شيئاً عن «خيديم» ـ Khedem، ولا عن طبيعة «يجدي» ـ Yegdy، كيف تبدو «سيميرا» رمسيس؟ وإلى أي جهة منها تقع مدينة «حلب» ـ Halba، وكيف هو مجراهـا. أنت لم تذهب إلى «قادش». ولا إلى «توبيخي» ـ Tubikhi، أنت لم تذهب إلى أقاليم البدو مع نبَّالة الجيش... دعني أخبرك عن مدينة أخرى هي «جبيل»، كيف منظرها وما آلهتها، فأنت أيضاً لا تعرفها، عن «صيدون» و«بيروت» و«ساريبتا» ـ Sarepta، وأين يجري نهر «الليطاني». كيف تبدو «أوزو» ـ Uzu، ومدينة في البحر أخرى اسمها «صور» الميناء، التي يحمل اليها ماء الشرب بالقوارب، وفيها السمك أكثر عدداً من الرمال].

يبدأ كاتب الرسالة، في هذا المقطع، بوصف جغرافية بلاد الشام من الشمال ثم ينحدر نحو الجنوب. فالرحلة المتخيلة تبدأ من بلاد الحثيين والمناطق السورية الشمالية الواقعة تحت سيطرتهم والتي كان المصريون يطلقون عليها ايضاً اسم «حاتي»، ثم تتجه جنوباً نحو منطقة دمشق التي كانت تتبع في ذلك الوقت مقاطعة «أوبه» وعاصمتها «كوميدو» في البقاع الجنوبي (كامد اللوز الآن) وذلك قبل أن تتحول إلى مملكة آرامية[50]. ومنها تنعطف نحو المنطقة الساحلية مبتدئة بمدينة «سميرا» عاصمة مملكة «آمورو» (انظر الصفحة ٦٠ سابقاً) في منطقة طرطوس الحالية. وهنا يطرح كاتب الرسالة سؤالاً على

49- John A. Wilson, Egyptian Letters (In: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969), p. 476

50- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨، ص ٥٩.

الموظف المتدرب للإجابة عليه، فمن أين يتجه المسافر من سيميرا إلى حلب وأي طريق يأخذ؟ من سيميرا تسير الرحلة بمحاذاة الساحل فتصل إلى «جبيل» الميناء الكنعاني الرئيسي الذي كان المصريون على احتكاك به منذ مطلع عصر الأسرات، ومنها جنوباً إلى «بيروت» و«صيدون» و«ساريبتا» المدينة الفينيقية الهامة التي تم اكتشافها مؤخراً بين صيدا وصور على الساحل اللبناني[٥١]. أما عن مدينة «صور» فيقدم النص وصفاً دقيقاً لموقعها، فهي تتألف من قسمين قسم بحري يقع على جزيرة تبعد مسافة ميلين فقط عن الشاطيء واسمه صور، وقسم بري يقع على البر المقابل تماماً واسمه «أوزو». ومن المعروف تاريخياً أن هذه المدينة بقيت موزعة بين البر والبحر حتى حملة الاسكندر الأكبر الذي وصل بين المدينتين لأغراض عسكرية. بعد ذلك تتابع الرحلة مسيرتها إلى شواطيء فلسطين ثم تنعطف نحو أراضيها الداخلية.

[.. تعال ضعنا على الطريق جنوباً نحو اقليم «عكا»، إلى أين ينتهي الطريق الآتي من «أكشف» إلى أي مدينة؟. أخبرني عن جبل «أوزير» - Oser، كيف تبدو قمته؟ وعن جبل «شكيم». من أين يبدأ الكاتب رحلته إلى «حاصور» وكيف هو مجراها؟ ضعني على الطريق إلى «حمث» و«دجر» و «دجرإيل - Deger El. تعال دعني اخبرك عن مدن تقع فوقها (يلي ذلك عدد من المواقع التي لم يمكن التعرف على معظمها، ثم يعود كاتب الرسالة إلى حيث انطلق). اخبرني عن «رحوب» و«بيت شان» وترقا ايل»، عن نهر الأردن وكيفية عبوره، وكيف الوصول إلى «مجدو»..].

في المقطع أعلاه، تجتاز الرحلة المتخيلة رأس الناقورة نحو «عكا» ثم تتجه غرباً إلى الأراضي الداخلية لفلسطين فتجتاز «أكشف» التي يعتقد أنها «تل كيسان» في وادي عكا جنوب الجليل وتصل إلى «شكيم» التي اكتشف موقعها قرب مدينة «نابلس» الحديثة، وجبلها الذي يدعى اليوم بجبل

51- Harvey Weiss, Ebla To Damascus, Smithoniun Institution 1985, P.264

نابلس، ثم تتحرك جنوبا مسافة ليست بالبعيدة إلى «حاصور» التي اكتشف موقعها تحت «تل القدح» في وادي الاردن. وهنا ينعطف خط الرحلة نحو الشمال إلى «رحوب»، وهي «تل الصارم على بعد ثلاثة أميال جنوب «بيت شان» (بيسان)، فبيت شان، وهناك يتوقف المسافر ليلقي نظرة على نهر الاردن القريب ويتساءل عن كيفية عبوره، ثم يتجه غرباً نحو «مجدو» وفي نهاية الرحلة يتم الوصول إلى قرب الحدود المصرية:

[إيه أيها الكاتب، أين كل تلك المدن؟ و«رفح» ـ Raphia كيف تبدو أسوارها، وما المسافة بينها وبين «غزة»؟].

وهكذا يقدم لنا هذا النص الفريد صورة واضحة متكاملة لجغرافية بلاد الشام بمدنها وأسمائها القديمة، وخصوصاً مدن الساحل الكنعاني، وفلسطين الداخلية التي حافظت على اسمائها الى فترة السيطرة السياسية للإسرائيليين، دون أن يكون لهؤلاء الاسرائيليين يد في تسميتها باسماء مواقع كانت معروفة في غرب شبه الجزيرة العربية، وهو المبر ر الأساسي لتشابه اسماء المواقع في رأي كمال الصليبي.

وإذا كان من المستحيل، كما هو واضح لأي قارىء لهذا النص، مطابقة مضمون رسالة كاتب القصر الملكي الفرعوني، الذي كان بمثابة سكرتير للخارجية في قصر الفرعون، على المواقع التي يفترضها الصليبي في غرب العربية، فان ذلك يستتبع نتيجة هامة مفادها أنه اضافة إلى الحملات المصرية التي كانت موجهة نحو بلاد الشام، فان هذه المنطقة أيضاً كانت محور الديبلوماسية المصرية في المشرق، وأن غرب العربية لم يكن له وجود، لا في الاعتبارات العسكرية ولا في الاعتبارات السياسية المصرية.

نتائج وتساؤلات:

إن النصوص التي قدمناها في هذا الفصل ليست إلا غيضاً من فيض

السجلات المصرية القديمة التي قمنا بدراستها، والتي لا يمكن لهذا العمل المحدد الهدف أن يستوعبها أو يفيها حقها. ونستطيع القول بكل ثقة، أننا لم نعثر على نص واحد يمكن أن تنطبق معطياته على الخريطة القديمة التي يفترضها كمال الصليبي لغرب شبه الجزيرة العربية. إلا أنه يتوجب علينا، توخياً للدقة والحذر العلمي، أن نعترف بوجود نص واحد غامض، هو سجل حملة الفرعون «شيشانق الأول» (٩٤٥ - ٩٢٤ق.م)، فالنص مليء بأسماء المدن والمواقع التي قهرها شيشانق في حملته الأسيوية، ومعظمها لم يمكن التعرف عليه إلا بشكل تقريبي في فلسطين وسورية. يضاف إلى ذلك تناقض معلومات النص مع بعض الحقائق التاريخية، فمملكة «ميتاني» التي يتباهى الفرعون باخضاعها لم تكن قائمة في زمنه. وقد ركز السيد كمال الصليبي على سجل حملة شيشانق وأفرد له فصلاً كاملاً في كتابه، فتتبع مسار حملة شيشانق في غرب العربية وطابق الكثير من أسماء الأماكن الواردة فيها على أسماء مواقع قائمة اليوم في غرب العربية، إلا أن مطابقاته لم تكن بأحسن حالاً من المطابقات التي جرت على المواقع الفلسطينية. ويبقى هذا السجل، في رأينا، محاطاً بالغموض واشارات الاستفهام. إلا أن ما يرجح أن مسرح حملة شيشانق كان في فلسطين وسورية، العثور على نصب تذكاري في موقع «مجدو» بفلسطين يحمل اسم ذلك الفرعون، وعلى قاعدة تمثال في مدينة «جبيل» على الساحل اللبناني تحمل اسمه ايضاً. وإذا كان من المؤكد أن النصب التذكاري في فلسطين قد أقيم تخليداً لانتصارات عسكرية، فان تمثال جبيل كان عربون علاقات ودية بين البلدين ودلالة نفوذ سياسي مصري[٥٢].

وقد وردت أخبار حملة شيشانق على مملكة يهوذا في التوراة، ونعلم أنها تمت في عهد «رحبعام» ابن الملك سليمان، أي خلال السنوات الأخيرة لحكم شيشانق الأول. نقرأ في سفر الملوك الأول ١٤ : ٣٥ - ٣٧ [وفي السنة الخامسة

52- John A. Wilson, Egyptian Historical Texts, op. cit, p 264

للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخـزائن بيت الملك، وأخـذ كل شيء وأخـذ أتـراس الـذهب التي عملها سليمان. فعمل الملك رحبعام عوضاً عنها أتراس نحاس..].

وفي الحـقـيـقـة، يمـكـن لعلم الآثـار أن يلقي ضوءاً على ما ورد في السجـلات المصـريـة وفي كتاب التوراة حول حملة شيشانق. ففي العديد من المواقع الكنعانية في فلسطين استطاع المنقبون تمييز طبقات تعود إلى مطلع فترة المملكـة المنقسمـة التي اعقبت موت الملك سليـمان عام ٩٣٠ق.م، وهـذه الطبقات قد تم تدميرها بشكل عنيف في تاريخ يتقارب وتاريخ حملة الفرعون شيشـانق الأول. فمـوقـع «تـل أبو حوام» على سبيل المثال قد دمر تماماً وبقي مهجـوراً لعـدة قرون تلت ذلـك. وفي «تـل بيت مرسيم» تم تدمـير المـدينـة القديمة بكاملها ثم اعيد بناؤ ها مجدداً. وتركت آثار الحرائق في «بيت شمش» طبقة كثيفة من الرماد غطت المستوى السابق تماماً[٥٣].

إن هنـاك أكثر من مفتـاح لحل غوامض بعض الأحـداث والنصـوص التاريخية، وليس منهج مقابلة أسماء المواقع بأجداها.

وإذا كانت دراستنـا للسجـلات المصـريـة قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك في أن هذه السجلات انما تروي أحداثاً وقعت في بلاد الشام لا في غرب العـربيـة، وأن علاقـات مصـر السيـاسيـة والديبلوماسية كانت قائمة مع هذه المنطقـة منـذ بدايات التاريخ المكتوب لا مع غرب العربية، وان اسماء الأماكن الكنعـانيـة الـواردة في التـوراة، هي لمواقـع قديمـة موجودة في بلاد الشام قبل الظهـور السيـاسي للاسـرائيليـين، فان في ذلـك كله مقدمة للبرهان على أن مسرح الحدث التوراتي كان في الشام لا في غرب العربية. وهو البرهان الذي سوف نتابع حلقاته عبر الفصول المقبلة.

وأخـيراً يحق لنـا أن نتسـاءل: إذا كانت المعلومـات الـواردة في كل

53- Kathleen kenyon, op. cit PP. 174-275

السجـلات المصـريـة تتعلق بأمـاكن وأحـداث جرت في غرب العربية، فأين السجلات المتعلقة ببلاد الشام؟

٢ - سجلات وادي الرافدين

كان السومريون أول من أسس لمجتمع المدينة في تاريخ الحضارة، إلا أنهم لم يعنوا بتشكيل دولة قومية تجمع شتات دويلات المدن التي عاشت في شقاق دائم وحروب دامية فيما بينها. وعندما تنبه المجتمع السومري إلى ضرورة التوحيد، كانت حضارته تقطع أشواطها الأخيرة في نهايات الألف الثالث قبل الميلاد، وكان الأكاديون الساميون الذين بدأوا بتنظيم مجتمعهم في شمال سومر يتحفزون لقطف ثمار الحضارة السومرية التعبة. لقد جاءت الوحدة السومرية في وقت متأخر جداً وضمن شروط لم تسمح لها بالحفاظ على مكتسباتها، فعندما قام ملك «أوروك» «لوغال زاغيزي» بتوحيد دويلات سومر وكامل بلاد الرافدين (٢٣٧١ - ٢٣٤٧ق. م) والاتجاه بأنظاره نحو بلاد الشام، انتزع الامبراطورية الغضة من يده ضابط أكادي اسمه «صارغون» الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكماً لمدينة «كيش» السومرية ثم أنشأ لنفسه سلطة في «أكاد» قرب الموقع المقبل لبابل[1].

وقد بدأت المحاولات التوسعية باتجاه بلاد الشام مع تكوين الدولة المركزية الموحدة في بلاد الرافدين. فمن سجلات «لوغال زغيزي» نعرف أن

1- ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية بيروت ١٩٨١، ص ٧٤ - ٧٦.

سلطته قد امتدت من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى الذي أتى من جباله بخشب الأرز. وهاتان التسميتان تشيران، كما هو معروف في كل سجلات وادي الرافدين، إلى الخليج العربي وهو البحر الأدنى، والبحر المتوسط وهو البحر الأعلى . ولكن يبدو أن حملات هذا الملك السومري ضد بلاد الشام لم تكن بهدف توسيع حدود امبراطوريته، بل لتزويد سومر بالمواد الأولية المفقودة في البلاد مثل الأخشاب. أما الاجتياح المنظم لبلدان شرق الرافدين فقد بدأ منذ عهد خليفته «صارغون الأول» (٢٣٧١ - ٢٣١٦ق. م)، نقرأ في اول وثيقة أكادية عن الحروب في بلاد الشام ما يلي:

[صارغون، ملك أكاد، ناظر الالهة عشتار، ملك «كيش». كاهن الاله آنو الممسوح، ملك البلاد، «إنسي»* الاله انليل. هزم «أوروك» وهدم أسوارها وانتصر في معاركه على أهلها. قبض على «لوغال زغيزي» ملك أوروك، في القتال، وجره من طوق إلى رقبته حتى بوابة إنليل. صارغون ملك أكاد انتصر في معاركه على أهل «أور» وهدم أسوار مدينتهم. هزم مدينة «انهار» وهدم أسوارها، وهزم المناطق التابعة لها من «لجش» وحتى البحر. انتصر في معاركه على أهل «أوما» وهدم أسوارها. الاله انليل جعل الكل يخضعون لحكم صارغون ملك البلاد، وأعطاه السلطان من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى. فبدءاً من البحر الأدنى يمسك الأكاديون بزمام الحكم، وقد وقفت «عيلام» و «ماري» طائعة أمام صارغون ملك البلاد. استعاد «كيش» وأمر أهلها بتولي مقاليدها.

صارغون، ملك «كيش» أحرز نصراً في أربع وثلاثين حملة، وغنم كل البلدان حتى شاطيء البحر. عند رصيف أكاد صنع سفناً أكثر من سفن «ملوحه» - Meluha و «ماجان» - Magan و «تيلمون» - Telmun . صارغون سجد في صلواته أمام الاله «داجان» في «توتول» - Tutul فأعطاه حكم الأقاليم

* - «انسي» هو لقب ملوك الدويلات السومرية. ويعني الملك - الكاهن.

العليا: «ماري» و «لارموتي» ـ Larmuti و «إيبلا» إلى غابة الأرز والجبل الفضي . .][2].

تحدد هذه الوثيقة التاريخية منذ البداية، المجال الحيوي للامبراطورية الناشئة في بلاد الرافدين، التي أسسها الأكاديون ثم ورثها البابليون فالآشوريون، فنحو الشرق كان توسعها باتجاه «عيلام» والهضبة الايرانية، ونحو الغرب باتجاه الجزيرة العليا والأناضول وبلاد الشام. في النص أعلاه نجد صارغون يستولي على المدن السومرية واحدة تلو الأخرى: أوروك وأور وانهار ولجش وأوما وكيش. بعد ذلك يتوجه شرقاً فيستولي على عيلام العدو التقليدي للمالك السومرية، وينقلب غرباً نحو الفرات حيث يسجد أمام الاله «داجان» أحد الآلهة الرئيسية للساميين الغربيين، وذلك في مدينة توتول الواقعة على رافد «البليخ»[3]، فيعطيه حكم الأقاليم العليا بحاضرتيها الرئيسيتين ماري وإيبلا.

وكانت مدينة ماري في ذلك الوقت عاصمة لدولة سورية قوية مزدهرة شملت حوض الفرات الأوسط والأعلى. وقد تم اكتشافها على الضفة اليمنى لنهر الفرات تحت تل الحريري قرب مدينة «أبوكمال» عام ١٩٣٣ من قبل بعثة فرنسية. وكان أهم ما عثر عليه المنقبون بين أنقاضها أرشيفات القصر الملكي التي ضمت خمسة وعشرين ألف لوحاً مكتوباً، معظمها سجلات تجارية وسياسية ساعدت على فهم وتعديل الكثير من معلوماتنا التاريخية[4].

أما مدينة إيبلا التي تقع في قلب السهول السورية الشمالية، فكانت عاصمة

2- Leo Openheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts (In: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 267

3- اندرية بارو، ماري، ترجمة رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٩، ص ١٧٤.

4- المرجع نفسه ص ١٦٩ ـ ١٧٥.

لدولـة متراميـة الأطراف امتدت من حوض الفرات شرقاً إلى حوض العاصي غربـاً، ومن جبـال طوروس شمالاً إلى حدود مملكـة «حماة» في أواسط سورية جنوباً. وقد تم اكتشافها تحت «تل مرديخ» الواقع إلى الجنوب من مدينة حلب بحوالي ٥٠ كم، خلال التنقيبات التي ابتدأت في الموقع منذ عام ١٩٦٤. وقد عثـر المنقبـون في انقـاض قصرها الملكي أواخر السبعينيات على أرشيف ملكي يضم حوالي ١٦٠٠٠ لوحـاً مكتـوبـاً أحـدثت انقـلابـاً في معلوماتنا عن تاريخ سورية خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وترجح القراءات الأولى لوثائق ايبلا ورود اسم صارغـون وأكـاد، حيث يرد اسم صارغـون بالتهجئـة الايبـلائيـة «شارغينو» ـ Sharginu، وأكاد «أينكادو» ـ A. En Ga-Du [٥].

بعـد ماري وايبـلا يتـابـع صارغـون الأكـادي في حملتـه الموثقة أعلاه، مسـيرتـه شرقـاً إلى غابـة الأرز في جبـل «الأمـانوس» على الساحل السوري الشمالي، وهو جبل ما زال إلى يومنا هذا ممتلئاً بشجر الأرز.

ثم يعقب صارغـون الأول «نارام سن» الذي وطد أركان الامبراطورية بحمـلاتـه الشـرسـة. ولدينا نص يتحدث عن اعادة فتح المناطق الغربية التي اجتاحها صارغون من قبله: [. . . منذ عهد البشرية الأول، لم يتسن للملك أن يدمـر مدينتي «ايبـلا» و«عـرمـان» ـ Arman، ولكن الالـه «نـرجـال» قد فتح الطريق أمام نارام سن العظيم وأعطاه إيبلا وعرمان وأهداه جبل الأرز والبحر الأعلى][٦]. وهكذا نجد أن أبكر الحملات التي قام بها حكام وادي الرافدين، غربـاً، كانت موجهـة ضد بلاد الشـام. ولسوف نثبت بالدليل القاطع فيما يلي من هذا الفصل أن كل الحملات التي تلت كانت في الاتجاه نفسه، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية.

لم تكمل الأسرة الصارغونية قرنها الثاني في الحكم عندما هاجمها البرابرة

5- Paolo Matthiae, Ebla, Haddar And Stoughton, London 1980, PP. 47, 169, 167, 176

6- Leo Oppenheim, Op. Cit, P. 268

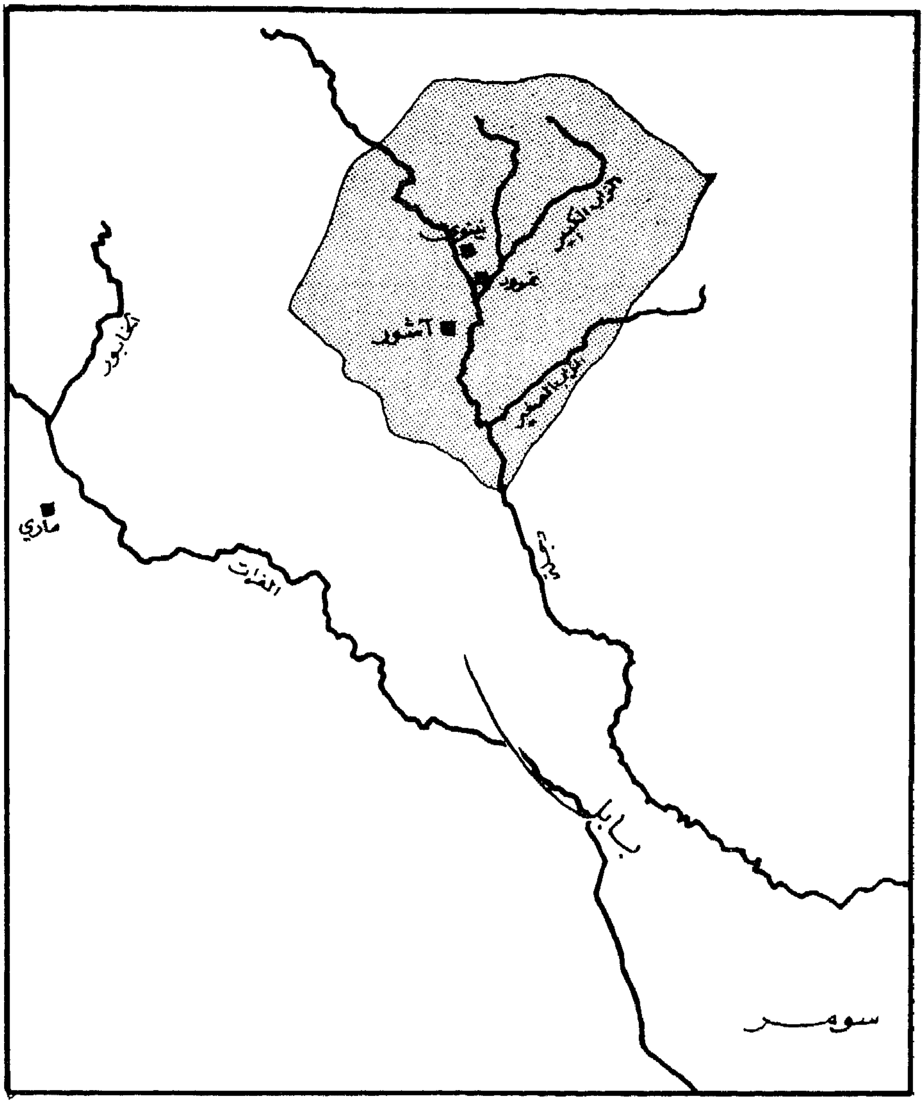
«الجوتيون» ـ Gutian القادمون من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية حوالي عام ٢٢٣٠ق . م ، واستولوا على سومر وأكاد قرابة قرن من الزمان. وخلال هذه الفترة تسلل العموريون الساميون إلى أكاد وأخذوا يتمركزون بشكل رئيسي في منطقة «بابل». وعندما قاد السومريون الجنوبيون حملات التحرير ضد الجوتيين وطردوهم من وادي الرافدين، كانت مدينة بابل هي وريثة أكاد كعاصمة للدولة الموحدة الجديدة التي أقامتها الأسرة العمورية الأولى . وقد قام «حمورابي» (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق . م)، أقوى ملوك هذه الأسرة بتوحيد كل وادي الرافدين واستعادة مافقده الأكاديون في الشرق وفي الغرب. ولكن دور بابل في بلاد الشام قد أخذ بالتراجع أمام القوة الصاعدة لمملكة ميتاني ومملكة الحثيين من بعدها. وعندما هاجم الحثيون بابل نفسها ونهبوها عام ١٥٩٥ق . م فتحوا المجال أمام البرابرة الشرقيين المتربصين بها، فهاجمها «الكاشيون» الذين حكموا سومر وأكاد حتى عام ١١٦٩ ق . م[٧].

وفي هذه الأثناء، كانت الحملات المنظمة التي شنها فراعنة الأسرة الثامنة عشر بعد طرد الهكسوس قد بدأت، مما أدى إلى اصطدامهم بالميتانيين أولاً ثم بالحثيين، مما رأيناه في الفصل السابق. وعندما انهارت الدولة الحثية أمام ضربات شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق . م، ودخلت مصر مرحلة كمونها الطويل بعد رمسيس الثالث المعروف بحروبه ضد شعوب البحر، أصبح الطريق ممهداً أمام الدولة الآشورية لاستعادة وحدة وادي الرافدين والتطلع نحو المناطق السابقة للنفوذ البابلي في بلاد الشام (من أجل أرض آشور انظر الخريطة رقم ٦).

سجلات آشور ـ تغلات فلاصر الأول:

تقدم لنا السجلات الآشورية أكثر النصوص غزارة وأهمية بالنسبة إلى

7- ارنولد توينبي، المرجع أعلاه ص ص ٩٣ ـ ٩٤.



الخارطة رقم (٦) ـ أرض آشور

موضـوعنـا، وتأتي مدونـات الملك «تغـلات فلاصر الأول» (١١١٤ - ١٠٧٦ ق. م) فاتحـة لوثـائق حروب آشـور في بلاد الشـام. نقرأ في نص وجد في معبد الإلهين «حدد» و«آنو» بمدينة آشور ما يلي:

[تنفيـذاً لأوامـر الهي «آشـور» فقـد قهـرت البلدان الـواقعة بين الزاب الأدنى والبحر الأعلى الذي في الغرب... مضيت إلى «لبنان» - Lab-na-a-ni حيث قطعت أخشـاب الأرز لبنـاء معبـد آنـو وحـدد، ثم تابعت التحرك نحو «آمـورو» وأخـذت كل بلاد آمـورو. تلقيت الجـزيـة من «جبيـل» - Gu-bal و «صيدون» - Si- Du- ni و«أرواد» - Ar- ma- da . عبرت بسفن أرواد عند شاطيء البحـر إلى مدينـة «سيمـيرا» - Samuri التي في بلاد آمـورو على مسـافة ثلاثة أميـال مضـاعفـة داخـل البر... وفي طريق عودتي اخضعت جميع بلاد حاتي وفرضت على ملكها «ايلي تيشوب» جزية. .][8].

يقـدم لنـا هذا النص صورة جغـرافيـة وطبوغرافية مطابقة للصورة التي قدمتها لنا السجلات المصرية. فالملك الآشوري يتجه نحو الغرب إلى البحر الأعلى، البحـر المتـوسـط، حيث جبـال لبنـان (بـالأكـادية كما ورد في النص «لَبنـاني») فيقتطـع من هناك خشب الأرز، وتأتيه من الموانيء الكنعانية القريبة جزيـة مدينـة «جبيـل» (بالأكادية جُبَلْ) وصيدون (بالأكادية صيدوني) وأرواد (بالأكادية أرمادا) بعد ذلك يبحر على السفن الاروادية إلى سيميرا (بالأكادية سَمـوري) عاصمـة مملكـة آمـورو مسـافـة ثلاثة أميال مضاعفة، وهي المسافة الحقيقية بين ارواد و«تل الكزل»(*) حيث تجري التنقيبات الآن عن مدينة سيميرا القـديمـة (انظر الصفحة ٦٠ سابقاً). وفي طريق عودته يخضع بلاد حاتي التي

8- Leo Oppenhiem , op. cit, P.275

* - يقـع تل الكـزل في سهـل صافيتـا الساحلي على بعد ٢٨ كم الى الجنوب من طرطوس على الضفة اليمنى لنهر الأبرش. وقد بقي اسم الموقع القديم «سيميرا» محفوظاً في مسميات ←

يقصد بها في النصوص الآشورية دويلات الشمال السوري مثل «كركميش» و «حداتو» (أرسلان خاش) و «شمأل» (تل زنجرلي على السفح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السوري)، وغيرها مما سيمر ذكره معنا لاحقاً، وقد كانت هذه الدويلات واقعة تحت النفوذ الحثي قبل انهيار الامبراطورية الحثية أواخر الألف الثاني قبل الميلاد واستمرت تسمية «حاتي» تطلق عليها بعد ذلك، وقد انساق المؤرخون الحديثون في اطلاق اسم الدويلات الحثية الجديدة على هذه المناطق وهي تسمية خاطئة (كما ألمحنا سابقاً) مستمرة بحكم التعود، ذلك أن اكتشاف معظم المواقع القديمة لهذه الدويلات وقراءة سجلاتها ودراسة فنونها، قد اثبتت بطلان التسمية، فالمنطقة سورية بشتى مناحي ثقافتها رغم استيعابها لعدد لا بأس به من القادمين من بلاد حاتي الأصلية بعد دمار مراكزهم الحضرية على يد شعوب البحر.

هذه الحملة الآشورية المبكرة، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون موجهة ضد غرب شبه الجزيرة العربية. فالملك الآشوري يتوجه غرباً نحو البحر الأعلى، البحر المتوسط، لا جنوباً نحو جزيرة العرب. و «لبنان» الذي يحتطب منه خشب الأرز هو لبنان الشام القريب من الموانيء البحرية، لا «لبينان» شمال اليمن في المناطق الداخلية (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). و «أرواد» التي يركب الآشوريون على سفنها هي أرواد الشام وليست «رواد» مرتفعات عسير (انظر ص ٣٥) لأن النص صريح في الاشارة إلى الموقع البحري للمدينة، ولأن السفن تبنى على السواحل لا على المرتفعات الجبلية.

←

منطقة الكزل. فهذه المنطقة تسمى أرض سيمريان، يحدها من الشمال نهر سيمريان وقرية صغيرة في سفح المرتفعات تسمى سيمريان.

انظر: دراسة «جوزيت الأيي» عن تل الكزل، تعريب الدكتور عدنان البني في مجلة الحوليات الاثرية السورية المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ ص ١٠١.

آشور ناصر بال الثاني:

بعد تغلات فلاصر الأول، مرت حركة التوسع الآشوري بفترة كمون، لتبدأ من جديد على يد «آشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣ - ٨٥٩ق. م). نقرأ في نص لهذا الملك عثر عليه في معبد الاله «ننورتا» في موقع «نمرود» الآشورية:

[غادرت بلاد «بيت عديني»، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على قوارب مصنوعة من الجلود (المنفوخة بالهواء) إلى «كركميش»، حيث تلقيت جزية ملك الحثيين (تعداد للوزنات الذهبية والفضية والمواد الثمينة الأخرى). ملوك البلاد المجاورة جميعاً أتوا إلي فأمسكوا قدمي. أخذت منهم رهائن مشوا معي إلى «لبنان» - Lab-na-ni مشكلين طليعة جيشي. غادرت كركميش متحركاً على الطريق الذي يقع بين جبال «منزيغاني» - Manzigani و «هامرجا» - Hamurga، تاركاً بلاد «أهانو» - Ahanu على يساري، وتقدمت نحو مدينة «حزازو» - Hazazu التي تخص «لوبارنا» ملك حطينة - Hattina، حيث تلقيت الذهب وعباءات الكتان. ثم تابعت فعبرت نهر «عَبري» حيث قضيت الليل، ثم غادرت شاطيء نهر عبري نحو مدينة «كونولو» - Kunulua المقر الملكي للوبارنا ملك حطينة، الذي لخوفه من أسلحة جيشي الفتاكة، وقع على قدمي طالباً حياته (تعداد لأصناف الجزية المقدمة) في ذلك الوقت وصلتني جزية «جوشي» - Gusi من بلاد «ياهاني» - Iahani (تعداد لأصناف الجزية).

غادرت «كونولو» المقر الملكي للوبارنا وعبرت نهر «العاصي» - Arantu حيث قضيت الليل، ثم تحركت آخذاً الطريق بين جبل «يراكي» - Iraki وجبل يعتوري» - Ia'turi، ثم عبرت جبل... لقضاء الليل عند نهر «سنجارا» - Sangara. من هناك تابعت المسير آخذاً الطريق بين جبل «ساراتيني» - Saratini وجبل «دوباني» - Duppani حيث قضيت الليل على ضفة

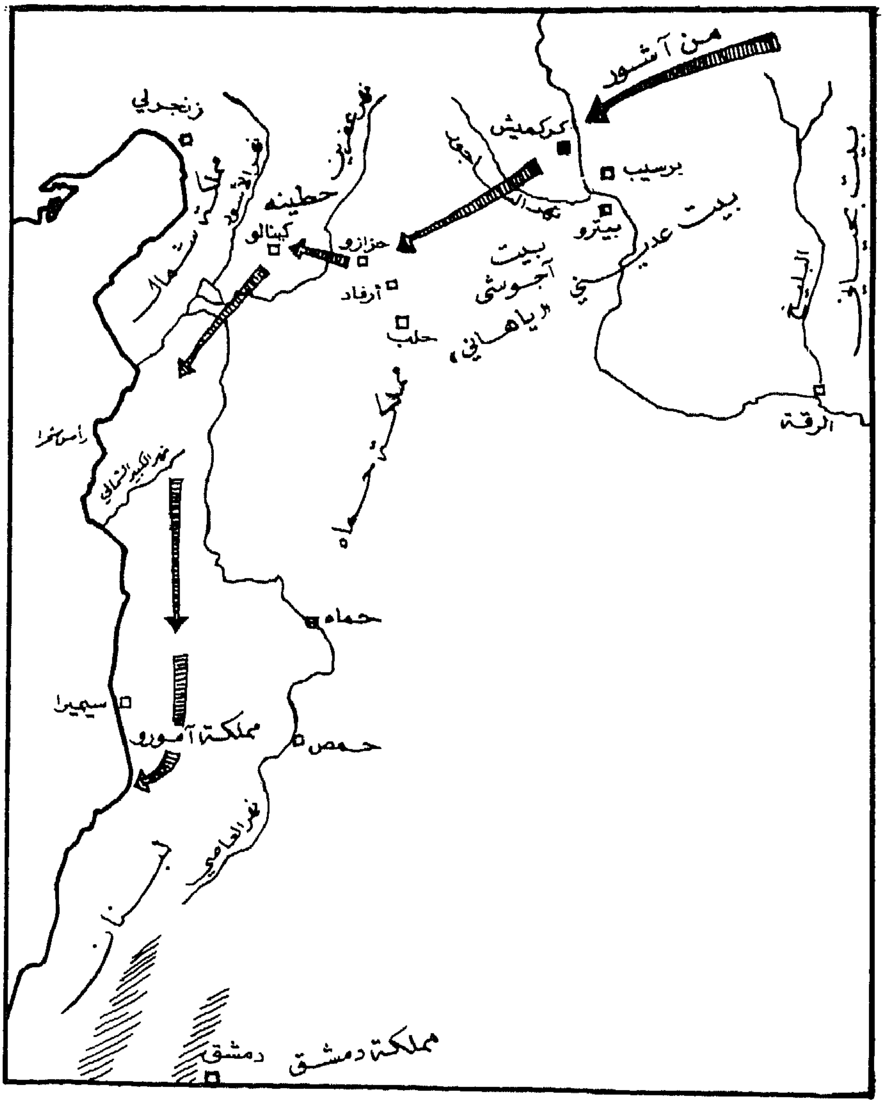
بحيرة ... ، دخلت «أريبو» ـ Aribu حصن لوبارنا ملك حطينة وضممتها إلي . حصـدت قمـح وقش منطقـة «لـوحـاتي» ـ Luhati وخـزنت ما حصدت هناك وتـركت في المكـان مواطنـين آشـوريين للإقامة . وخلال اقامتي في أريبو فتحت مدن لوحـاتي الأخـرى وهـزمت أهلهـا وهـدمت أسوارها وأحرقتها بالنار . أما النـاجـون فقـد رفعتهم على الخـوازيق أمـام مدنهم . بعدها أخذت كل جبل لبنـــان ووصـلت إلى بحـــر آمـــورو العظيم حيث غسلت أسلحتي في الميـــاه العميقة ، وقدمت ذبائح إلى الآلهة . هناك جاءتني الجزية من ساحل البحر من سكـان «صـور» و«صيـدون» و«جبيل» و«محللاتا» ـ Mahallata و«ميزا» ـ Maiza و«كيـــزا» ـ Kaiza و«آمـــورو» و«أرواد» التي في البحـــر (تعـــداد لما حصـــل عليه)] .[9].

يرسم هذا النص الفـريـد خريطـة مفصلة لممالـك بلاد الشـام الشمالية والغـربيـة ، استطاع علم الآثار وعلم التاريخ اثبات صحتها وصدقها . ولسوف نتـــابـع فيـما يلي مسـار حملة آشـور ناصـر الثـاني خطـوة خطـوة (انظـر خريطتنـا رقم ٧) .

في هذا النص ، يبـدأ الجيش الآشـوري حملتـه على بلاد الشـام ، التي تدعوها النصوص الآشورية عادة ببلاد ما وراء النهر «عبر ناري»[10]، بعبور نهر الفـرات . وهـذا الفـرات لا يمكن بحـال من الأحوال أن يكون «فرات» كمال الصليبي في غرب العـربيـة ، الـذي وجده في وادي أضـم أحد أكبر الوديان في غرب شبـه الجـزيرة العربية الذي تصدر مياهه من مرتفعات الطائف ثم يجري نحو البحر الأحمر ، والذي ما زال اسمه القديم قائماً ، في رأيه ، في قرية «فرت» الـواقعـة على مقـربة منه (الصفحات ٣٨ ، ٢٦٠ ، ١٩٩ ، ٣٠٢ . انظر أيضاً

9- Ibid, PP. 275-76

10- James Muhly, End of Bronze Age (In:Form Ebla To Damascus Edited by H. weiss Smithonian Ins. 1985, P. 265



الخارطة رقم (٧) - حملة آشور ناصر بال الثاني

خريطــة الـصــليبي رقم ٣). فعبــور نهر الفــرات يتم من «بيت عديني» إلى كركميش. وبيت عديني هي احـدى الممالـك الآرامية التي ازدهرت في مطلع الألف الأول ق.م. وقـد امتـدت أراضيهـا بين الفرات ورافد البليخ، ووصل نفـوذهـا في أوج قوتهـا إلى المناطق الغربية من الفرات. تم اكتشاف عاصمتها «تـل برسيب» في موقـع «تـل الأحمر» على الضفة اليسرى (الشرقية) للفرات، على مسـافـة ٢٠ كم إلى الجنوب من كركميش (جرابلس الحالية) وقد عثر في المـوقع على كتابات بالهير وغليفية اللوفية* تذكر اسم ملكها «آخوني» المعروف في السجلات الآشورية، وخصوصاً في سجلات «شلمنصر الثالث». كما عثر في بوابـة قصـر برسيب على أسـود بازلتيـة عليها نقوش تذكر الحاكم الأشوري «شمسي إيلو» الذي وُلِّيَ المدينة بعد أن الحقها شلمنصر الثالث بآشور وأسماها «كار شلمنصر» أي حصن شلمنصر(١١).

وقـد ورد ذكـر بيت عديني في كتـاب التـوراة كمملكـةٍ آرامية تحت اسم «بيت عدن»، نقـرأ في سفـر عامـوس ١: ٣ ـ٥ [هكـذا قال الـرب، من أجل ذنــوب دمشق الثـلاثـة والأربعـة، لا أرجـع عنهم... فأرسـل ناراً على بيت «حزائيل» فتأكل قصور «بنهدد»، وأكسر مغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة «آون» وماسك القضيب من «بيت عدن»]. ودمشق الواردة في هذا النص هي دمشق الشـام لا دمشق عسـير التي وجـدهـا الصليبي في موقـع «ذا مسك» في منطقـة جيـزان بعسـير (ص ٣٠)، لأن «حزائيل» و«بن حدد» المذكورين هنا كانـا ملكـين تعـاقبـا على حكـم دمشق كما نعـرف من الـوثـائق الآراميـة التي

---

* ـ اللوفية هي لغة هندو أوربية تكتب بالطريقة الهير وغليفية المصورة وكانت شائعة في بلاد الحثيين بالأناضول ومناطق نفوذهم.

11- الـدكتـور علي أبـو عسـاف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨ ص ص ٣٤ـ ٣٩. وانظر أيضاً:

Eva Strommenger, Til Barsip (in: From Ebla To Damascus, op. cit, P. 330

اكتشفت في بلاد الشام (انظر الصفحة ١٠٠ لاحقاً). وفي مواضع أخرى في التوراة تذكر بيت عدن بالترافق مع عدد من الدويلات الآرامية المعروفة وخصوصاً «جوزان» التي تم اكتشافها في أقصى الشمال السوري بموقع تل حلف الحالي، كما سنفصل لاحقاً (انظر سفر الملوك الثاني ١٩ : ١٢ وأشعيا ٣٧ : ١٢).

يتم عبور الفرات اذن من بيت عديني على الجهة الشرقية للفرات إلى كركميش الواقعة على الجهة الغربية، مما يستتبع أن تكون كركميش هذه هي كركميش الشام لا «قر ـ قماشة» غرب العربية التي وجدها الصليبي في جنوب «الطائف» بالحجاز (ص ٣٧ و ١١٤)، ذلك أن موقع قريتي «القر» و«القماشة» المتجاورتين لا يمكن العبور اليه من أي جهة من «وادي أضم» الذي يرى فيه الصليبي فرات التوراة وسجلات الشرق القديم (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). ويستتبع ذلك أيضاً أن المواجهة بين الفرعون «نخو» والبابليين الواردة في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٥ : ٢٠ وأشعيا ١٠ : ٩ وارميا ٤٦ : ٢ قد جرت عند فرات وكركميش الشام لا قرب الطائف في جنوب الحجاز (ص ٣٧). نقرأ في ارميا ٤٦ : ١ ـ ٢ [كلمة الرب صارت إلى ارميا النبي عن الأمم. عن مصر عن جيش فرعون، نخو ملك مصر الذي كان على نهر الفرات في كركميش، الذي ضربه نبوخذ راصر ملك بابل..].

في كركميش، يتلقى آشور ناصر بال الجزية من ملكها ويتابع مسيرته غرباً وهدفه الأخير لبنان، دون أن يتعرض لمملكة «بيت أجوشي» (أوياهاني) (انظر الخريطة ٧) التي وافقت على ما يبدو على دفع الجزية التي تصله لاحقاً. فيصل إلى مدينة «حزازو» وهي «إعزاز» الحالية عند السفوح الشرقية لجبل «سمعان»[١٢]، حيث يتلقى الجزية ثم يتابع فيجتاز نهر «عَبري» الذي هو

12- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٤٦.

نهر «عفـرين» اليـوم[١٣]، إلى مدينـة «كـونـولو» عاصمة مملكة «حطينة»، وهي مملكـة آراميـة شغلت منطقـة سهـل العمق وحوض عفرين[١٤]. ويعتقد بعض البحـاثـة، ان كونـولـو هي موقع «عين دارا» الحديث حيث تقوم بالتنقيب منذ عدة سنـوات بعثـة المـديـرية العامة للآثار بسورية[١٥]. إلا أن الدكتور علي أبو عسـاف رئيس البعثـة التنقيبية إلى عين دارا لا يستطيع عند هذه المرحلة توكيد الاسم القديم للمدينة بسبب عدم توفر النصوص الكتابية في الموقع حتى الآن[١٦]. في كونــولـو يستسلم ملك حطينـة للملك الأشـوري، كما تأتي إلى هناك أيضاً جزية «جوشي» ملك «ياهاني».

ومملكـة ياهـاني هي مملكـة آراميـة امتـدت من حدود الفرات شرقاً إلى أطـراف سهـل العمق غربـاً (انظـر الخـريطـة رقم ٧)، وجـاورتها من الجنوب أراضي مملكة حماة، ومن الشمال أراضي مملكة كركميش. وقد دعيت بمملكة ياهاني نسبة إلى مؤسسها الأول «ياهان» ثم صار اسمها مملكة «بيت جوشي» أو «بيت أجوشي» نسبة إلى أشهر ملوكها جوشي المذكور في هذا النص. وقد تم اكتشـاف عاصمتهـا «أرفـاد» تحت «تـل رفعت» على مسـافـة ٣٥ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب. ورغم أن الموقع نفسه لم يعط الكثير من الآثار الهامة، إلا أن مواقع أخرى في المملكة قد أعطتنا آثاراً فنية وكتابية على جانب كبـير من الأهميـة، ففي قريـة «السْفـيرة» إلى الجنوب الشرقي من حلب، تم العثور على ثلاثة أنصاب حجرية نقشت عليها معاهدة بين ملك أرفاد المدعو متـع ايـل» و «بـرجـايـة» ملك «كتـك». وهي الآن موزعة بين متحف دمشق

13- Leo Oppenheim , op. cit P. 276

14- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق ص ٤٠.

15- Eva Stromminger, Assyrian Domination (in: From Ebla To Damascus , op. cit, P.325

16- الدكتور علي أبو عساف، محاضرة القيت في «معهد غوتة» بدمشق شتاء ١٩٨٨.

ومتحف بيروت[١٧].

وقد ورد في التوراة ذكر أرفاد مراراً. ففي سفر الملوك الثاني ١٨ : ٣٣ - ٣٥ يتفاخر قائد شلمنصر الثالث عند أسوار اورشليم المحاصرة باخضاع الآشوريين لأرفاد وغيرها: [هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك آشور؟ اين آلهة أرفاد وحماة، أين آلهة سفروايم وهينع وعوّا؟]. وفي نبوءة ارميا عن دمشق: [عن دمشق خربت حماة وأرفاد، قد ذابوا ... ارتخت دمشق والتفتت للهرب]. ارميا ٤٩ : ٢٣ - ٢٤.

يترك الملك الآشوري كونولو ويتجه جنوباً فيعبر نهر العاصي (أرانتو في النصوص الآشورية ويرنت في النصوص المصرية وأورونتس عند الاغريق) إلى منطقة انطاكية. ومنها يأخذ الطريق بين جبل «يراكي» وجبل «يعتوري» وهما على الأغلب جبل «حارم» وجبل «الأقرع» فيقضي الليل على نهر «سنغارا» وهو على الأغلب «نهر الكبير الشمالي». ثم يأخذ الطريق بين جبل «ساراتيني» وجبل «دوباني» وهما جبل «الزاوية» و«جبال العلويين»، وصولاً إلى جبل لبنان حيث يغسل اسلحته في «بحر آمورو» أي بحر الغرب، وهو البحر المتوسط. وهناك تأتيه الجزية من مدن ساحل البحر (حسب تعبير النص). من «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«أرواد» (التي في البحر حسب تعبير النص). ومن «محللاتا» و«كيزا» ومن «ميزا» التي يعتقد أنها حمص (اميسا).

وهكذا تنتهي حملة آشور ناصر بال الثاني، كما انتهت سابقتها حملة تغلات فلاصر الأول، عند مدن الساحل الفينيقي بمدنه القديمة المعروفة أرواد وجبيل وصيدون وصور، لا عند المناطق الداخلية والجبلية من غرب شبه

17- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ص ٣٩ - ٤٥، ٩٤.
- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٤٧٣.

الجزيرة العربية . وتتقاطع أخبار العديد من الممالك والمدن الواردة في هذا النص مع أخبارها التوراتية .

شلمنصر الثالث وفترة المد الآشوري :

أن مسرح الحدث الذي ترسمه السجلات الآشورية في بلاد الشام منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد ، يختلف في ترتيبه الديمغرافي والسياسي عن مسرح الحدث الذي عرفناه من السجلات المصرية . فالممالك الكنعانية القديمة مثل مملكة قطنا وقادش وموكيش (ألالاخ) وتونيب وصوبة وغيرها قد غابت لتحل محلها في سورية الداخلية الممالك الآرامية الحديثة العهد مثل مملكة بيت عديني وبيت أجوش وحطينة وشمأل وحماة ودمشق . ولم يبق في منأى عن المد الآرامي سوى دويلات الساحل الكنعاني المحصورة بين جبل لبنان والبحر المتوسط ، من جزيرة أرواد إلى صيدون . وقد حافظت هذه المنطقة على طابعها الكنعاني لغة وثقافة ، وطورت بشكل مشترك نمطاً حضارياً ذا طابع خاص ضمن الوحدة الحضارية العامة لبلاد الشام ، ودعي أهلها بالفينيقيين من قبل الاغريق الذين كانوا على احتكاك بهم . كما حافظت منطقة فلسطين الداخلية وشرقي الاردن على ثقافتها الكنعانية القديمة دون أن يترك الحكم السياسي الاسرائيلي القصير الأمد بصمته على أي منحى من مناحي حياتها . وقد انقسمت السلطة السياسية على نفسها في فلسطين الداخلية بعد موت الملك سليمان عام ٩٢٥ق.م إلى مركزين واحد في الشمال استقر أخيراً في «السامرة» وآخر في الجنوب في اورشليم وما تلاها . أما الفلستيون الذين وفدوا مع شعوب البحر وتركزوا في الساحل الفلسطيني منذ مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد ذابوا في خضم الثقافة الكنعانية الراسخة بعد أن أظهرت آثارهم الأولى التي تم الكشف عنها في المنطقة عناصر متميزة من ثقافة بحر ايجه (انظر الفصل ٧ لاحقاً) .

ومع مطلع الألف الأول قبل الميلاد كانت القوى العظمى التقليدية في المنطقة قد غابت. فبابل قد التزمت حدودها ضمن وادي الرافدين، ومملكة الحثيين التي أنهت إلى الأبد مملكة ميتاني، جاء دورها لتشرب الكأس نفسها على يد شعوب البحر، ومصر الفرعونية قد عَرتْها أمراض الشيخوخة الطويلة التي عاشتها حتى الفتح الروماني. وقد أعطى هذا الوضع الفريد فرصة لانتعاش الدويلات الآرامية والكنعانية فيما بين القرن الثاني عشر والقرن التاسع قبل الميلاد. غير أن الحملات الآشورية التي بدأت بشكل متفرق وغير منظم بهدف جمع الجزية واستعراض القوة، قد تحولت إلى حروب منظمة منذ عهد «شلمنصر الثالث» خليفة آشور ناصربال الثاني، وهدفت إلى توطيد أركان امبراطورية مترامية الأطراف، الأمر الذي أدخل عنصراً جديداً إلى الصورة، استمر خلال كامل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

وكما لم يدفع التهديد المصري القديم دويلات بلاد الشام إلى أي نوع من أنواع الوحدة فيما بينها، كذلك كان شأن التهديد الآشوري الجديد الذي واجهته كل دويلة على انفراد، أو من خلال أحلاف مؤقتة ما تلبث أن تنحل عشية المعركة. ولعل اكثر الأحلاف التي واجهها الآشوريون خطراً، كان حلف معركة «قرقرة» الذي انعقد في مواجهة «شلمنصر الثالث» عام ٨٥٣ ق.م.

أمضى «شلمنصر الثالث» فترة حكمه الطويلة (٨٥٨ ـ ٨٢٤ق.م) في حملات متواصلة على بلاد الشام، كان أهمها الحملة التي شنها في السنة السادسة من حكمه ضد متحالفي «قرقرة» في منطقة حماة على نهر العاصي*. نقرأ في أخبار هذه الحملة:

[غادرت نينوى فعبرت نهر «دجلة» وتقدمت إلى مدن الملك «غيامو» على نهر «بليخ» فتملكهم الخوف من هيبتي ومن أسلحتي الفتاكة، فقتلوا

* ـ يقع الموقع القديم لقرقرة إلى الجنوب من بلدة جسر الشغور الحالية.

سيدهم غيامو بأسلحتهم (يلي ذلك تعداد للمدن التي أخذها وللجزية التي حصل عليها) . من «سحلالا» ـ Sahlala توجهت إلى «كار ـ شلمنصر» ، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز. وفي المدينة التي يدعوها أهل حطينة بـ «بيترو» ـ Ptru على الجهة الأخرى للفرات عند نهر «ساجور» ـ Sagur تلقيت الجزية من ملوك الجهة الأخرى للفرات ، من «سنغارا» ملك «كركميش» ومن «كونداشبي» ملك «كوماجين» ومن «آرام» ملك «جوشي» . . . (تعداد لبقية المدن وأصناف الجزية) . ثم غادرت الفرات نحو حلب ـ Halman ، التي خاف أهلها وخروا عند قدمي . فتلقيت منهم فضة وذهباً جزية ، وقدمت قرباناً إلى «حدد» (اله) حلب . من حلب توجهت إلى مدن «إرخوليني ـ Irhuleni ملك «حماة» ـ Amat ، فتحت مدن «آدينو» ـ Adinu و «برغا» ـ Barga ، ومقره الملكي في «أرغانا» ـ Argana ، وحررتها من سلطته وأضرمت النار في قصره . غادرت ارغانا وأتيت إلى «قرقرة» فدمرتها وأحرقتها .

هب إلى ساح المعركة «حدد ـ عدري» ـ Adad-idri ملك «امير يشو» (دمشق) ـ imerisu ، ومعه ١٢٠٠٠ عربة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠٠ جندي و «إرخوليني» ـ Irhuleni ملك «حماة» ـ Amat ومعه ٧٠٠ عربة و ٧٠٠ فارس و ١٠,٠٠٠ جندي . و «آخاب الاسرائيلي» Aha-ab-bu ـ Sir-i-La-a ومعه ٢٠٠ عربة و ١٠,٠٠٠ جندي . ومن «موصري» ـ Musri جاء ١٠,٠٠٠ جندي ، ومن «قوية» ـ Que ٥٠٠ جندي ، ومن «عرقاتا» ـ Arqanata ١٠٠ عربة و ١٠,٠٠٠ جندي . وجاء «ماتينو بعل» من «أرواد» ومعه ٢٠٠ جندي ، وأمير «اشناتو» ـ Usanata ومعه ٢٠٠ جندي ، و «ادنو بعل» من «سيانو» ـ Shian ومعه ٣٠ عربة و ١٠٠٠ جندي ، و «جنديبو» العربي ومعه ١٠٠٠ جمل ، و «بعشا» أمير «رحوبي» ومعه . . . ، ومن «عمون» . . فكانوا اثني عشر ملكا هبوا في وجهي للمعركة الحاسمة ، فحاربتهم بما وهبني الاله «آشور» من قوة ، وبما وهبني الاله «نرجال» من سلاح فتاك ، وهزمتهم بين مدينتي «قرقرة» و

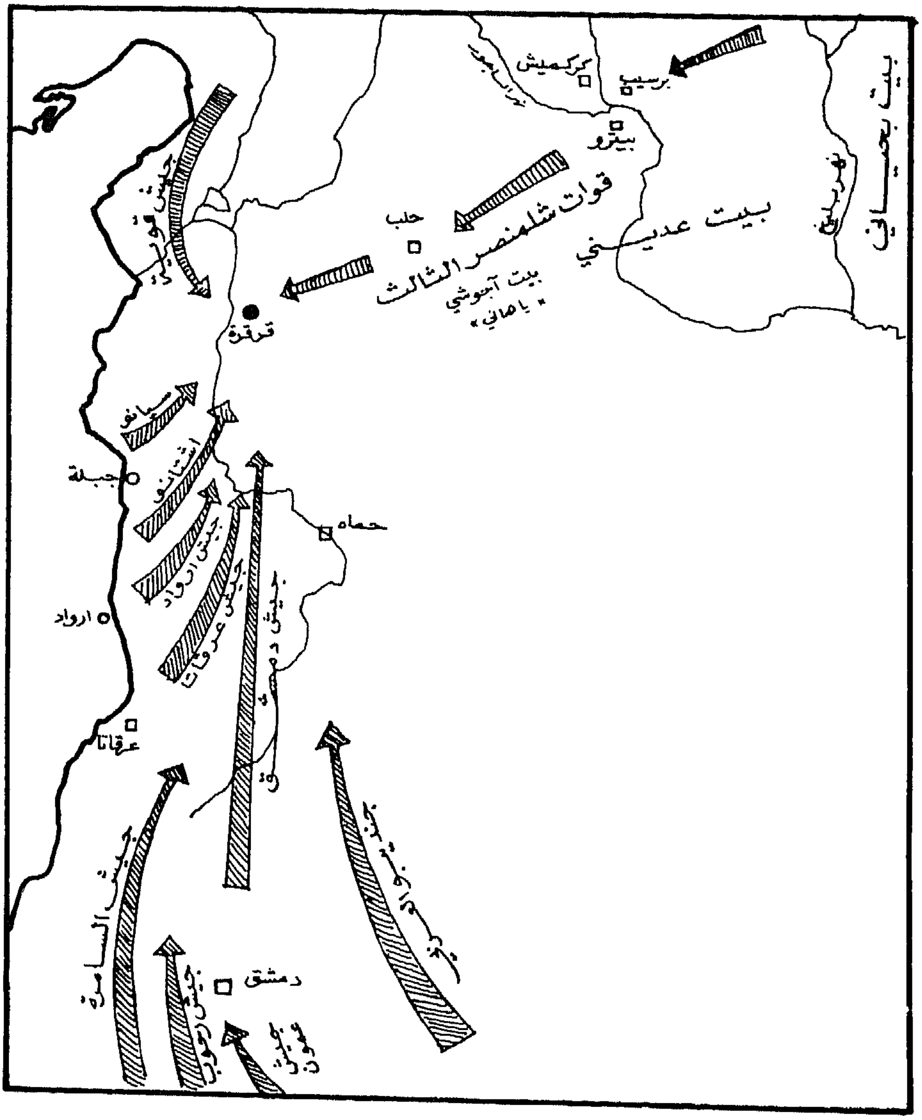
«جيلزو» ـ Gilzu . . . وملأت نهر العاصي بجثثهم . .][18].

يقول كمال الصليبي عن معركة قرقرة ما يلي (ص ٣٧) : [وكما هو الأمر بالنسبة لمعركة كركميش، فان معركة قرقرة التي حاربها الآشوريون ضد ملوك «أمت» و«إمرشو» وحلفائهم «جنديبو العربي» و«آخبوسرئلا» في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، كانت قد جرت فعلاً في غرب شبه الجزيرة العربية وليس على امتداد نهر العاصي في بلاد الشام كما يعتقد عادة. و«أمت» التي اعتبرت حتى الآن إشارة إلى «حماة» في وادي العاصي، هي عملياً قرية «أمط» الحالية في منطقة الطائف. و«امرشو» ليست دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن، ودون أي أساس لهذا الاعتبار، بل ربما كانت «المراشا» في جنوب مرتفعات عسير. و «جنديبو اربي» يفترض عادة كونه زعيماً عربياً من بادية الشام، وعملياً هناك قبيلة تدعى بنو جندب ما زالت تعيش في وسط مرتفعات عسير، و«أربي» قد تكون اليوم «عربة» أو «عرابة» من قرى بلاد عسير. و«كركرة» نفسها في هذه الحالة يمكن أن تكون حالياً «قرقرا» في منطقة القنفذة في تهامة الحجاز المحاذية لعسير وليس أي مكان في وادي العاصي من الشام]. فإلى أي حد ينطبق مسار حملة شلمنصر الثالث على هذا الكلام؟ (تابع مسار حملة قرقرة على الخريطة رقم ٨).

يغادر الملك الآشوري مدينة «نينوى» في آشور فيجتاز نهر الدجلة، ويصل إلى نهر بليخ الذي يرفد الفرات وهناك يقضي على عدد من المدن ثم يأخذ طريقة إلى «كار شلمنصر» وهي مدينة «برسيب» عاصمة مملكة بيت عديني على الضفة الشرقية للفرات. (انظر الصفحة ٨٨ سابقاً). ومن هناك يعبر نهر الفرات إلى ضفته الغربية ويسير إلى مدينة «بيترو» عند نهر «الساجور» إلى

18- Leo Oppenheim, op. cit. pp 278- 279

من أجل تهجئة ولفظ الأسماء الواردة في المقطع الخاص بمعركة قرقرة، راجع الدكتور علي أبو عساف في: الآراميون، المرجع أعلاه ص ٥٥.



الخارطة رقم (٨) ـ معركة قرقرة

الجنوب من كركميش. وهذه المدينة معروفة في النصوص الآشورية الأبكر بأنها من المـراكـز الأولى لاستقـرار الآراميـين في شمال بلاد الشـام[19]. أما نهر «السـاجـور» فما زال إلى اليوم يصب في نهر الفرات إلى الجنوب من جرابلس الحـاليـة (كركميش القديمة). في بيتر ويتلقى شلمنصر الثالث جزية عدد من الـدويـلات القـريبـة، منهـا كركميش، وجـوشي الـواردة الـذكر أعلاه (انظر الصفحة ٩٠ سابقـاً)، ثم يتابع سيره إلى حلب حيث يتلقى الفضة والذهب من أهلها الذين استسلموا دون قتال، وبعد تقديمه قربانا للإله حدد اله مدينة حلب، يهبط جنوباً نحو سهول مملكة حماة للقاء ملكها «ارخوليني».

وكانت حماة في ذلك الوقت أقوى مملكة آرامية في بلاد الشام بعد مملكة دمشق. جاورتهـا في الشـمال مملكـة «بيت أجـوشي» و«حطينة»، وفي الجنوب مملكـة دمشق. أمـا في الغـرب فقـد وصلت حدودهـا إلى سلسلة الجبـال السـاحليـة، بينـما امتدت حدودها الشرقية عبر البادية. وقد هاجرت اليها من بلاد الأنـاضـول جماعـات هندو اوروبية وامتزجت بالآراميين الذين حلوا فيها قبلهم وأسسـوا جميعـاً مملكـة قوية كان لها شأن في الأحداث التي تتابعت على بلاد الشـام خلال النصف الأول من الألف الأول قبـل الميـلاد[20]. وكـان «ارخـوليني» الـوارد ذكـره في نصر معركة قرقرة أحد ملوكها الأقوياء المعروفين، وقـد أخـبرتنـا عنـه نصوص مملكة حماة المكتشفة في عدد من مواقعها القديمة. فقد تم العثور حديثاً على عدد من النقوش المكتوبة بالخط الهير وغليفي اللوفي في حماة نفسها، وفي أماكن قريبة منها كانت تابعة للمملكة القديمة مثل «محردة» و «قلعـة المضيق» و «الـرستن» تذكـر اسم الملك «أرخوليني»، وفيها يقول أنه ابن الملك «بارتاس»، وانه بنى معبداً للربة «بعلاتي»[21].

19- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٣٥.

20- المرجع نفسه ص ص ٥٣ - ٥٤.

21- H. Sader, Les Estats Araméens de Syrie Depuis Leur Fondation jusqu a'leur Transformation en provinces Assyriennes (1984) Dissertation, P 223

في منطقة حماة يقضي شلمنصر الثالث على العديد من المدن ثم يأتي إلى قرقرة حيث يلتقي بجيوش المتحالفين وعلى رأسهم ملك دمشق «حدد عدري» يعاضده ملوك وأمراء الدويلات السورية: قوية وهي مملكة صغيرة على شاطيء المتوسط الشمالي في الأراضي التركية الآن بين نهري سيحان وجيحان، موصري وهي مملكة مجهولة حتى الآن، أشتانو إلى الجنوب من مدينة جبلة الحالية في سورية، سيانو إلى الشرق من مدينة جبلة الحالية[٢٢]، أرواد على الساحل السوري، بيت رحوب (ورد ذكرها سابقاً في السجلات المصرية انظر الصفحة ٦٣ سابقاً)، وعرقاتا (ورد ذكرها سابقاً في السجلات المصرية انظر الصفحة ٥٤ سابقاً)، عمون وهي موطن العمونيين الخصوم التقليديين للإسرائيليين في شرقي الأردن، القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام بقيادة جنديبو العربي، مملكة اسرائيل الشمالية بقيادة ملكها «آخاب» المعاصر لشلمنصر الثالث. وآخاب الاسرائيلي الوارد في نص معركة قرقرة هو ابن عمري، الملك السابع في سلسلة ملوك مملكة اسرائيل الشمالية التي اسسها «ياربعام» عقب موت الملك سليمان حوالي عام ٩٢٥ق.م. وكان أشهر ملوكها «عمري» الذي بنى العاصمة الجديدة في السامرة. ويبدو أن معركة قرقرة قد جرت في بداية حكم الملك آخاب، لأننا إذا جمعنا سنوات حكم ملوك اسرائيل السابقين، كما وردت في كتاب التوراة لوجدناها ٦٢ سنة وذلك وفق ما يلي: ١ ـ ياربعام ٢٢ سنة ٢ ـ ناداب سنتان ٣. بعشا ٢٤ سنة ٤ ـ ايله سنتان ٥ ـ زمري سبعة أيام ٦ ـ عمري ١٢ سنة. فإذا طرحنا هذه الفترة من ٩٢٥ وهو عام موت سليمان لحصلنا على ٨٥٣ وهو العام المقرر وفق علم التاريخ لمعركة قرقرة.

أما قرقرة نفسها فتقع على مسافة احد عشر كيلومتراً الى الجنوب من مدينة جسر الشغور الحالية على الضفة الغربية لنهر العاصي. وما زال اسم

22- علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٥٥.

الموقع القديم حياً في تل يقع في المنطقة نفسها يدعى اليوم «تل قرقور».

أما عن زعيم التحالف «حدد عدري» ملك «إمير يشو» (مملكة دمشق) التي قال عنها الصليبي انها ليست دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن، ودون أي أساس لهذا الاعتبار، ووجد مكانها في المراشا في جنوب مرتفعات عسير، فاننا نعرف من نصوص أخرى لشلمنصر الثالث أن عاصمته هي «دِمشقي» بالأشورية ـ Di-ma-as-qi . وبذلك تقدم لنا السجلات الأشورية، التي يدعونا الصليبي إلى إعادة دراستها، الأساس الذي اعتبرت بموجبه «امير يشو» على أنها «دمشق» الشام. نقرأ في نص عثر عليه في آشور منقوش على تمثال من البازلت للملك شلمنصر الثالث. [لقد هزمت حدد عدري ملك إمير يشو مع اثني عشر أميراً من حلفائه، وجندلت ٢٠,٩٠٠ من محاربيه الأقوياء، ودفعت بمن تبقى من قواته إلى نهر العاصي ـ Arantu ، فتفرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم. أما حدد عدري نفسه قد انتهى، واغتصب العرش مكانه «حزائيل» ابن لا أحد، الذي دعا اليه الجيوش الكثيرة وثار في وجهي. فقاتلته وهزمته وغنمت كل مركبات معسكره. أما هو، فقد هرب طالباً حياته، فتعقبته الى «دمشق» ـ Di- ma- as- qi ، مقره الملكي حيث قطعت أشجار بساتينه][٢٣].

وتتقاطع نصوص بلاد الشام مع النصوص الأشورية لتقدم لنا اثباتاً على أن دمشق النصوص الأشورية هي دمشق الشام وليست «ذومسك» في غرب العربية. فلدينا نقوش على قطع فنية عاجية من «حداتو» (ارسلان طاش عند الحدود السورية التركية الحالية على بعد ٣٠ كم شرقي الفرات) نقش عليها اسم حزائيل ملك دمشق الذي تصفه الكتابة بلقب سيدنا ومولانا حزائيل[٢٤]. ولدينا حجر تذكاري يرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن

23- Leo Oppenheim, op. cit, p. 280

24- HarveyWeiss,From Ebla To Damascus, Smithonian Inst. Washington D.C, 1985, PP. 263,345

الثامن قبل الميلاد، عثر عليه في موقع قرية «أفس» قرب بلدة «سراقب» الحالية على بعد ٤٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب. وقد نقش عليه «زاكير» ملك حماة أخبار اعتداءات «بن حدد» ابن حزائيل ملك دمشق على مملكة حماة بمعونة عدد من الدويلات الأخرى. نقرأ في مطلع النص: [هذا الحجر التذكاري، وضعه زاكير ملك «حماة» و«لوعاش» ـ Lu'ath من أجل «ايلو-ور» إلهه. أنا زاكير ملك حماة ولوعاش، كنت رجلاً من العامة ولكن الإله «بعل شمين» وقف إلى جانبي وجعلني ملكاً على «حاتريكا» - Hatarika «بن حدد» ابن «حزائيل» ملك آرام، جمع ضدي سبعة ملوك: بن حدد وجيشه، ملك «غوروم» وجيشه، ملك «شمأل» وجيشه، ملك كيليكيا وجيشه، «بن جوش» وجيشه، ملك «العمق» وجيشه، ملك «ميليز» وجيشه. كل هؤلاء الملوك الذين جمعهم بن حدد * وجيوشهم قد حاصروا حاتريكا... ولكن بعل شمين كلمني عبر العرافين والمتنبئين قائلاً: لا تخف فلقد جعلتك ملكاً ولسوف أقف إلى جانبك وانقذك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا حصاراً حولك][٢٥].

إلى جانب دمشق الواردة في النصوص الآشورية والتوراتية، يطلعنا نص زاكير ملك حماة على أخبار عدد من الممالك الأخرى المعاصرة لها. فـ «بن جرش» الوارد ذكره بين حلفاء مملكة دمشق هو ابن الملك «جوش» أو «جوشي» ملك ياهاني أو بيت أجوشي، الوارد ذكره في سجلات آشور ناصر بال الثاني (انظر الصفحة ٩٠ سابقاً). ومملكة «لوعاش» التي يبدو أن زاكير قد ضمها إليه كانت تمتد إلى الشمال والشمال الشرقي من حماة وعاصمتها «حتر يكا» التي هي على الأرجح «أفس» الحالية حيث وجد النصب التذكاري، وكانت هذه

---

* ـ بالآرامية برحدد حيث «بَر» تعني ابن.

25- Franze Rosenthal, Canaanite And Aramaic Inscriptions (in:Ancient Near Eastern Texts) op. cit PP. 655-56

المملكـة تعـرف في الألف الثـاني قبـل الميـلاد باسم مملكـة «نـوخشي» (انظـر صفحة ٦٢ سابقـاً)[٢٦]. أما مملكة «شمأل» فكانت تسيطر على أقصى المناطق السـوريـة الـواقعـة إلى الشـمال الغـربي من البـلاد، (انظر خريطتنا رقم ٨) وسميت أيضـاً بمملكـة «يأدي» نسبـة إلى مؤ سسهـا الأول، كما سماهـا الآشـوريـون في بعض نصـوصهم «بيت جبر» نسبة إلى أحد ملوكها. وقد تم اكتشـاف عاصمتها «شمأل» في موقع «زنجرلي» الحديث على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، وعثر فيها على عدد من النصوص الهامة[٢٧].

ورغم هزيمـة حلف قرقـرة فان بلاد الشـام لم تسلم القيـاد بسهـولـة للآشـوريـين وكـان على شلمنصـر الثـالث أن يعـود مراراً إلى المنطقـة لإعـادة فرض السيطـرة الآشـوريـة. نقـرأ في نص حملة أخرى لشلمنصر الثالث: [في السنة الثـامنـة عشرة من بدء مُلكي، عبرت الفـرات للمـرة السادسة عشر. حزائيل ملك دمشق وضع ثقته بجيشه العرم، وجمع قواته باعداد كبيرة جاعلاً من جبل «سنـير و» ـ Sa-ni-ru المقابل لجبل لبنان قاعدة له، قاتلته وهزمته وجندلت ستة عشـر ألفـاً من جنـوده المـدربـين، وغنمت ١١٢١ عربـة و ٤٧٠ جواداً وكـل معسكـره. أمـا هو فقـد هرب طالبـاً حياته، فتبعته إلى دمشق، مقره الملكي، وحاصرته هناك وقطعت بساتينه (المحيطة بالمدينة ومضيت). سرت إلى جبال «حوران» ـ Ha-u-ra-ni ، فهدمت واحرقت عدداً لايحصى من المدن وأخذت منهم جزيـة لا حصـر لها. كما سرت إلى جبـل «بعـل راسي» الـذي يقـع إلى جانب البحـر، وأقمت هنـاك نصبـاً تذكـاريـاً عليـه صورتي. في ذلك الوقت تلقيت الجـزيـة من صور وصيـدون ومن «يـاهـو» ابن عمـري ـ Ia-u-a mar Hu-um-ri-i][٢٨].

26- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ص ٥٧ ـ ٥٨ انظر ايضاً:
- Paolo Matthiae, Ebla, op. cit, P. 40.

27- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، المرجع السابق، ص ٤٧٨.

28- Leo Oppenheim, op. cit, P. 280

«ياهو» المذكور في هذا النص، هو ملك اسرائيل الذي قضى على بيت آخاب ابن عمري، وأحل نفسه ملكاً في السامرة. أما تسمية كاتب النص الآشوري له بابن عمري، فهي إما خطأ من الكاتب الذي اعتقد أن الملك الجديد هو من سلالة عمري، أو ان يكون المقصود بابن عمري هنا، النسبة إلى «أرض عمري» وهي التسمية التي أطلقها الآشوريون على اسرائيل، إذ نسبوها، على عادتهم، إلى أشهر ملوكها الذي بنى مدينة السامرة فكانت عاصمة له ولكل من تسلسلوا بعده من الملوك إلى دمارها الأخير، وكان ياهو معاصراً لحزائيل ملك دمشق، وكلاهما كان يدفع خطر الآشوريين على طريقته الخاصة. فبينما تابع حزائيل سياسة التمرد والمجابهة، لجأ ياهو إلى الديبلوماسية واتقاء شر الملك الآشوري بدفع الجزية والأتاوات له. فاضافة إلى النص الآشوري الأنف الذكر، لدينا كتابة على مسلة سوداء محفوظة الآن في المتحف البريطاني نقشت تحت صورة تمثل رجلاً يقدم فروض الطاعة والولاء للملك شلمنصر الثالث، وترجمتها كما يلي: [جزية ياهو ابن عمري. تلقيت منه فضة وذهباً، طاسة ذهبية ومزهرية ذهبية مدببة القاعدة (تعداد لبقية الأصناف المقدمة)][29]. ورغم أن جزية ياهو المدفوعة لشلمنصر غير مذكورة في التوراة بشكل صريح، ربما حفاظاً على سمعة هذا الملك الذي تبجله أسفار التوراة لأنه أعاد عبادة يهوه إلى السامرة وأزال المعابد الكنعانية منها، فان هناك اشارات واضحة إلى العطايا التي كانت تقدم إلى آشور في ذلك الوقت. ويمكن بهذا الخصوص مراجعة سفر هوشع ٥: ١٧ و١٢: ١.

غير أن دمشق والسامرة لم توفرا فرصة للاقتتال فيما بينهما كلما تراخت قبضة الآشوريين. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٣: ٣ - ١٣ و٢٢ - ٢٥: [ملك «يهو آحاز» بن «ياهو» على اسرائيل في السامرة سبع عشرة سنة، وعمل الشر في عيني الرب ... فحمي غضب الرب على اسرائيل ودفعهم ليد حزائيل ملك

29- Ibid, P. 281

آرام وليد بنهدد بن حزائيل كل الأيام] . . [ثم مات حزائيل ملك آرام وملك بنهدد ابنه عوضاً عنه . فعاد «يهوآش» بن «يهو آحاز» وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهو آحاز أبيه بالحرب] .

وهكذا تتقاطع نصوص التوراة مع النصوص الآشورية والنصوص الآرامية لتثبت أن مسرح الحدث التوراتي ومسرح السجلات الآشورية كان في بلاد الشام ولا علاقة له من قريب أو بعيد بغرب العربية .

حدد نيراري الثالث:

بعد شلمنصر الثالث، تتراخى قبضة آشور عن بلاد الشام مدة عشرين سنة بسبب النزاعات الداخلية بين ورثة العرش والانشغال بالحروب ضد المناطق الشرقية . وفي عام ٨١٠ق.م يرتقي العرش «حدد نيراري الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ق . م) تحت وصاية أمه «شاموررامات» (سميراميس عند الاغريق) نظراً لصغر سنة . وما أن يشتد عوده حتى يسير في درب أسلافه نحو سورية .

نقرأ على قاعدة تمثال مكسورة، عثر عليها في «نمرود» بآشور النص التالي :

[. . ومن شاطيء الفرات اخضعت بلاد حاتي، وكل أراضي «آمورو»، وصور، وصيدا، وأرض عمري، وايدوم، وبلاد الفلستيين - Pa-la-as-tu ، إلى البحر الكبير حيث تغرب الشمس . جميعهم أخضعت تحت قدمي وفرضت عليهم الجزية . سرت نحو بلاد دمشق، وحبست ملكها «ماري» في «دمشقي» مقر مُلكه، فغمره الخوف من بهاء مولاي الاله آشور وأمسك قدمي خضوعاً لي . فتلقيت منه الجزية في قصره الملكي : ٢٣٠٠ وزنه من الفضة و ٢٠ وزنة من الذهب و ٥٠٠٠ وزنة من الحديد (تعداد لبقية أصناف الجزية . . .][*] .

* - Ibid, PP 281- 282.

إلا أن من أعــاد هيبـة الحكم الآشـوري، فعـلاً، إلى منـاطق نفـوذه السابقة شرقاً وغرباً كان الملك «تغلات فلاصر الثالث».

تغلات فلاصر الثالث:

في سجـلات «تغـلات فلاصـر الثـالث» (٧٤٤ ـ ٧٢٧ق.م)، تأخـذ أخبـار التوراة بالتقاطع مع النصوص التاريخية الآشورية بشكل أكثر دقة. نقرأ في نص قصـير يسـرد أسماء الملوك الـذين أرسلوا جزيـاتهم إلى ملك آشـور: [تلقيت الجزية من «رصين» ـ Ra-hi-a-nu ملك دمشق و«منحيم» ـ Me-ni-hi-im-me ملك «السـامـرة» ـ Sa-me-ri-na و«حـيرام» ـ Hi-ru-um-mu ملك «صـور» و «سيبيتي بعـل» ملك «جبيـل» و«اوريكي» ملك «قوية»، و«بيسير يس» ملك «كـركميش»، و«انليـل» ملك «حمـاة»، و«بنـامـو» ملك «شمأل». . ومن «زبيبه» ـ Za-bi-be ملكة العرب][30].

إن جميع اسماء ممالك بلاد الشام الواردة في هذا النص، قد صار معروفاً لدينا عند هذه المرحلة من دراسة النصوص القديمة. ولكننا نود التوقف قليلاً عند «بنامو» ملك شمأل، لنورد بعض النصوص الآرامية التي تأتي على ذكر هذا الملك والتي تتقـاطـع مع السجـلات الآشـوريـة. فلقـد أمدتنا التنقيبات الأثـريـة في «زنجـرلي» على السفـح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السـوري، وهي موقـع عاصمـة مملكـة شمأل (أويأدي. انظر الصفحة ١٠١ سابقاً)، بالعديد من النصوص التي كشفت لنا عن أحوال المملكة الاجتماعية والسياسية خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. و«بنامو» المذكور في النص الآشوري هو «بنامو الثاني» الذي تذكره النصوص بكل اكبار واجلال على أنه المصلح الذي أحل العدل في البلاد واهتم باعادة بنائها بعد فترة من الفـوضى والاضطـرابـات. وكان هذا الملك، على ما ترويه النصوص صديقاً

30- Ibid, P. 283

للآشـوريـين يدفـع لهم الجزية بانتظام . وعندما هاجم تغلات فلاصر الثالث دمشق، شارك بنـامـو في حملتـه وقـاتـل إلى جانبـه، ولكنـه اصيب في المعركة ومات، على ما يذكره النص : [على رجلي سيده تغلات فلاصر ملك آشور في المعـركـة، فبكـاه أقـربـاؤه الملوك وبكته قوات سيده ملك آشور كلها . وأخذه سيده ملك آشور وأقام له نصباً على الطريق ونقل من دمشق إلى أرض آشور][31] . وقد ترك حفيد بنامو المدعو «برراكب» (ابن راكب، نصاً على تمثال له محفوظ الآن بمتحف استانبول يذكر فيه جده بنامو.

[أنـا «بن راكب» بن «بنـامـو»، ملك شمأل وعبـد تغلات فلاصر ملك جهـات الأرض (الأربعـة) . بسبب صلاحي وصـلاح أبي، أحلني سيدي «راكب ايل» و سيدي تغلات فلاصر على عرش أبي، وبيت أبي قد غنم أكثر من الجميـع، لقـد سرت في ركاب سيدي ملك آشور بين ملوك عظام يملكون الفضة ويملكون الذهب، وأخذت بيت أبي وجددته (فصار) أفضل من بيوت الملوك العظام . .][32] .

أما «منحيم» ملك السامرة المذكور في نص تغلات فلاصر أعلاه، إلى جانب ملوك دويـلات بلاد الشـام الـذين دفعـوا الجـزيـة لآشـور، فقد عاصر السنـوات الأولى لحكم تغـلات فلاصـر، واتقى شره بالجـزيـة . وكـان خلفـه «فقح» هو الذي منع الجزية عن آشور وتمرد على تغلات فلاصر على ما تذكره السجلات الآشورية وأخبار التوراة . نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٦ : ٥ [حينئذ صعد رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك اسرائيل إلى اورشليم للمحاربة، فحـاصـروا آحـاز ولم يقدروا أن يغلبوه ... وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلت فلاسر ملك آشور قائلاً : أنا عبدك وابنك، اصعد خلصني من يد ملك آرام ومن يد

31- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص ١٢٥ .

32- Franz Rosenthal, op. cit, P. 655

للمقارنة راجع أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق، ص ١٢٧ .

ملك اسرائيل القائمين علي. حذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية. فسمع ملك آشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين وسار الملك آحاز للقاء تغلت فلاسر ملك آشور إلى دمشق].

وهدية آحاز المرسلة في هذا النص إلى ملك آشور مذكورة في عداد الجزيات التي يذكر نص آخر لتغلات فلاصر وصولها إلى آشور: [تلقيت جزية «خاشتاشبي» ملك «كوماجين» و«أوريك» ملك «قوية» و«سيبيتي بعل» ملك «جبيل» و «انليل» ملك «حماة» و «بنامو» ملك «شمأل». . و«متان بعل» ملك «أرواد» و «سابينو بعل» ملك «بيت عمون»، و «سلمانو» ملك «موآب» و «ميتيني» ملك «عسقلان» و «آحاز» ـ Ia-u-hazi ملك «يهوذا» ـ Ia-uda-aa ، و «كوش ماليكو» ملك «ايدوم»، وهانو» ملك «غزة» ـ Ha-za-at-aa (تعداد لأصناف الجزية)](٣٣).

لقد كانت حملة تغلات فلاصر على مملكة اسرائيل بداية لنهايتها، وقد جاءت حملته هذه في نطاق حملة واسعة على بلاد الشام وخصوصاً دمشق التي عاضدت السامرة ضد أورشليم، حيث دمر المئات من مدنها وقراها. وبعد دمشق انقلب إلى الساحل السوري (البحر الأعلى) هبوطاً إلى غزة التي فر ملكها إلى مصر ناجياً بحياته. أما عن ملك السامرة، فيتابع النص: [أما منحيم، فقد هبطت عليه كما العاصفة الثلجية، ففر وحيداً ثم عاد فانحنى عند قدمي. أعدته إلى مكانه وفرضت عليه جزية (تعداد للأصناف المقدمة). وسقت الكثيرين من «بيت عمري» (مملكة اسرائيل) وممتلكاتهم إلى آشور. ثم انقلبوا بعد ذلك على ملكهم «فقح» ـ Pa-qa-ha ، فاحللت بدلاً عنه «هوشع» ـ A-u-si ملكاً عليهم، وتلقيت منه جزية (تعداد للأصناف المقدمة)](٣٤).

33- Leo Oppenheim, op. Cit, P. 281-282

34- Ibid, PP. 283-284 .

وتتطابق هذه الرواية الآشورية في خطوطها العامة مع رواية سفر الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ ـ ٣٠ حيث نقرأ: [في أيام فقح ملك اسرائيل، جاء تغلت فلاسر ملك آشور وأخذ عيون وآبل معكه ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور، وفتن هوشع بن إيله على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضاً عنه].

وفي عهد هوشع تحل النكبة الأخيرة بمملكة اسرائيل ويختفي ذكرها إلى الأبد.

صارغون الثاني:

بعد تغلات فلاصر الثالث، يعتلي العرش ابنه «شلمنصر الخامس» (٧٢٦ ـ ٧٢٢ق. م) الذي يعزو اليه كتاب التوراة فتح السامرة واجلاء أهلها إلى آشور، بينما تتحدث نصوص خليفته «صارغون الثاني» (٧٢١ ـ ٧٠٥ق. م) عن قيامه بفتح السامرة. ويبدو أن صارغون الثاني كان قائداً للعمليات العسكرية في فلسطين، وهو الذي أكمل ما بدأه شلمنصر الخامس وعزاه جميعاً إلى نفسه. نقرأ في نص مبكر لصارغون الثاني ما يلي: [.. صارغون ملك آشور فاتح السامرة ـ Sa-mir-i-na وكل بيت عمري (اسرائيل) ـ Bet-Hu-um-ri-a، الذي غنم «أشدود» و«شينوختي» ـ Shinuhti، وأمسك الـ «يـاماني» Ia-ma-ni في البحر كالسمك، الذي قضى على «كاسكو» و«طابالي» و«خيلاكو» الذي طارد «ميتا» ملك «موشكو»، الذي قهر «مصر» في «رفح» ـ Rapihu الذي أخذ «هانو» ملك «غزة» غنيمة، الذي أخضع الملوك السبعة في «يا» ـ Ia بأراضي يدنانا» ـ Ia-ad-na-na على مسافة سبعة أيام في البحر][٣٥].

35- Ibid, P. 284

إضافة إلى السامرة وبيت عمري، التي اثبتنا حتى الآن أنها مملكة اسرائيل، فاننا نعرف من جدول صارغون أعلاه الأسماء التالية: أشدود وهي مدينة الفلستيين المعروفة على ساحل فلسطين، خيلاكو وهي كيليكيا على ساحل المتوسط الشمالي، موشكو ويغلب أن تكون فرجيا بآسيا الصغرى، غزة وهي مدينة الفلستيين المعروفة في جنوب الساحل الفلسطيني، تليها رفح عند الحدود المصرية. أما «اليامانى» الذين أمسكهم صارغون في البحر كالسمك فهم الأيونيون الأغريق، و« يدنانا» التي تقع على مسافة سبعة أيام في البحر انطلاقاً من غزة فهي قبرص[٣٦]. وتعريف هذه الأماكن متفق عليه بين جميع المؤرخين ودارسي النصوص الآشورية. إلا أن لكمال الصليبي رأياً مختلفاً بخصوصها.

يقول الصليبي: [ان الجداول الطبوغرافية الآشورية مثل آشور بانيبال الثاني وشلمنصر الثالث وصارغون الثاني تقدم سجلات للفتوحات في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في الشام. ولاعطاء مثال واحد لا أكثر فانه في الأسطر الأولى من جدول صارغون الثاني، يصف هذا الملك نفسه بأنه فاتح «سا ـمي ـ ري ـ نا» (سيمرن) و«بيت خو ـ ء م ـ ر ي يا» (خمري). وقد ساد الاعتقاد حتى الآن أن الاشارة في هذين الاسمين هي إلى «السامرة» (شمرون) و«بيت عمري» ملك اسرائيل. وقد كانت مملكة عمري الاسرائيلية بالتأكيد في جنوب الحجاز، أي في عسير الجغرافية، والسامرة ما زالت هناك وتدعى «شمران» باسمها في صيغته الأصلية التوراتية بلا تغيير. لكن الاشارة في جدول صارغون الثاني ليست إلى السامرة وبيت عمري بل إلى منطقة جيزان حيث ما زالت هناك قرية في جبل هروب اسمها «الصَّرْمين»، وقرية أخرى اسمها «الحمراية» في وادي عقاب بناحية أبي عريش] (انظر ص ١١٦ ـ ١١٧)

36- Ibid, P. 284

ثم يتابع الصليبي العثور على أماكن بقية الأسماء الواردة في جدول صارغـون الثـاني أعـلاه، في عسير وغرب العربيـة، مما لا يتسـع مجالنا هنا لإيـراده. غير أننـا سوف نتوقف عند حالتين مما ذكر، الأولى تتعلق «باليامان» وهم الأيونيون الأغريق، والثانية تتعلق بـ «يا» ـ Ia الواقعة في «يدنانا» التي هي قبرص، فبخصـوص اليـامـاني يقـول الصليبي أنـه [في النهاية الشرقية لوادي نجران اقتنص الملك الآشوري الـ «يا ـ ما ـ نو» كالسمك. والاشارة هنا هي إلى «اليمينيـين» أي شعب الجنـوب وهم «البنيـامينيون التوراتيون»، الذين لم يعيشـوا في البحـر «يم»، بل في بلاد «يـام» بين وادي نجـران ورمـال الـربـع الخالي]. وفي الحقيقة، لو أن الصليبي قد أورد ذكر نص آخر لصارغون الثاني الذي يتعرض فيه لليامان (هكذا وردت في النص الآشوري) لعرفنا منه أن هؤلاء الاغـريق انـما يعيشـون في جزر قائمـة في البحر المتوسط. فالنص يقول: [لقد فتحت السـامـرة وكـل بيت عمـري وأمسكت اليامان الذين يعيشون في وسط بحـر الغـرب، كالسمـك][37]. فكلمـة «يـامـو» في هذا النص وتعني بحـر بالآشـوريـة (يم)، ويـرى فيها الصليبي بلاد «يام» الصحراوية، لم تبق مغفلة بل اضيفت إلى كلمة الغرب «آمورو» بالآشورية، لتصبح «بحر الغرب» وهي التسميـة المعـروفـة في نصـوص بلاد الـرافدين للبحر المتوسط. ثم اننا بصرف النظـر عن الإيضـاح الـذي يقـدمـه النص الثـاني، نسأل: كيف شبـه النص الآشــوري امســاك اليــامــاني بصيـد السمـك إذا كان هؤلاء يعيشـون في الصحراء، وإذا كان مطاردة الآشوريين لهم تتم في الفيافي والقفار؟؟

أما فيما يتعلق بـ «يا» ـ Ia، فيقول الصليبي أنها وادي «عياء» على بعد حوالي ٢٠٠ كم إلى الجنـوب من «خـزاعـة» (وهي «غـزة» المقصودة في جدول صارغـون) أي على مسـافـة سبعة أيام كما جاء في منقوشة صارغون، دون أن يتطـرق إلى أن الجـدول قد قال بنصـه الصـريـح أن «يا» هذه هي مقاطعة في

37- Ibid, p. 284

«يـدنـانا» الواقعة في البحر على مسافة سبعة أيام في البحر (انظر النص أعلاه) ودون أن يتطـرق إلى نص آخـر لصـارغـون يزيـد على ذلك بأن «يدنانا» تقع على مسافة سبعة أيام في البحر وسط بحر الغرب: [والملوك السبعة في «يا» ـ la بأراضي «يـدنـانا» ـ la-ad-na-na التي في وسط بحر الغرب على مسافة سبعة أيام، والتي لم يسمع بها أحد من أجدادي الملوك لبعدها، قد عرفوا في بقعتهم النائية عما فعلت ببلاد «حاتي» وبلاد «الكلدان»، فارتجفوا فرقاً وأرسلوا إلي في بابل ذهباً وفضة . .][38].

وفي نهاية تحليله لأسماء المواقع الواردة في جدول (صارغون الثاني) يتساءل الصليبي: [. . . وبوجود جميع هذه الأسماء الواردة في جدول صارغون في غرب العربية، أي سبب يبقى للاصرار على الاعتقاد بأن هذا الجدول يشير إلى فتوحات آشورية في الشام وفلسطين؟]. ونحن نقول ان قراءة كمال الصليبي المجتزأة والانتقائية للنصوص القديمة، وعدم تقديمه نصاً كاملاً واحداً منها، هو أحد أسباب الاصرار على هذا الاعتقاد.

كرر صارغون الثاني خبر فتح السامرة في عدة نصوص. وهو في نص اكثر تفصيلاً يقول: [لقد حاصرت وفتحت السامرة، وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكانها، وجهزت من بينهم فصيلة بخمسين عربة ضممتها إلى فيلقي الملكي. أما المدينة، فقد أعدت بناءها بأفضل مما كانت، وأسكنت فيها فيها شعوباً من المناطق الأخرى التي قهرتها. ثم أقمت عليهم ضابطاً من لدني حاكماً عليهم، وفرضت عليه جزية الأشوريين][39].

وتتطابق الرواية التوراتية مع النص الآشوري، وتختلفان فقط في اسم الملك الآشوري، مما ألمحنا اليه أعلاه وقدمنا له تفسيراً، نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٨: ٩ ـ ١١ [في السنة السابعة لهوشع ملك اسرائيل، صعد شلمناسر ملك آشور على السامرة وحاصرها، وأخذوها في نهاية ثلاث سنين... وسبى

38- Ibid, P. 284

39- Ibid, P

ملك آشور اسرائيل إلى آشور ووضعهم في حلج وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي]. ونقرأ أيضاً في الملوك الثاني ١٧ : ٢٤ [وأتى ملك آشور بقوم من مدن بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم وأسكنهم في مدن السامرة عوضاً عن بني اسرائيل، فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها].

لقد حاول الآشوريون احداث تغيرات ديمغرافية جذرية في مناطق نفوذهم لاحكام سيطرتهم على سكانها، فعمدوا إلى تهجير شعوب باكملها وزرعها في مواطن غريبة عنها، وحملوا أهل هذه المواطن فأعطوهم مناطق المهجرين. ولم تطبق سياسة التهجير هذه على أهل السامرة فحسب بل شملت شعوباً عديدة، منها شعب مملكة حماة ومملكة كركميش. نقرأ في سجلات صارغون عن ذلك ما يلي:

[«ياوبيدي» من عامة مدينة حماة» ـ A-ma-at-tu ،حثي ملعون، جعل نفسه ملكاً على المدينة، وحرض ضدي مدن «ارواد» و«سيميرا» و«دمشق» و«السامرة»، فتعاونوا وجهزوا جيشاً مشتركاً. دعوت جمع جند آشور وأطبقت عليه في «قرقرة» مدينته الأثيرة، ففتحتها وأحرقتها. أما هو فقد أمسكت به وسلخت جلده وقتلت المتمردين في مدنهم وأحللت النظام والسلام بها][40].

ويبدو أن قتل ملك حماة لم يتم عقب المعركة في قرقرة، بل في آشور التي سيق اليها مكبلاً بالاصفاد، لأننا نقرأ في نص آخر: [لقد خربت بلاد «حماة» كعاصفة الطوفان، وسقت ملكها ياوبيدي وعائلته، وكل محاربيه إلى آشور مكبلين بالأصفاد فشكلت منهم فرقة مؤلفة من ٣٠٠ عربة و ٦٠٠ مقاتل مجهزين بالتروس والرماح، وضممتهم إلى فرقي الملكية. ثم اسكنت ٦٣٠٠ فرداً من الآشوريين في بلاد حماة، وجعلت عليها حاكماً من لدني][41].

أما عن كركميش فنقرأ: [في السنة الخامسة لحكمي، ملك كركميش المدعو «بيصيري» حنث بالعهد، والقسم أمام الآلهة العظام، وبعث برسالة

40- Ibid, P. 285

41- Ibid, P.284

إلى «ميتا» ملك «موشكي» مليئة بالمخططات العدوانية ضد آشور. فرفعت يدي إلى الهي آشور بالصلاة، وجعلته يستسلم عاجلاً مع عائلته، فخرجوا جميعاً من كركميش، ومعهم ذهبهم وفضتهم وممتلكاتهم الشخصية، تقدمة لي، فرميتهم بالأصفاد. أما أهل المدينة ممن ثاروا معه، فقد سقتهم أسرى إلى آشور. . . ثم احللت في كركميش سكاناً من آشور](٤٢).

سنحاريب:

تأتي حوليات الملك سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ق.م) على جانب كبير من التفصيل، يماثل حوليات شلمنصر الثالث. نقرأ في أخبار حملته الثالثة على بلاد الشام: [في حملتي الثالثة، توجهت إلى حاتي. «لولي» ملك صيدون، الذي أخذه الخوف من هيبة جلالتي فر بعيداً عبر البحار واختفى ذكره. أما مدنه فقد تملكها الهلع من عظمة آشور: «صيدون الكبرى» و«صيدون الصغرى» و«بيت زيتي» - Bet-Zitti و«زاريبتو» - Zaribtu، و«محاليبا» - Mahaliba، و«أوشو» و«أكزيب» - Akzib، و«عكا» - Akko، مدنه المحصنة المزودة بالماء والطعام لحاميته قد خضعت تحت قدمي. أقمت على عرش صيدون المدعو «توبعلو» وفرضت عليه جزية يؤديها لي، أنا سيده، كل سنة دون انقطاع](٤٣).

إن حملة سنحاريب الثالثة هذه موجهة بشكل خاص نحو الساحل الفينيقي وساحل فلسطين وبلاد فلسطين الداخلية. فبعد عبور سورية الشمالية يهبط نحو البحر الفينيقي لتكون مدينة صيدون أول هدف له، وكانت صيدون في ذلك الوقت تسيطر على عدد كبير من مدن فينيقيا. بعد سقوط المدينة يهرب ملكها عبر البحار، وتسقط بقية المدن الواقعة تحت سيطرتها على

42- Ibid, P, 285
43- Ibid, P. 287

الساحل، نعرف منها على وجه التأكيد «أوشو» التي هي مدينة صور البرية (انظر ص ٧١ سابقاً) و«زاريبتو» أو «ساريبتا» التي كشفت عنها التنقيبات حديثاً على الساحل اللبناني في منتصف الطريق بين صيدا وصور (انظر ص ٧٠ سابقاً)، و«عكا» التي تلي صور كأول ميناء على ساحل فلسطين. وطبعاً، لا يمكن أن تكون صيدون وجاراتها الواردة في جدول سنحاريب أعلاه، هي «آل زيدان» غرب العربية في مرتفعات جبل شهدان بأراضي جيزان الداخلية، لأن ملك صيدون يغادر مدينته بحراً. ونعرف من نص آخر لسنحاريب أن وجهة ملك صيدون كانت قبرص حيث نقرأ: [ولولي ملك صيدون خاف من مواجهتي وفر إلي «يدنانا» ـ la-ad-na-na في وسط البحر يطلب مخبأ، ولكن حتى هناك في تلك البلاد طالته أسلحتي وصرعته][44].

بعد ذلك يتابع سجل حملة سنحاريب الثالثة سرد أخبارها. فبعد سقوط صيدون ومدنها المحصنة: [كل ملوك آمورو جاءوا بهداياهم السخية أمامي وقبلوا قدمي: «مناحيم» ملك «شمسي مورونا» ـ Samsi-Muruna «توبعلو» ملك صيدون، «أبيليتي» ملك «أرواد»، «أورو ملكي» ملك «جبيل»، «ميتيني» ملك «أشدود»، «بوديولي» ملك «بيت عمون»، «كاموسون» ملك «موآب»، «ايرامو» ملك «ايدوم». أما «صدقيا» ملك «أشقلون» الذي لم يخضع لي، فقد قبضت عليه وجلوته إلى آشور مع زوجته وأولاده واخوته وكل ذكور عائلته، وأقمت بدلاً عنه «شارولوداري» وفرضت عليه الجزية والخنوع].

اضافة إلى ملوك الساحل الفينيقي، يأتي إلى سنحاريب ملوك دويلات الساحل الفلسطي ومنها «أشقلون» وهي عسقلان الحالية ويمكن الاطلاع على أخبارها في التوراة في يشوع ١٣ : ٣ وصموئيل الأول ٦ : ١٧ والقضاة ١٤ : ١٩ وغيرها من المواضع، وكذلك «أشدود» ويمكن الاطلاع

44- Ibid, P. 288

على بعض أخبارها في سفر يشوع ١٣ : ٣ وصموئيل الأول ٥ : ١ - ٢ و٣ - ٨ وقد كان للفلستيين على طول المنطقة الساحلية الفلسطينية خمس مدن رئيسية عرفنا أخبارها من أسفار التوراة ومن سجلات آشور وهي : غزة وأشدود وعسقلان وعقرون وجت. كما يأتي إلى سنحاريب ملوك من الجهة الأخرى للأردن ، من «بيت عمون» وهي موطن العمونيين ، و«موآب» موطن الموآبيين ، و «ايدوم» موطن الايدوميين . وهذه الشعوب الثلاثة مذكورة في السجلات الآشورية السابقة واللاحقة لسنحاريب ، وفي أسفار التوراة عبر الكتاب ، فهي من الأعداء التقليديين لمملكتي يهوذا واسرائيل .

ثم يتابع سنحاريب اخضاع مناطق الفلستيين متغلغلاً نحو فلسطين الداخلية : [تابعت حملتي فحاصرت «بست داجون» و«يافا» - Joppa و«بني برقة» - Banai-Barqa و «آزورو» - Azuru ، وهي مدن تابعة لصدقيا (ملك اشقلون) ، ففتحها وحملت الأسلاب منها . أما مدينة «عقرون» فقد قام مسؤولوها ووجهاؤها وعامتها بوضع مليكهم «بادي» في الأغلال لأنه كان على العهد الذي قطعه مع آشور ، وسلموه إلى «حزقيا اليهودي» - Ha-za-qi-ia-u la-u-da-ai الذي رماه في السجن وعامله معاملة الأعداء . ثم خاف (من فعلته) فدعا لمساعدته قوات ملكي مصر واثيوبيا التي لاتعد . فجاؤوا لمساعدته . وفي سهل «التقو» - Al-ta-qu-u انتظمت صفوفهم ضدي وشحذوا أسلحتهم .بعد استخارة نبوءة الاله آشور ، مولاي ، هاجمتهم وهزمتهم . وفي غمرة القتال قمت بنفسي بأسر فرسان العربات وأمرائهم من مصريين واثيوبيين . حاصرت مدينة «التقو» و «تمنه» - Ta-am-na-a وأخذتها ، وحملت معي أسلابها . ثم استبحت مدينة «عقرون» وقتلت مسؤوليها ووجهاءها الذين أجرموا ، وعلقت جثثهم على الأعمدة حول المدينة . أما عامتها ، فمن وجدت منهم مذنباً أخذته أسير حرب ومن وجدت بريئاً أطلقته . وأعدت ملكهم «بادي» من «أورشليم» - Ur-sa-li-im-mu وأقمته على العرش سيداً لهم ، وفرضت عليه الجزية يدفعها لي أنا مولاه] .

من المـدن التـابعـة لأشقلون الفلسطيـة الـواردة أعـلاه، نعـرف «بيت داجـون» الـواردة في التـوراة بالاسم نفسـه (راجـع سفـر يشـوع ١٥ : ٤١ و ١٩ : ٤٧)، كما نعـرف «يـافا» التي وردت في السجلات المصرية بالاسم نفسه كمـدينـة على السـاحـل الفلسطيني (انظـر الصفحة ٥٦ سابقاً)، و«بني برقة» الـواردة في التـوراة تحت اسم «بني برق» (راجـع يشـوع ١٩ : ٤٥) وهي «بني براق» اليوم على مسافة ٧ كم من يافا. أما «عقرون» مدينة الفلسطيين الشهيرة فمعـروفـة جيـداً في أسفـار التـوراة، وفيهـا جرت أحـداث مهمة (راجع سفر صمـوئيـل الأول ٥ : ١٠ - ١١ و٧ : ١٤ و١٧ : ٥٢. والملوك الثـاني ١ : ٢، وارميـا ٢٥ : ١٥ - ٢٠) والأرجـح أنها «عاقر» اليوم على مسافة ١٦ كم من يافا جنوباً. وفي أرض يهوذا التي توجه إليها سنحاريب للانتقام من «حزقيا» ملك اليهود الذي ارتقى العرش قبل حكم سنحاريب وعاصره، فنعرف «التقو» التي هي «التقى» التـوراتيـة (يشوع ١٩ : ٤٠، ٤٤. ٢١ : ٢٠، ٢٣) وأيضاً «تمنة» (راجـع يشـوع ١٥ : ١٠ والقضـاة ١٤ : ٢) والأرجـح أنهـا «تبنه» اليوم جنوب مدينة الخليل. وبالطبع «أورشليم» التي حبس فيها حزقيا ملك عقرون.

بعـد معـركـة سهـل «إلتقى» التي هزم فيهـا سنحـاريب حزقيـا ملك أورشليم وقـوات المعـونة التي جاءته من مصر، يتابع النص أخبار الحملة على مدن يهوذا وصولاً إلى أورشليم: [أما حزقيا اليهودي الذي أبى الخضوع لي، فقـد القيت الحصـار على ٤٦ من مدنـه الحصينـة وقـلاعـه المسورة، وعدد لا يحصى من القرى حولها وأخذتها، مستعملاً المدكات والمناجيق التي قربها المشاة إلى مقـدمـة الهجـوم فأحـدثـوا أنفـاقاً وثغرات*. سقت أمامي منهم الغنائم: ٢٠٠١٥٠ من الذكور ومن الاناث شيبة وشباناً، وأحصنة وبغالاً وحميراً وجمالاً،

---

* - أدوات الحصـار التي يوردهـا النص وطريقة استخدامها غامضة. وقد حذفت ما أضافه صاحب النص السيـد اوبنهـايم بين أقـواس ليستقيم له المعنى، لأنه بدون هذه الإضافات يغدو تركيب الجملة الأشورية أقرب إلى العربية.

ماشيـة كبـيرة وصغـيرة لا حصر لها. أما حزقيا نفسه، فقد صار حبيساً في مقره الملكي «أورشليم»، كعصفـور في قفص. فأحطتـه بالمتـاريس والخنادق لحجز الفـارين عنـد البوابـات. والمـدن التي أخـذتهـا منه أعطيتها لـ «ميتيني» ملك أشدود «وبادي» ملك عقرون و «سيليبيل» ملك غزة، فأنقصت بذلك مساحة أراضيـه، ورفعت فوق ذلـك عليـه الجزية التي تؤدى لي، أنا سيده، بما يفوق الجـزيـة السابقة، تسلم سنوياً. لقد غمره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي أتى بها إلى اورشليم لمعـاونتـه قد اختلت صفـوفها وتركته. فأرسل إلي في نينـوى عاصمـة ملكي ثلاثـين وزنـة من الـذهـب و ٨٠٠ وزنـة من الفضـة، وأحجـاراً كريمـة، وكميـات من الاثمـد وقطـع الصخـر الأحمر، ومقاعد وكراسي مزينة بالعـاج، وجلود الفيلة، وخشب الأبـانـوس، وصنـاديق خشبيـة، وكل أنواع النفائس. كما أرسل إلي بناته ومحظياته وموسيقييه من بنات وشبان].

وهكـذا تنتهي حملة سنحـاريب على مملكـة يهوذا، بعـد أن أخـذ جميع مدنها وقراها عدا أورشليم التي صمدت أمام الحصار، فتركها بعد أن مل من حصارها مكتفياً بالجزية التي فرضها على حزقيا وبالهدايا التي وعد بارسالها إلى نينـوى. غير أن الـروايـة التـوراتية تعزو تراجع سنحاريب إلى تدخل من إله اليهـود الـذي أرسـل على الآشـوريـين وبـاءً صرع منهم عشـرات الألـوف. وتتطـابق الرواية في خطوطها العامة مع الرواية الآشورية: [وفي السنة الرابعة عشـــر للملك حزقيـا، صعـد سنحـاريب ملك آشـور على جميـع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور يقول قد أخطأت. ارجـع عني ومهـما جعلت علي حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهودا ٣٠٠ وزنـة من الفضـة وثـلاثـين وزنة من الذهـب] الملوك الثاني: ١٨ : ١٢ - ١٥. كما نعــرف عن استعــانـــة حزقيـا بالقـوات المصـريـة من كلام رسـول سنحاريب عند أسوار أورشليم الذي يهزأ بمصر وفرعونها والذي أرسل نجداته إلى حزقيـا: [فقـال لهم «ربشـاقي» قولـوا لحزقيـا، هكذا يقول الملك العظيم ملك آشـــور... والآن على من اتـكـلـت حتى عصيت علي. فالآن هوذا، قد

اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التي إذا توكأ عليها أحد دخلت في كفه وثقبتها هكذا هو فرعون مصر لجميع المتكلين عليه] الملوك الثاني ١٨ : ١٩ - ٢١ .

أسر حادون :

بعد فترة الاضطرابات والصراع على العرش، مما تلى مقتل سنحاريب على يد أحد أبنائه، صعد إلى العرش «أسر حادون» إبن سنحاريب (٦٨٠ - ٦٦٩ق. م)، وعمل فوراً على اخماد الثورات التي اندلعت في بلاد الشام. نقرأ في نص حملته على فينيقيا ما يلي: [أنا اسرحادون فاتح صيدون التي عند البحر. لقد سويت بالتراب أبنيتها المشيدة ورميت بأنقاض سورها وأساساتها إلى البحر، ومحوت المكان الذي قامت عليه. أما ملكها «عبدي ملكوتي» فقد أمسكت به كالسمكة عندما هرب إلى عرض البحر أمام هجومي وقطعت رأسه. ثم حملت معي الكثير من ممتلكاته المكدسة: ذهباً وفضة وعاجاً وأبانوساً وجلود فيلة... وسقت حشوداً من شعبه أمامي إلى نينوى، وسقت المواشي كبيرها وصغيرها والحمير. ثم دعوت كل ملوك «حاتي» وبلاد شاطىء البحر، وجعلتهم على أعمال السخرة من أجل بناء مقر جديد لي (مدينة) أسميتها «كار أسرحادون»، أحللت بها سكاناً من المناطق الجبلية ومن شاطىء البحر][٤٥].

وهكذا، فنحن مرة أخرى مع الجيش الآشوري في «حاتي» (سورية) وعلى الشاطىء الكنعاني، وليس في غرب العربية. وهاهو يأتي بملوك دويلات بلاد الشام ليسخرهم كالعبيد في بناء قصر له:

[دعوت إلي ملوك بلاد «حاتي» على الجهة الأخرى للنهر: «بعلو» ملك

45- Ibid, P. 290

«صور و«منسي» - Me-na-si-i ملك «يهوذا» - Ia-u-di و«قوش غابري» ملك «إيدوم» و«موصوري» ملك «موآب» و«سلبيل» ملك «غزة» و«ميتيني» ملك «أشقلون» و«إيكوسنو» ملك «عقرون» و«ملكي آشابا» ملك «جبيل» و«ميتان بعل» ملك «أرواد» و«آبي بعل» ملك «شامسي موررونا» و«بودويل» ملك «بيت عمون» و«آهي مكي» ملك «أشدود». . . كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينوى مقر حكمي، وجعلتهم ينقلون اليها تحت أقسى الظروف مواد بناء لقصري: جذوعاً ودعائم وألواحاً من خشب الأرز والصنوبر، مما تفيض به جبال «لبنان» و«سرارا» (و. . تعداد لمواد أخرى)][46]. وبذلك نال ملوك دويلات الطوائف في بلاد الشام أقسى جزاء لهم ولشعوبهم التي لم تعرف قط الدولة المركزية الواحدة. و«منسي» ملك يهوذا الوارد في النص أعلاه هو ابن الملك حزقيا الذي حاصره سنحاريب في اورشليم. وقد أوردت الرواية التوراتية خبر نفيه من قبل ملك آشور في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٣ : ٩ - ١٢ حيث نقرأ: [. . ولكن منسي أضل يهوذا وسكان أورشليم ليعملوا أشر من الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني اسرائيل، وكلم الرب منسي وشعبه فلم يصغوا، فجلب عليهم رؤساء الجند الذين لملك آشور، فأخذوا منسي بحزامة وقيدوه بسلاسل من نحاس وذهبوا به إلى بابل].

ولدينا من عصر أسرحادون عدة نصوص تتعلق بمعاهدات أبرمها مع بعض ملوك الدويلات التابعة، أهمها معاهدته مع ملك صور الفينيقية ولعلنا، عند هذه المرحلة من بحثنا، لن نضيف جديداً إذا قلنا أن نص المعاهدة هذه، شأنه في ذلك شأن بقية النصوص الآشورية، لا ينطبق من قريب أو بعيد على مواقع كمال الصليبي في غرب العربية، وأن «صور» الوارده فيه ليست «زور الوادعة» في منطقة نجران المجاورة للصحراء العربية الداخلية، بل هي صور الكنعانية الواقعة على البحر المتوسط. ونظراً لتعدد بنود المعاهدة وتشوه كثير

46- Ibid, P. 291

من سطورها، فاننا سنكتفي بإيراد ما يلي منها:

هذه معاهدة «اسرحادون» ملك آشور، الابن الأكبر لـ . . . .، مع «بعل» ملك «صور» . . . (كسر في اللوح . .

٦ - إذا تحطمت سفينة تخص «بعل» أو أحد أهالي «صور» على شاطيء بلاد الفلستيين، أو في أي مكان على حدود المناطق الآشورية، فان كل ما فيها يغدو ملكاً لأسر حادون ملك آشور، لا يمس احد بأذى أياً من ملاحيها، بل يتوجب عليهم إرسال قائمة باسمائهم إلى ملك آشور.

١٨ - هذه هي موانيء التجارة، وطرق التجارة التي يمنحها اسرحادون ملك آشور لخادمه بعل: في اتجاه «عكا» و «دور» عبر كل أراضي الفلستيين. في جميع مدن المناطق الآشورية على ساحل البحر وفي «جبيل» عبر «لبنان»، وكل المدن الجبلية (بقية الفقرة مليئة بالثغرات الناجمة عن تشوه اللوح)[٤٧].

وفي عهد أسرحادون، قامت آشور لأول مرة باخضاع مصر، واجتاحت الجيوش الآشورية كامل الأراضي المصرية وما يليها من بلاد النوبة، وعينت حكاماً محليين في المدن والأقاليم تابعين مباشرة للملك الآشوري. ولقد كتبت آشور بذلك السطور الأولى في قصة نهايتها، وأمضت ما تبقى لها من وقت قصير في محاولات مستحيلة للسيطرة على رقعة واسعة من أراضي الشعوب المغلوبة، لم يقيض لها ضبطها وتنظيمها ضمن امبراطورية شائخة تسير نحو نهايتها المحتومة.

آشور بانيبال ونهاية الامبراطورية الآشورية:

ورث آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٣٣ق . م) عن أبيه سنحاريب عالماً يموج

47- E. Reiner, Akkadian Treaties (in:James pritchard's Ancient Near Eastern Text op. cit) P 533-534

بالفتن والثـورات . فقـد اضطـر لاخضـاع مصر كرة أخرى بعد أن عم التمرد جميـع أرجـائهـا ، وعـاد إليهـا أكثر من مرة بسبب نكوص الأمراء المحليين عن عهودهم معه . وفي اثناء ذلك ، كان يؤدب في طريقه المتمردين من ملوك بلاد الشام . نقرأ في اخبار حملته الثالثة :

[في حملتي الثـالثـة ، وجهت قواتي ضد «بعـلي» ملك صور الذي يعيش على جزيـرة في البحـر ، لأنـه لم يعبأ بأوامري . أحطته بالمتاريس وقطعت عليه الطـرق في الـبر والبحـر ، فأنضبت مواردهم الغذائية وأجبرته على الخضوع . جلب إلي ابنتـه وبنـات اخـوته ليؤدين الخدمة الوضيعة لي ، كما جلب إلي ابنه الـذي لم يركب البحـر بعـد ليكـون لي عبـداً . فتلقيت منـه ابنته وبنات اخوته ورددت اليـه ابنـه شفقة عليه . (وعندها) «ياكينلو» ملك «أرواد» الذي يعيش أيضـاً في جزيـرة والـذي تمرد على ملوك اسرتي ، خضع إلي ، وأرسل ابنته إلى نينوى ومعها دوطة ثمينة لتؤدي الخدمات الوضيعة في قصري ، وقبل قدمي][٤٨] .

نبوخذ نصر والدولة البابلية الجديدة :

بعد آشور بانيبال ، بدأت بالتوضح عوامل انحلال المجتمع العسكري الآشـوري التي كانت تعمـل في الخفـاء خلال أكثـر من قرن . ذلـك أن المظهر الـبراق للقـوة التي لا تهزم يخفي وراءه عمليـة انتحـار بطيء تقـدم عليـه المجتمعـات العسكـرية وهي منساقة وراء نشوة انتصاراتها المتواصلة . ولم يكن اجهـاز الكلدانيـين الـذين اقـاموا الدولة البابلية الجديدة . على آشور ، سوى ضربـة أخـيرة إلى جثـة داخـل درع سميـك ، على حد تعبـير المؤرخ ارنولد توينبي ، المصيب . فبعـد وفـاة آشـور بانيبـال ، وقعت بابل تحت سلطان «نابو

48- Leo Oppenheim, op. cit, P. 295-296

بولاصر» الكلداني الذي رد عن بابل آخر عدوان آشوري عام ٦١٥ق.م. وفي تلك الأثناء كان حلفاؤ ه الميديون قد توجهوا لنصرته من ايران فدمروا مدينة آشور عام ٦١٤ق.م ثم تعاون الحلفاء معاً فزحفوا إلى نينوى ودمروها وتقاسموا ممتلكاتها.

نبوخذ نصر ودمار أورشليم:

حافظ «نبوخذ نصر» الملك الثاني للمملكة البابلية الجديدة على المقاطعات التي ورثها أبوه نابوبولاصر من الآشوريين غربي الفرات، واصطدم مع «نخو الثاني» فرعون المصر الموالي للآشوريين عند الفرات، والحق به هزيمة ساحقة عام ٦٠٥ق.م وطارد المصريين إلى حدودهم دون أن يفكر باجتياح مصر نفسها، فقضى بذلك على آمال المصريين في الحصول على جزء من تركة آشور.

لم تترك لنا الدولة البابلية الجديدة سجلات تفصيلية عن حملاتها في بلاد الشام. ولعل سجل حملة نبوخذ نصر على اورشليم ومملكة يهوذا مثال على ذلك:

[في السنة السابعة، الشهر.. قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي، فحاصر مدينة «يهوذا» Ia-a-hu-du وفتحها في شهر آذار وأقام عليها ملكاً جديداً اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل](49). وكانت هذه الحملة التي تمت عام ٥٨٧ق.م النهاية الأخيرة لمملكة يهوذا. فاضافة إلى مدينة اورشليم نفسها، فقد تتبعت التنقيبات الأركيولوجية الخراب الذي حل ببقية مدن يهوذا التي تهدمت في أوائل القرن السادس قبل الميلاد وانقطع فيها الاستيطان

49- Ibid, P. 564

البشري قرابة قرن من الزمان(٥٠).

ويبـدو من أخبـار التـوراة أن نبـوخـذ نصـر قد اجتـاح مملكة يهوذا على مرحلتـين تفصـل بينهـما قرابة عشر سنوات في حملته الأولى اكتفى بتغيير الملك وقبض الجـزيـة وسبي الكثير ين من أهلها، وفي حملته الثانية قام بتدمير المدينة وسبي كل أهلها عدا أفقر النـاس والمشـردين ممن لا نفـع فيهم نقرأ عن حملته الأولى في سفر الملوك الثاني ٢٤ :

[كان «يهوياكين» ابن ثماني عشرة سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر في أورشليم . . وعمـل الشـر في عيني الـرب حسب كل ما عمـل أبـوه . في ذلـك الـزمـان صعـد نبـوخـذ ناصـر ملك بابل إلى أورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصـار، وجـاء نبـوخـذ ناصر ملك بابل على لمدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخـرج يهويـاكـين ملك يهوذا إلى ملك بابـل هو وأمـه وعبيـده ورؤ سـاؤ ه وخصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثانية من ملكه . وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك اسـرائيـل في هيكـل الـرب كما تكلم الـرب . وسبى كل أورشليم وكـل الـرؤ سـاء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان . لم يبق أحـد إلا مسـاكـين شعب الأرض، وسبى يهويـاكـين إلى بابـل . . وملَّك ملكُ بابل «متنيا» عمه عوضاً عنه وغير اسمه إلى «صدقيا»] .

ولكن صدقيـا ما لبث أن تمرد على بابـل، وفي السنة التاسعة لحكمـه : [جاء نبوخذ ناصر ملك بابل، هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا أبـراجـاً حولهـا، ودخلت المـدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيـا في تاسـع الشهـر اشتـد الجوع في المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض،

50- Katheen Kenyon, Digging Up Jerusalem, E. benn LTD, London 1974, PP. 166-172

فثُغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك. وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فذهبوا في طريق البرية، فتتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى «ربلة» وكلموه بالقضاء عليه. وقتلوا بني صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل... (ثم) جاء «نبوزرادان» رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى اورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار اورشليم هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوز رادان رئيس الشرط. ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين... فسُبي يهوذا من أرضه]. سفر الملوك الثاني: ٢٥.

وهكذا انتهت مملكة يهوذا بعد أن عاشت قرابة قرن وربع بعد دمار مملكة اسرائيل.

غير أن المملكة البابلية الجديدة لم تعمر طويلاً. وقبل انقضاء القرن السادس قبل الميلاد كانت خارطة توزع القوى في الشرق القديم قد تبدلت بسبب ظهور قوة جديدة لم يحسب لها حساب هي قوة الفرس اقرباء الميديين الذين ساهموا في تحطيم آشور. ففي سنة ٥٤٧ق.م أكمل «قورش الثاني» ضم كامل بلاد ايران إلى مملكته، وفي سنة ٥٣٩ق.م انتصر على الامبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية) وضمنها إلى ملكه بما في ذلك البلاد الواقعة الى الغرب من نهر الفرات. ثم استعاد ابنه «قمبيز» من بعده كامل تركة آشور وذلك باحتلال مصر. وفي عهد «داريوس الأول» خليفة قمبيز بدأت حركة المد والجزر بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية المتمثلة باليونان الفتية، حيث شن حملة بحرية غير حاسمة على بلاد اليونان. وعندما توفي، كانت الامبراطورية الشرقية تمتد من وادي نهر السند شرقاً إلى حدود اليونان

غرباً، ومن سفوح جبال القوقاز شمالاً إلى شمالي الشلال الأول على نهر النيل في أعماق افريقيا.

نتائج وتساؤلات:

لقد اثبتت دراستنا العلمية للسجلات الآشورية، بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه السجلات معنية بمناطق بلاد الشام حصراً، ولا علاقة لها من قريب أوبعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية، وأن ممالك دمشق وحماة الآرامية، وصيدون وجبيل وصور وارواد الفينيقية، والسامرة واورشليم الكنعانية، الوارد ذكرها في التوراة وفي سجلات آشور هي ممالك بلاد الشام وليست ممالك عسير وغرب العربية.

ولقد كان للآشوريين غزوات موجهة نحو جزيرة العرب كما هو واضح من سجلاتهم. ولكن أخبار حملاتهم تلك توضح وبصريح العبارة أنها كانت موجهة ضد القبائل التي أطلقوا عليها اسم «أريبو» Aribu أي العرب. ولا نستطيع ، في كل سجلات بابل وآشور، أن نجد تلميحاً واحداً إلى حملة موجهة ضد «يهوذا» و«اسرائيل» قائمتين في غرب العربية. فإذا كان لمثل هاتين المملكتين وجود هناك، لتوجب أن تكون الحملة عليهما استمراراً لحملة ما على بلاد العرب، مما لا نستشفه تلميحاً أو تصريحاً في تلك السجلات.

ولقد ورد أول ذكر للعرب في سجلات شلمنصر الثالث، عندما شارك «جنديبو» العربي متحالفي «قرقرة» تصديهم للآشوريين، مما فصلناه في الحديث عن معركة قرقرة، ويبدو أن القبائل العربية المتجولة بين بادية الشام وشمال العربية والمتحكمة بطرق التجارة البرية مع بلاد الشام، قد هبت في ذلك الوقت بزعامة جنديبو للدفاع عن مصالحها التي ضربها التوسع الآشوري، ووجدت في حلف قرقرة سبيلها إلى ذلك. ومنذ ذلك الوقت تتواتر أخبار العرب وبلادهم في السجلات الآشورية. ففي نص لتغلاب فلاصر الثالث

أوردناه سابقا (انظر الصفحة ١٠٤) هناك ذكر لملكة عربية اسمها «زبيبة» قدمت له الجزية. وقد تكون هذه الملكة هي الأصل التاريخي للروايات العربية المتواترة عن ملكة اسمها «الزباء»*. وفي نص آخر لتغلات فلاصر الثالث يقوم بالالتفات إلى بلاد العرب بعد انتهاء حملة له في بلاد الشام أخضع فيها عدداً من الممالك بينها «سميرا» و «عرقا» و«غزة» و «أرض عمري»:

[أما «شمسة» ملكة العرب، فقد قتلت من أتباعها ١١٠٠ رجل وأخذت ٣٠,٠٠٠ جمل، و٢٠,٠٠٠ رأس ماشية و٥٠٠٠ صندوق من التوابل و١١ طاسة مكرسة لآلهتها. أما هي فقد هربت بحياتها إلى مدينة «بازو» في إقليم العطش كحمار وحش برية. وأهل معسكرها لما أضناهم الجوع قد... ولكنها عادت بعد أن ادركت مدى جبروتي وقوتي، وجلبت إلي جمالاً ذكوراً وإناثاً... أما أهل «مسعاي» و «تيما» ـ Tema و «حطيا ـ Hattia»، وأهل «ايدي بعل» ـ Idiba'leans، و«السبئيون» وأهل «حيابا» Haipaa و «بادانا» ـ Badana من أقاليم الغرب التي لم يسمع بها أو يعرف بلادها أحد، فقد سمعوا أخبار سلطتي وخضعوا لحكمي، وجلبوا إلي جميعاً الجزية..][51].

من هذا النص ومن اشباهه، نستطيع التوكيد على أن الحملات الآشورية كانت موجهة ضد القبائل العربية المقيمة أو المتجولة بين بادية الشام والمناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وبين ضفاف الفرات الأدنى وصحراء النقب، وأنها لم تتوغل كثيراً إلى أعماق بلاد العرب. وعلى سبيل المثال نقرأ في سجل حملة نبوخذ نصر على بلاد العرب ما يلي: [في السنة السادسة عشر، شهر.. قاد ملك أكاد جيشه إلى بلاد حاتي، ومن هناك وجه قواته فأغارت على الصحراء. أخذ جزية كبيرة من بلاد العرب، وأخذ قطعانهم وتماثيل آلهتهم بأعداد كبيرة. وفي شهر آذار عاد الملك إلى بلاده][52].

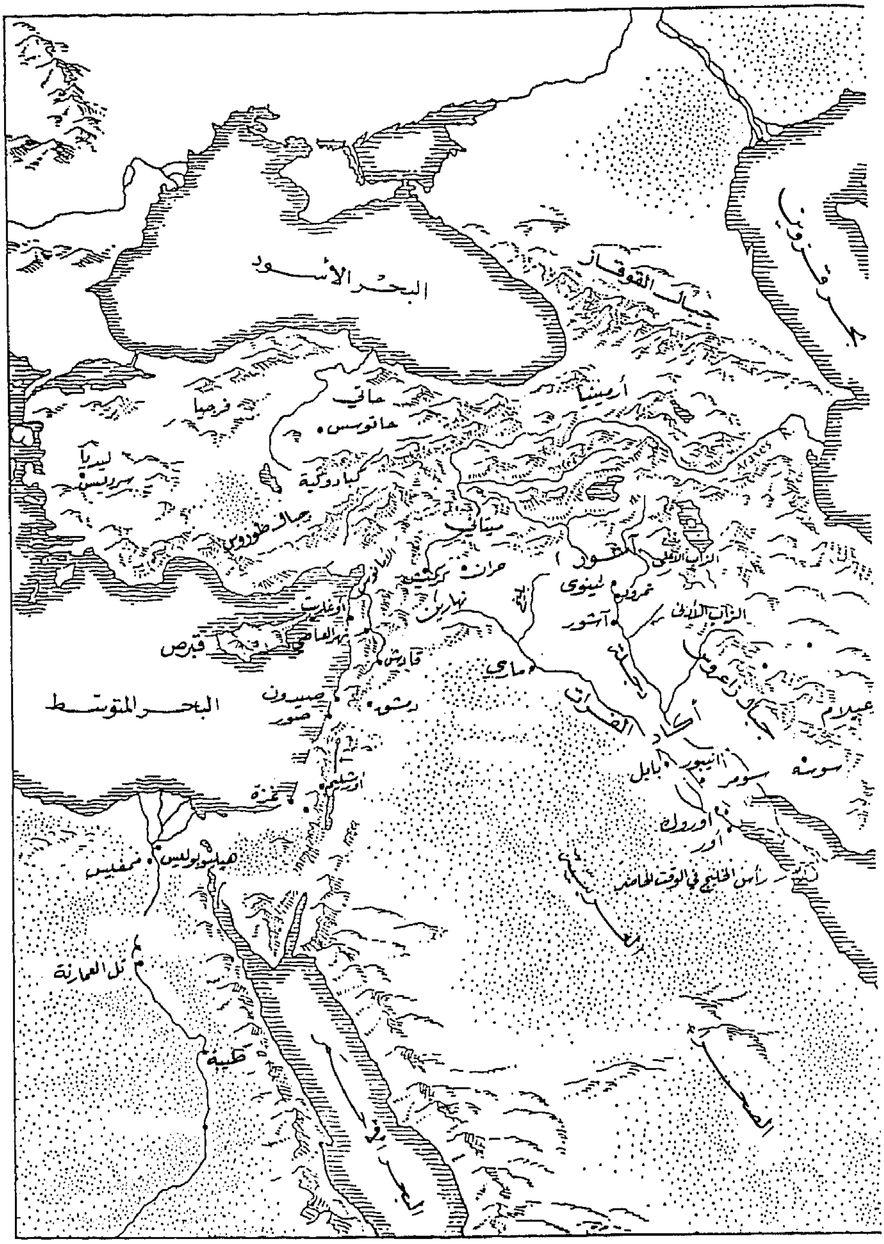
* ـ والروايات العربية لا تربط بتاتاً بين الزباء ومملكة تدمر في بلاد الشام.

51- Leo Oppenheim, op. cit, P. 284

52- Ibid, P. 564

لقد حمل الآشوريون على بلاد العرب، وأخبار حملاتهم تلك متوفرة لدينا في حوليات الملوك وفي رسوم نابضة تمثل الأسرى من العرب وقد سيقوا إلى آشور مع جمالهم بثيابهم المميزة. أما القول بأن الحوليات الآشورية انها تؤرخ لحملات في غرب شبه الجزيرة العربية، فباطل في رأينا بطلاناً مطلقاً.

وأخيراً، هناك مشكلة تاريخية كبيرة تنتظر من كمال الصليبي ومن يبشر بنظريته، حلاً لها، وهي ليست أبداً بالمشكلة السهلة. فاذا كانت كل السجلات التاريخية المصرية والآشورية معنية بغرب العربية وأنها قد فهمت خطأ على انها معنية ببلاد الشام، فأين إذن السجلات المتعلقة ببلاد الشام التي شكلت في الألف الثاني قبل الميلاد مسرح تنازع بين مصر والحثيين، وكانت خلال الألف الأول قبل الميلاد معبراً لبابل وآشور نحو مصر والجزيرة العربية؟ ألم تقم مملكة آشور، التي بنت امبراطورية واسعة مترامية الأرجاء مؤسسة على الحرب، بأية حملة على بلاد الشام؟ إذا كان الجواب نعم، فأين سجلات تلك الحملات الآشورية؟ لقد قام ملوك آشور بتسجيل أخبار حملاتهم بدرجة لا بأس بها من الدقة والتفصيل، فكيف تسنى لهم أن يغفلوا تدوين أخبار حملاتهم في بلاد الشام وهي المجال الحيوي الحقيقي لبلاد الرافدين؟ لقد كان على كل حملة آشورية أن تجتاز بلاد الشام وتصطدم بالممالك الآرامية والكنعانية القائمة آنذاك، قبل وصولها إلى غرب العربية، فلماذا اختار الآشوريون تسجيل أخبار حملاتهم في مراحلها الأخيرة عند غرب العربية؟ كيف تم اخضاع مصر منذ عهد اسرحادون دون المرور بسورية؟ ومصر الفرعونية، هل كانت تتنازع مع حثيي الاناضول على مناطق عسير وتترك لهم الحبل على غاربه في المقاطعات السورية، قبل ظهور القوة الآشورية على المسرح الدولي؟ وأخيراً كيف اتفقت السجلات المصرية والآشورية والبابلية على الصمت المطبق عن علاقات مصر وبلاد الرافدين مع الحضارة الثالثة الواقعة بينهما؟



خارطة الشرق الأدنى

الباب الثاني

البينة الآثارية

أركيولوجيا فلسطين »

مثلما يعتقد الصليبي أن سجلات مصر والعراق القديمة قد قرئت على ضوء النصوص التوراتية، وأخذت تلميحاتها الطبوغرافية على أنها تتعلق بفلسطين ومصر والعراق، كذلك يعتقد أن نتائج التنقيبات في فلسطين خلال المائة سنة الأخيرة، قد أجبرت على التلاؤم مع المفهوم التقليدي الذي يأخذ فلسطين، كأمر مسلم به، على أنها بؤرة الحدث التوراتي. ولعله من المستحسن هنا أن نورد المقطع الذي بسط فيه السيد كمال الصليبي فرضيته تلك مستخدمين كلماته ذاتها:

[ان استعراض الدراسات والأبحاث الضخمة التي انتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال السنوات المئة الأخيرة، يلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة. ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فان جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات. والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، دون أن يعثر في أي مكان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي. وأكثر من ذلك فان التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأمكنة، وليس بين هذه الأسماء أكثر من قلة قليلة تماثلت لغوياً مع أسماء أمكنة في فلسطين ... وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فان

الاحـداثيـات المعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في اطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النسبية، لا تنطبق على المواقع الفلسطينية] (ص ٥٠ - ٥١).

هذا المقطع المقتضب، هو المقدمة النظرية الوحيدة التي بسط من خلالها كمال الصليبي المشكلة الأركيـولـوجيـة للتـوراة. وهورغم الطروحات الخطيرة التي يتقـدم بها هنـا، والتي تقـوض عمل أجيال من علماء الآثار خلال أكثر من قرن، فانـه لا يعمـد إلى تدعيم فرضيتـه وفق منهج علم الآثار، إلا من خلال مثالين بسيطين. الأول يتعلق بمدينة «بئر السبع» والثاني بمدينة «جرار»، تاركاً بقية الركام الأركيولوجي إلى منهجه في مقارنة أسماء الأماكن، وهو أبعد المناهج قدرة على التعامل مع أبسط المسائل الآثارية.

هنـاك أمـر يجب الإشـارة اليـه قبـل استعراض بيناتنا الآثارية، وهو أمر نتفق فيـه مع كمال الصليبي، ذلـك أن معظم المـواقع الأثرية التي كشفت عنها التنقيبـات في فلسطـين، وجـرت مطـابقتهـا مع مواقع معروفة سواء في النص التـوراتي أم في سجـلات الشـرق القـديم، لم يعثر بين أنقاضها المدفونة على نصـوص مكتـوبـة، وبـالتـالي لم يكن أمـام المنقبين ما يثبت هوية المدينة سوى احـداثيـاتهـا وحصيلتهـا الأثـريـة. وقـد استنفـد العلماء في هذا المجال، كل الامكـانيـات المتاحة لعلم الآثار بطرائقه ومناهجه وتقنياته الحديثة، التي وصلت درجـة عاليـة خلال الفـترة التي تلت الحـرب العـالمية الثانية. لذلك فان قول الصليبي بأنـه في الحـالات القليلة التي تماثلت فيهـا أسـماء المـواقـع التـوراتية المكتشفـة مع أسـماء مواقـع توراتيـة فقـد اختلفت احداثياتها مع الاحداثيات المعطاة في التوراة، هو قول مخالف للحقيقة ويحمل الكثير من التجني على علم بكـامله، كما أنـه قول غير مدعم بالأمثلة والاثباتات. فالصليبي لم يأت بحالة واحدة تحمل تناقضاً بين احداثيات الموقع المكتشف واحداثياته التوراتية.

أما قوله بأن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى (ويقصد بلاد الشام) قد مسحت من قبـل أجيـال متـواليـة من علماء الآثار، دون العثور على أثر واحد

يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي، ففيه الكثير من المبالغة والتغاضي عن حقائق تاريخية وآثارية ثابتة. وإلا كيف يفسر الصليبي العثور على نصب تذكاري محفوظ الآن في متحف حلب تركه «بن حدد الأول» وفيه يقول: [هذا النصب أقامه بن حدد بن ط... ملك آرام لسيده ملقارت الذي نذر له فاستجاب][1]، علماً أن بن حدد هذا معروف في أسفار التوراة بحروبه الكثيرة مع مملكة اسرائيل.نقرأ على سبيل المثال ما ورد في سفر الملوك الأول ١٥ : ١٨ [وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده وأرسلهم آسا إلى بنهدد بن طبر يمون بن حزيون ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً ... تعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عني. فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن اسرائيل]. وكيف يفسر نقش زاكير ملك حماة الذي ذُكر فيه «بن حدد الثالث» ملك دمشق وأبيه حزائيل (انظر الصفحة ١٠٠ سابقاً) وكلاهما معروف في التوراة كملكين لآرام دمشق معاصرين ليهو آخاز وابنه يهوآش من ملوك السامرة؟

نحن مع كمال الصليبي في نقد علم الآثار التوراتي، ولنا الكثير من التحفظات على العديد من التفسيرات التي بناها التوراتيون على الحقائق الأركيولوجية. إلا أن ذلك لا يعني أن نرفض نتائج علم الآثار في فلسطين جملة وتفصيلاً، فالحقائق العلمية شيء والتفسيرات غير العلمية شيء آخر، يضاف إلى ذلك أن من عملوا في حقل الآثار في فلسطين ليسوا جميعاً من المدرسة التوراتية، فهناك الكثيرون ممن قدموا مساهمات جلى في حقل أركيولوجيا فلسطين بعيداً عن التوجهات التوراتية المسبقة.

1- Franze Rosenthal, Canaanite And Aramic Inscription, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texst, Op. Cit) P. 655.

انظر أيضاً علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ١٣٣.

انطلاقاً من هذا الموقع الحذر، الذي يعرف صاحبه كيف يبحث عن المعلومة الموضوعية الصحيحة وأين، سنعرض فيما يلي إلى نقد النتائج القليلة التي توصل اليها الصليبي في مجال علم الآثار، ونزيد على ذلك بتقديم بياناتنا الآثارية التي تظهر الجانب الآخر للمسألة.

٣ ـ بئر السبع والبحث عن جرار

لقد اختار كمال الصليبي، كما ألمحنا سابقاً، لدعم وجهة نظره في علم آثار فلسطين موقعين ثانويين جداً، سواء من منظور الحدث التوراتي، أم من منظور علم الآثار، الأول «بئر السبع» والثاني» جرار» .

فيما يتعلق ببئر السبع يقول الصليبي : [. . . وفي حالة بارزة هي حالة بئر السبع الفلسطينية، فان بلدة يظهر اسمها ببر وز في الروايات الآبائية لسفر التكوين، وبالتالي يفترض أن تعود أصولها إلى أواخر العصر البرونزي على الأقل، لم يعثر فيها إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حد. وقد اضطر علماء الآثار في السنين الأخيرة إلى التنقيب على بعد خمسة كيلومترات تقريباً عن بئر السبع للعثور على مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يعثروا على أي برهان قاطع بأن لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بني اسرائيل] (ص ٥١).

وفي الحقيقة، فان بئر السبع لم يكن أبداً من المواقع التوراتية البارزة، ولم يرتبط بأي حدث توراتي هام. ففي عصر الآباء، لم يكن الموقع سوى بئر حفرها ابراهيم، ثم جدد اسحاق حفرها بعد أن ردمت (راجع سفر التكوين ٢١ : ١٤ ـ ٣١، ٢٦ : ١٨ ـ ٣٥). وقد مر بالموقع بعد ذلك يعقوب في طريقه إلى مصر (التكوين ٤٦ : ١ ـ ٥). وفي سفر يشوع الذي يصف الاستيلاء

على أرض كنعان، يأتي ذكر الموقع عرضاً في جملة ما أعطي لسبط يهوذا (يشوع ١٥ : ٢٨). وفي سفر القضاة وصموئيل الأول والثاني، يذكر الموقع باعتباره الحد الجنوبي لأرض الاسرائيليين، دون أي تفصيلات أخرى حوله (القضاة ٢٠ : ١، صموئيل الأول ٣ : ٣٠، صموئيل الثاني ٣ : ١٠). وكذلك الأمر في بقية الأسفار التي تذكر الموقع دون أن تربطه بأي حدث ذي قيمة (راجع الملوك الأول ٤ : ٣٥ و١٩ : ٣. الملوك الثاني ١٢ : ١٠ و٢٣ : ٨. اخبار الأيام الأول ٤ : ٢٨ و٢١ : ٢ أخبار الأيام الثاني ١٩ : ٤ و٢٤ : ١ نحميا ١١ : ٢٧ و ٣٠). فالمكان لم يكن أكثر من تجمع سكني بسيط حول بئر قديمة تقف عندها القوافل في طريقها إلى مصر. ثم تحولت إلى مدينة صغيرة مع تكون المملكة الموحدة ابان القرن العاشر.

أما عن قول الصليبي [بأن المنقبين لم يعثروا في الموقع إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حد، مما اضطرهم إلى التنقيب على بعد خمسة كيلومترات من الموقع للعثور على مواد ترجع في تاريخها إلى زمن التوراة]، فان ما يعرفه أي مطلع على علم الآثار، هو أن المواقع القديمة كثيراً ما تغير مكانها بمرور الأيام نتيجة هجرانها واعادة بنائها بعد فترة انقطاع قد تدوم بضعة عقود أو بضعة قرون، أو نتيجة لعوامل أخرى متعددة. وموقع بئر السبع في صحراء النقب ليس الوحيد الذي غير موضعه على مر الأزمان. فموقع «جرابلس» اليوم، الذي كان يعرف باسم «جيرابيس» في الفترات السابقة(*) قد انزلق مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات عن الموقع الأصلي لمدينة «كركميش» القديمة على الفرات في أقصى الشمال السوري. و«تل بلاطة الذي عثر تحته على مدينة «شكيم» الكنعانية في فلسطين، يقع على بعد ثلاثة كيلو

---

* ـ عرفت جرابلس في الفترتين الهلنسنية والرومانية باسم «أوروبُس» Europos ودعتها النصوص السريانية «آجروبُس»، ثم نجدها في بعض النصوص العربية باسم «جيرابيس».

مترات من مدينة «نابلس» الحديثة. ومدينة «أورشليم» الكنعانية اليبوسية البالغة القدم، لم يعثر عليها المنقبون إلا بعد أن تحولوا عن الموقع الحديث لمدينة القدس، وبدأوا بالتنقيب خارج الأسوار نحو المنطقة الجنوبية. فأي ضير في أن يبعد موقع بئر السبع القديمة مسافة خمسة كيلومترات عن موقع بئر السبع الرومانية وعن موقعها القائم اليوم؟

وأما عن قوله بأن التنقيب على بعد خمسة كيلومترات عن بئر السبع قد أظهر مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يكون لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بين اسرائيل، فاننا نريد أن نوضح أمراً على غاية من الأهمية فيما يتعلق بتاريخ وآثار منطقة فلسطين. ذلك أنه سواء في بئر السبع أو غيرها من المواقع القديمة في فلسطين، لا يمكن التمييز بين ماهو اسرائيلي وما هو كنعاني إلا اعتماداً على تأريخ المادة المكتشفة. ذلك ان الاسرائيليين القدماء خلال فترة حكمهم السياسي القصير في السامرة وأورشليم لم يتركوا بصمة مميزة على أي منحى من مناحي حضارة كنعان التي تضرب في جذورها إلى مطالع التاريخ، بل أنهم تشربوا تلك الحضارة وعاشوا كفئة كنعانية طورت تدريجياً مذهباً دينياً خاصاً انطلاقاً من الديانة الكنعانية ذاتها، فتبنوا الإله «إيل» رئيس مجمع آلهة كنعان وقرنوه بالاله «يهوه» فرفعوه الهاً واحداً لهم، ودفعوا بالاله «بعل» اله الخصب الكنعاني القديم إلى مرتبة الشياطين، فصار «ابليس» الديانة اليهودية التي لم تأخذ ملامحها الثابتة في التوضح إلا بعد تحرير أسفار التوراة بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ بناء هيكل الرب في اورشليم كانت الالهة «عشيرة» زوجة «إيل» تعبد في الهيكل وكان تمثالها المصنوع من جذع شجرة تدعى «السارية» منصوباً في قدس أقداس المعبد*.

---

* ـ وأغلب الظن أن من قدم تمثال عشيرة إلى المعبد كان الملك رحبعام ابن سليمان حوالي عام ٩٣٨ق.م، لأننا نعرف من أخبار «آسا» الذي قام باصلاحه الديني بعد ذلك بحوالي ←

وفي الـواقـع، فان المـادة الأثرية التي عثر عليها في بئر السبع تتطابق مع اخبارها التوراتية. فقبل القرن العاشر قبل الميلاد عندما بدأت المملكة الموحدة بالتشكـل، كان المـوقـع عبـارة عن تجمع سكني بسيط، لم يأخذ شكل المدينة المسـورة إلا بدءاً من القـرن العـاشـر قبل الميلاد. وقد أظهرت الأجزاء التي تم كشفهـا من السـوروالطرقات والبيوت، تماثلاً في تخطيط المدينة وفي طريقة بناء البيوت وتوضعها، مع مواقع فلسطينية أخرى تعود إلى نفس الفترة مثل موقع «تل بيت مرسيم» و «مجدو» و «حاصور» وغيرها[٢].

المـوقـع الثـانـوي الآخر الذي اعتمدت عليه البينة الأركيولوجية لكمال الصليبي هوموقـع «جـرار» الذي خصص له فصلاً كاملاً بعنوان «البحث عن جرار» يقول في بدايته: [قبل بداية البرهان على مدى الدقة في مطابقة جغرافيا التوراة العبرية لجغرافيا غرب شبه الجزيرة العربية، لا بد من ايراد الدليل على مدى الضعف في مطـابقـة تلك الجغرافيا لجغرافية فلسطين. وهذا يتضح تماماً من النظـر في الطـريقـة التي عالج فيها علماء التوراة حتى الآن مسألة «جرار»، وهي بلدة توراتيـة يفـترض أنهـا ازدهـرت في القـدم في جوار غزة بسـاحـل فلسطين، في موقع غير بعيد عن بئر السبع، والتي انجلت عن عدم وجود أي مكان هناك يحمـل هذا الاسم] (ص ٨٥). بعد ذلك يتابع الصليبي اظهار تخبط العلماء التوراتيين في محاولة العثور على جرار، ليجدها لهم أخيراً في أحد مواقـع أربعـة في مرتفعات عسير بين «آل زيدان» (صيدون) و«آل عزة» (غزة)

← ٣٥ سنـة أن الأصنـام كانت قائمـة في الهيكـل وعلى رأسهـا تمثـال عشـيرة (الملوك الأول ١٥: ٩ ـ ١٨) ويبـدو أن تمثـال عشيرة قد أعيـد مع الأصنـام في عهد «يوآش» (انظر أخبار الأيام الأول ٢٤: ١٥ ـ ١٨). ورغم أنها قد أخرجت بعد ذلك أكثر من مرة، إلا أنها كانت قائمـة في آخـر أيـام مملكـة يهوذا عنـدمـا كانت على أبـواب الاجتيـاح البابلي (الملوك الثاني ٢٣: ٤ ـ ٦).

2- Kathleen Kenyon, Archaeology In the Holy Land, Menthuen, London 1985, PP.279-80, 297.

وهي «غُرار» و «الجرار» و «غِرار» و «القرارة» (انظر خريطة الصليبي رقم ٦).

وفي الحقيقة، لم تكن جرار موقعاً هاماً في أخبار التوراة، ولم يرد لها ذكر في سجلات مصر ووادي الرافدين. وقد اوردت أسفار التوراة أخباراً قليلة عنها. ففي سفر التكوين وردت باعتبارها الحد الجنوبي لأرض كنعان قرب مدينة غزة، كما أتى اليها كل من ابراهيم واسحاق بسبب الجوع، وهناك كذب كلاهما على ملكها «أبيمالك» بشأن امرأتيهما. وفي سفر أخبار الأيام الثاني، ساق اليها الملك «آسا» الكوشيين المتقهقرين بعد فشل حملتهم على يهوذا فنهبها جنوده. فأين هذا الموقع الثانوي جداً من مواقع مثل «مجدو» و «حاصور» و «لخيش» و «ترصة» و «السامرة» و «شكيم» و «بيت شان» وغيرها من المواقع الفلسطينية الهامة التي تم اكتشافها والتعرف بدقة على هويتها؟ ولماذا التمسك بمسألة جرار التي لم تكن هماً من هموم علماء الآثار، ولا نعثر لها على ذكر في أمهات الأبحاث التي تستعرض نتائج التنقيب في فلسطين؟ . علماً بأن كمال الصليبي لم يستشهد في بحثه عن جرار أو غيرها بأي عالم مرموق في مجال علم الآثار، بل اكتفى بالاشارات الغامضة إلى العلماء التوراتيين» الذين نعرف، ويعرف، كم أساؤوا إلى مسألة آثار فلسطين وجعلوا من علم الأركيولوجيا استمراراً لعلم اللاهوت، وكان جل اقتباساته في المسائل الأثرية مأخوذاً عن «سايمنز» و «كريلنغ» وكلاهما لم يضرب معولاً واحداً في أرض فلسطين.

ومن ناحية أخرى، فان عدم العثور على موقع قديم حدد الأثاريون والمؤرخون مكانه التقريبي اعتماداً على النصوص القديمة، لا يعني سوى مسألة مؤجلة. فمدينة «إيبلا» الوارد ذكرها في أقدم سجلات أكاد، لم تكتشف إلا في سبعينيات هذا القرن، ومدينة «شُباط انليل» عاصمة الملك الآشوري «شمسي حدد» التي تكرر ذكرها في سجلات «ماري» وغيرها، لم يمكن التأكد من هويتها إلا في عام ١٩٨٧ في «تل ليلان» بالجزيرة السورية. ومدينة «أكاد» عاصمة صارغون الأول مؤسس الدولة الأكادية، لم يعثر عليها حتى الآن، ومثلها في ذلك مدينة «أشوكان» عاصمة مملكة «ميتاني». فأي

ضير في ألا يتم العثور حتى الآن على موقع ضئيل اسمه «جرار». وأي دليل يقدمه ذلك لمسألة الجغرافيا التوراتية؟

والحقيقة ان مسألة جرار لم تعالج من قبل كمال الصليبي باعتبارها مسألة أركيولوجية بالدرجة الأولى، وكذلك فيما يتعلق ببئر السبع، بل لقد اتخذ من الاشكالات الاركيولوجية لهذين الموقعين مدخلاً للولوج إلى مسألة «أخطر وهي مسألة «أرض كنعان» التوراتية التي نقلها بكاملها إلى بلاد عسير وجاورها هناك مع اسرائيل. وبما أن علم الآثار يعتبر اليوم من أهم العلوم التي تمد علم التاريخ بمادته، فاننا سنعمد فيما تبقى من هذا الباب إلى بسط المسألة الاركيولوجية لفلسطين بالقدر الذي يسمح به حيز هذا الكتاب ومقصده، مقدمين نبذة سريعة عن خلاصة التنقيبات الأثرية في عدد من المواقع الهامة، والنتائج المتفق عليها بين علماء الآثار، ومقاطعة هذه النتائج مع السجلات القديمة بما فيها كتاب التوراة. وسيكون اعتمادنا في هذا الموضوع بشكل رئيسي على عالمة الآثار البريطانية «كاثلين كينيون» التي نقبت في عدد من المواقع الفلسطينية من أهمها موقع «أريحا» وموقع «أورشليم»، والتي خلقت أعمالها التنقيبية ومؤلفاتها العديدة تياراً موضوعياً مقابلاً لتيار المدرسة التوراتية.

اضافة إلى التقارير المتفرقة للسيدة كينيون فقد اعتمدت مادتنا هنا على مؤلفاتها المنشورة التالية:

1- Archaeology In the Holy Land, Menthuen, London 1985.

2- Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London 1974

3- Royal Cities Of The Old Testament, Barrie And Jenkins, London, 1971

4- The Bible and Recent Archaeology, Colonnade Books, London, 1978.

٤ ـ أورشليم حاضرة كنعان

ورد اسم اورشليم لأول مرة في نصوص مصرية ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وخصوصاً فيما يدعى «بنصوص اللعنات» وهي نصوص منقوشة على جرار فخارية تذكر أسماء البلاد والحكام من أعداء الفراعنة. وكانت هذه الجرار تحطم في طقس سحري خاص لجلب الأذى على المذكورة أسماؤهم عليها. نقرأ في أحد تلك النصوص(٣):

١ ـ ايروم، حاكم أي ـ عناق، وجميع بطانته.
٢ ـ ايابوم، حاكم شوتو، وجميع بطانته.
٣ ـ خالوكيم، حاكم عسقانو، وجميع بطانته.
٤ ـ يقرب ـ آمو، حاكم اورشليم، وجميع بطانته.
٥ ـ أبيش ـ حدد، حاكم شكيم، وجميع بطانته.
٦ ـ يابانو، حاكم أكشف، وجميع بطانته.
٧ ـ جتجي، حاكم حاصور، وجميع بطانته.
٨ ـ . . . ، حاكم عشتاروت، وجميع بطانته.
٩ ـ أخو كالكول، حاكم أوبي، وجميع بطانته.

3- John A. Wilson, Egyptian Rituals, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, op. cit) p. 228.

١٠ - . . . . ، حاكم صور، وجميع بطانته.
١ - توري آمو، حاكم عكا، وجميع بطانته.
١٢ - ياتيب ايل، حاكم بيت شميش، وجميع بطانته.
١٣ - قبيلة عرقاتا.
١٤ - قبيلة جبيل.

إلى جانب اورشليم، نتعرف في هذا النص على عدد من المدن الكنعانية القديمة في فلسطين مما ورد في سجلات الشرق القديم، وفي التوراة لاحقاً، مثل شكيم، واكشف وحاصور وعكا وبيت شميش. وعلى عدد من المدن الكنعانية الساحلية مثل صور وعرقاتاوجبيل، وعلى مقاطعات داخلية مثل أوبي. أما الاشارة إل قبيلة عرقاتا وقبيلة جبيل، فهي اشارة إلى القبائل العمورية التي استوطنت أطراف المدن الكبرى في مطلع الألف الثاني بعد أن خربتها. وهذا النص القديم وأمثاله، يثبت أن اسم مدينة أورشليم قديم قدم وجودها، ولا علاقة للاسرائيليين النازحين بتسميتها وتسمية غيرها من مدن كنعان باسماء مواقع عرفوها في غرب العربية كما يرى كمال الصليبي (ص ٣٥). كما ورد ذكر اورشليم بعد ذلك بخمسمائة سنة في رسائل تل العمارنة، مما ذكرناه سابقاً (الصفحة ٥٧ سابقاً). وقد بقي اسمها قائماً إلى ما بعد دمارها على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية، دون أن يطغى عليه اسم «إيليا كابيتولينا» التي بناها الرومان على أنقاضها فيما بعد، في أيام الامبراطور «هدريان» حوالي عام ١٣٥ ميلادية(*)

فيما عدا اسم المدينة وموقعها في فلسطين، لا تسعفنا نصوص الشرق القديم بكثير عن المعلومات عن أورشليم ولا عن الكنعانيين اليبوسيين من سكانها ممن كانوا يقيمون فيها قبل وبعد التسرب الاسرائيلي، على ما يخبرنا به

* - والاسم «ايليا» مأخوذ من الاسم الأوسط للامبراطور «هدريان» وهو Publius Aelius Hadrianus

كتـاب التـوراة . فرغم أن سفـر يشـوع وسفـر القضـاة يتحـدثـان عن احتلال المـدينـة واحـراقهـا ، إلا أننـا نرى بعـد ذلـك أن المهاجمين لم يقدروا على طرد السكـان بل حلوا بين ظهرانيهم : [وأمـا اليبوسيون السـاكنون في أورشليم فلم يقـدر بنـو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى يومنـا هذا] يشـوع ١٥ : ٦٣ . [وبنـو بنيـامـين لم يطـردوا اليبـوسيـين سكـان أورشليم ، فسكن اليبـوسيـون مع بني بنيـامين في أورشليم إلى هذا اليـوم] القضـاة ١ : ٢١ . والشيء نفسـه ينطبق على معظم المـدن الكنعـانيـة الأخرى ، حيث يتحدث سفر القضاة ١ : ١٦ - ٣٦ عن عجز الاسرائيليين عن طرد بني كنعان فسكنوا بينهم . وعندما نُصب داود ملكاً عمل على احتلال أورشليم ، مما يشير إلى أن المـدينـة بقيت تحت الحكم الكنعـاني بعـد مائتي عام من التـاريـخ المفترض لاحتلالها واحراقها على يد يشوع . ومرة أخرى نجد أن داود لم يقدر على طرد اليبـوسيـين الـذين بقـوا في أورشليم مشكلين سواد أهلها (راجـع صمـوئيـل الثـاني ٥ : ٦ ، ٨ ، ٩ وأخبـار الأيـام الأول ١١ : ٤ - ٨) وقـد بقي اليبـوسيـون في الأرض إلى ما بعـد السبي البابلي (راجع عزرا ٩ : ١ - ٢) ومن أسـماء المـدينـة أو القـابهـا في التـوراة نجد «يبوس» (القضاة ١٩ : ١٠ - ١١) و «أريئيـل» (أشعيـا ٢٩ : ١) و «المـدينة» (مزامير ٧٢ : ١٦) و «القدس» (أشعيا ٤٨ : ٢) .

عندما بدأت التنقيبـات الأثرية في أورشليم ، توجه المنقبون إلى مدينة القـدس بمـوقعهـا الحـالي يبحثون عن حدود أورشليم القديمة . ثم تبين بعد ذلـك أن المـدينـة اليبـوسيـة تقـع بكاملها إلى الجنوب من المدينة الحالية على سلسلة تلال القـدس الشـرقيـة . وقـد تطـابقت جغـرافيـة وطبوغرافية المدينة المكتشفة مع وصوفاتها الواردة في التوراة . فالمدينة اليبوسية قد بنيت على الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية . وبني الهيكل على الجزء الأوسط منها أما الجزء الشمالي فلم يكن ضمن المدينة القديمة ، وهو يقع حالياً ضمن مدينة القدس . وتحيـط التـلال بأورشليم من ثلاثـة جوانب (مـزامير ١٢٥ : ٢) ، فإلى الشـمال

الشرقي منها جبل «سكوبس» (ويدعى أيضاً جبل المشهد وجبل المشارف)، وإلى الشرق «جبل الزيتون» وإلى الجنوب «جبل المكبر». أما عن الوديان، فالى المشرق منها وادي «قدرون» وهويقع بين المدينة وجبل الزيتون، ويسمى أيضاً وادي «يهوشافاط» (سفر يوئيل ٣ : ١٢) ويدعى بالعربية «وادي الست مريم»، وإلى الغرب منها بين سلسلة التلال الشرقية والغربية هناك وادي «تير وبيون» ويسمى بالعربية بالوادي، وإلى الغرب من سلسلة التلال الغربية هناك وادي «هنوم» ويسمى بالعربية «وادي الربابة».

اثبتت التنقيبات الأثرية أن المدينة ترجع بعهدها إلى عصر البرونز المبكر منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وهي فترة نشوء دويلات المدن في فلسطين. ولكنها كانت في ذلك الحين صغيرة ودون أسوار، ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاذ، تظهر في الموقع دلالات انقطاع سكني وحضاري، حصل على الأغلب نتيجة لاجتياح القبائل العمورية منطقة مصر والهلال الخصيب، وقضائها على معظم المراكز الحضرية فيها. ثم انتعشت اورشليم مجدداً في مطلع عصر البرونز الوسيط، وظهرت المدينة اليبوسية التي تم الكشف عن سورها الذي يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ١٨٠٠ ق.م[4]، وهي الفترة التي ظهر فيها اسم أورشليم لأول مرة في النصوص المصرية.

وقد استطاعت التنقيبات الأثرية الأخيرة (حملة السيدة كاثلين كينيون بين عامي ١٩٦١ - ١٩٦٧) رسم حدود المدينة اليبوسية على السلسلة الشرقية لتلال القدس (انظر الخريطة رقم ٩). أما المدينة نفسها فلم يبق منها شيء يذكر، وذلك بسبب استخدام حجارتها في بناء الطبقات السكنية التالية لها. ويبدو أن موضع السور الشرقي للمدينة كان محكوماً بنبع جيحون في وادي قدرون، الذي كان المصدر الأساسي لماء الشرب. فالسور يجب أن يكون قريباً من النبع لحمايته أثناء الحصار، ولكن يجب ألا يهبط كثيراً إلى الوادي كي

4- Kathlee Kenyon, Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London, 1974, PP. 76,83.

لا يكشف المدينة والمدافعين عنها. وكان الوصول إلى النبع يتم عن طريق نفق حُفر تحت الأرض يمر أسفل السور، تم الكشف عنه خلال التنقيبات[٥] وهذا النفق هو القناة المذكورة في الرواية التوراتية، والتي نفذت منها إلى داخل المدينة مجموعة اقتحام الملك داود (راجع سفر صموئيل الثاني ٥ : ٨ وأخبار الأيام الأول ١١ : ٦ - ٧).

وفي عصر البرونز الأخير، وفيما بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر، تم تحديث المدينة الكنعانية باستعمال تقنية انشائية جديدة، حيث اقيمت على المنحدر الشرقي للتل مصاطب متدرجة بنيت من أحجار ضخمة، استخدمت كمساحات مستقرة لبناء البيوت الجديدة، فتم بذلك الافادة من المنحدر بطريقة مجدية، وتعمير بيوت كبيرة خلفت البيوت الوضيعة المبعثرة دون نظام. وهذه التقنية الهندسية كانت بحاجة دائمة إلى الصيانة والا انهارت مع الزمن، ولذلك لم يأل كنعانيو أورشليم جهداً في اصلاحها، وآثار تلك الاصلاحات بادية في تلك البنية الجبارة، وكذلك آثار الانهيارات المتلاحقة غير أن البيوت التي شيدت فوق تلك المصاطب قد زالت تماماً، ولم يعثر المنقبون إلا على انقاض بيت واحد يعود بتاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد[٦].

وفي الحقيقة، فان اكتشاف هذه التقنية الانشائية في اورشليم، قد ساعد على فهم كلمة وردت في التوراة واختلف الدارسون والمترجمون في فهمها، وهي كلمة «ملو» العبرية التي تعني الملء أو التكميل. فبعد أن سيطر الملك داود على أورشليم، كان من أعماله الأولى اصلاح المدينة ابتداء من «الملو» إلى ما حولها (أخبار الأيام الأول ١١ : ٨). ومن بين أعمال الملك سليمان الانشائية بناؤه الملو وسور أورشليم (الملوك الأول ٩ : ١٥ و ١١ : ٢٧)، وكذلك فعل حزقيا عندما كان يهيء المدينة للحصار الآشوري (أخبار الأيام

5- Ibid, PP. 84,93.

6- Ibid, PP. 194-97, 98-103.

الثاني ٣٢ : ٥). وقد اختلفت ترجمات التوراة إلى العربية في أمر كلمة الملو، فبينما ترك الآباء اليسوعيون الكلمة على حالها فقالوا «ملو»، قامت ترجمات أخرى باستعمال كلمة «القلعة» لاعتقادهم أن المكان كان حصيناً كقلعة، كما ظن البعض أن الملو هو ساحة الهيكل، والبعض الآخر أنه عبارة عن الأحجار التي ردمت لملء الفراغ بين المدينة اليبوسية على التل الجنوبي والهيكل على التل الأوسط واقامة البيوت هناك. أما الآن فمن الواضح أن الملو هو تلك المصاطب الهائلة التي بناها الكنعانيون على المنحدر الشرقي على هيئة سلسلة متتابعة من امتلاءات الحجارة الضخمة تتدرج من أسفل السور صعوداً نحو ذروة التل، وأن في تعبير «إصلاح الملو» أو «بناء الملو» الوارد في التوراة اشارة إلى هذه البنية التي ورثتها المملكة الموحدة عن الكنعانيين. فلقد كشفت التنقيبات[٧] عن آثار واضحة لمصاطب إضافية بنيت في القرن العاشر (فترة داود وسليمان)، وعن اصلاحات واضافات فيما بين القرن العاشر والثامن.

وهنا نود التوقف قليلاً لعرض ما جاء به الصليبي حول كلمة الملو.

فرغم وضوح النص التوراتي الذي يجعل من الملو منشأة تقع داخل أورشليم، فان الصليبي، في حديثه عن أورشليم ومدينة داود، يجعل من الملو إسماً لموقع في عسير هو «الهامل»* في مرتفعات «رجال ألمع» قرب «قعوة الصيان» التي هي «حصن صهيون» المختلف عن اورشليم (ص ١٨٠ ـ ١٨٢). وفي هذا مثال واضح عن مدى خسارة دارس التاريخ للإضاءات التي يلقيها على موضوعه علم الآثار، عندما يسقطه من حسابه.

كان الاستيلاء على اورشليم، وفق الرواية التوراتية، البداية الحقيقية للمملكة الموحدة ابان القرن العاشر قبل الميلاد، لأنها كانت تشكل مع

7- Ibid, P.103.

* ـ ان قرن كلمة «الملو» هنا بموقع «اهامل» هو مثال واضح على مدى مرونة منهج كمال الصليبي في مقابلة أسماء الأماكن.

«جـازر» و«عجلون» خطـاً كنعـانيـاً يفصـل بين القبـائـل الشـمالية والقبائل الجنوبية. ورغم ذكر التوراة للعديد من الأعمال الانشائية الدفاعية التي قام بها داود (راجـع صمـوئيل الثاني ٥ : ٩ وأخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٥)، إلا أن أياً من هذه الأعـمال لم تقم عليـه البينـة الآثـاريـة. ويبـدو أن كل ما فعله داود كان اصـلاحـات جزئيـة على السـور اليبـوسي الـذي بقي على حاله حتى القرن الثامن قبل الميلاد[٨].

وعنـدمـا خلف الملك سليمان أباه داود، كانت الأمور قد استقرت نسبياً للمملكة الموحدة، داخلياً وخارجياً، فالتفت سليمان إلى أعمال التشييد والبناء ونشاطات الديبلوماسية. فاضافة إلى اعادة بناء ثلاث مدن كنعانية قديمة هي «حـاصـور» و«مجـدو» و«جـازر»، فقد التفت إلى أورشليم فبنى هيكل الرب خارج أسـوار المـدينـة الكنعانية، وبنى قصوراً لسكنه وادارته وزوجاته (الملوك الأول ٥ ـ ٦ وأخبار الأيام الثاني ٢ ـ ٤).

وبـما أن المـدينـة السليـمانيـة قد زالت مع المدينة اليبوسية بسبب اقتلاع الحجـارة لاستعـمالهـا في اعـادة البنـاء، كما اسلفنا، فان علم الآثار لا يستطيع إعطاء فكرة عن أبنية سليمان وقصوره الفارهة التي أطنب كتاب التوراة في وصفهـا*. أمـا معبـد سليـمان فمـوقعه مؤكد، وقد بني خارج المدينة اليبوسية على التـل الأوسـط، ثم تم وصـل سور المعبد بسور المدينة، وبذلك اكتسبت أورشليم مسـاحـة جديـدة إلى الشـمال في المنطقـة الواقعة بين الهيكل والمدينة (انظـر خريطتنـا رقم ١٠). ويعتقـد المنقبـون أن أبنية سليمان قد أقيمت على هذه المسـاحـة الجديدة، وذلك لاستحالة اضافتها إلى المدينة الكنعانية بسبب ضيقهـا وازدحـامهـا. وقـد استطـاعت التنقيبـات الأثـريـة تحديد خط السور الإضافي، وأمكن ارجاع تاريخ بنائه إلى النصف الثاني من القرن العاشر قبل

8- Ibid, P.100

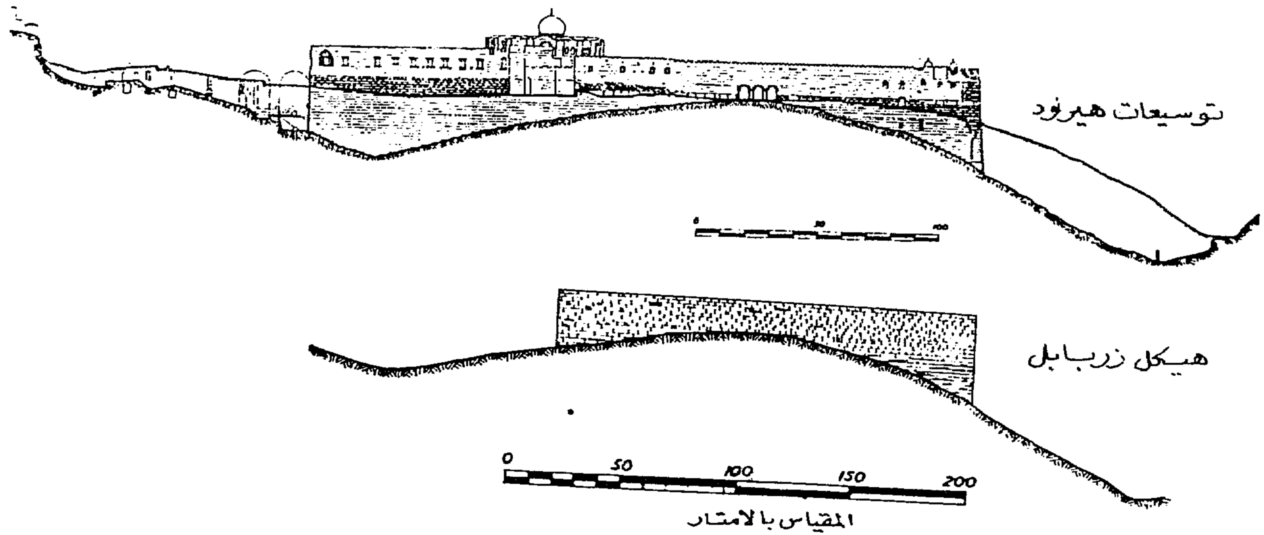
* ـ هذا إذا كانت هذه الأبنية قد وجدت أصلاً.

الميلاد، أي إلى فترة حكم داود وسليمان[٩].

وتتطابق الرواية التوراتية حول موقع المعبد مع نتائج التنقيب الأثري، فالموقع قد تم اختياره وتحديده خارج المدينة من قبل الملك داود. فبعد أن أرسل الرب ملاكه بالأوبئة الفتاكة على اسرائيل فقتلت منهم سبعين الفاً، ندم على اتيانه الشر، وأمر الملاك بالتوقف بعد أن وصل تخوم مدينة أورشليم عند بيدر يملكه رجل كنعاني اسمه «أرنان اليبوسي». ورفع داود عينيه ورأى عند الأفق ملاك الرب واقفاً بين السماء والأرض وسيفه مسلول بيده وممدودة على أورشليم، فسقط هو والشيوخ على وجوههم، واسترحم داود الرب من أجل خلاص المدينة، فأمره الرب أن يقيم مذبحاً في المكان الذي وقف الملاك عنده. فصعد داود إلى ارنان اليبوسي وكان يدرس حنطة في بيدره، واشترى منه المكان وأقام مذبحاً هناك وقال هذا هو بيت الرب الاله، وهذا هو مذبح المحرقة. ثم بدأ بتحضير ما يلزم لبناء الهيكل على أن يكمله من بعده ابنه سليمان (راجع أخبار الأيام الأول ٢١ : ٩ - ٣٠ و٢٢ : ١ - ٥).

لم يبق من هيكل سليمان ولا من أسواره شيء عقب التدمير البابلي للمدينة عام ٥٨٧. ولكن هناك قسم لا بأس به من أساسات سور الهيكل الثاني الذي بناه «زبابل» الذي عينه الفرس والياً على اورشليم، بعد سماحهم بعودة من يرغب إلى أورشليم، وانتهى من بنائه عام ٥١٥ق.م. وقد استمر الهيكل الثاني قائماً إلى عهد «هيرود الكبير» ملك منطقة «اليهودية» الذي حكم بمعونة الرومان في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن صارت سورية اليهم، ثم قام هيرود بتوسيع الهيكل والإضافة إليه حتى بلغت مساحته ضعف المساحة الأصلية تقريباً (انظر المخطط رقم ١). ولكن معبد هيرود قد لقي مصير هيكل سليمان القديم إذ تم تدميره على يد الرومان خلال حملتهم على اورشليم عام ٧٠ ميلادية، ولم يبق منه سوى قسم من

9- Ibid, PP. 110-116



المخطط رقم (١) ـ توسيعات هيرود على هيكل زربابل

أساسات سوره ما زالت واضحة اليوم بعد ازاحة الأتربة عنها، وأرضيته التي أقيم عليها المسجد الحرام وقبة الصخرة. والجزء الباقي من أساسات سور هيرود مؤلف من قسمين، قسم يعود إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وهو ما تبقى من سور هيكل «زربابل» وقسم يعود إلى القرن الأول الميلادي وهو أساس سور هيرود نفسه. ويلتقي الأساسان بشكل واضح عند نقطة تقع على مسافة ٣٣ متراً تقريباً إلى الشمال من الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم الحالي(١٠).

في الفترة التي تلت انهيار المملكة الموحدة وتحول اورشليم إلى عاصمة لمملكة يهوذا الجنوبية، كشفت التنقيبات عن عدة اصلاحات في سور المدينة واضافات إليه، أهمها تلك التي تمت حوالي عام ٧٠٠ق.م، والتي لاحظ المنقبون أن بعضها قد تم على عجل، إلى درجة أن أحد الأسوار قد رفع دون أساسات راسخة مما يدل على أنه قد بني في حالة الاستعداد للحرب واقتراب الحصار(١١). هذه الاصلاحات العاجلة وتاريخها تنطبق على الاصلاحات التي قام بها الملك حزقيا عندما كان يستعد لمواجهة قوات الملك الآشوري سنحاريب الذي حمل على يهوذا حوالي عام ٧٠٠ ق.م، وحاصرت قواته اورشليم حصاراً طويلاً (انظر الصفحة ١١٦سابقاً). نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٥ [وتشدد ـ حزقيا ـ وبنى كل السور المنهدم وأعلاه إلى الأبراج، وسوراً آخر خارجاً، وحصن القلعة مدينة داود، وعمل سلاحاً بكثرة وأتراساً..].

على أن أهم أعمال حزقيا الباقية إلى الآن من تلك الفترة، هو جر مياه نبع «جيحون» في قناة تمر تحت مدينة أورشليم إلى الوادي المركزي (تيبر يون) على الميل الغربي للتل لتصب في بركة «سلوام»، في موقع محمي يمكن الدفاع

10- Ibid, PP. 107-112

11- Ibid, P 151

عنه، وذلك لمنع الآشوريين من السيطرة على مصدر المياه الوحيد الذي يغذي المدينة نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٣٠ [وحزقيا هذا، سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود. وأفلح حزقيا في كل عمله. .].

وبركة «سلوام» لا تزال قائمة اليوم في نهاية السفح الغربي للتل الجنوبي الذي كانت اورشليم قائمة عليه، واسمها اليوم بركة «سلوان». أما القناة الواصلة بين نبع جيحون على السفح الشرقي (واسمه اليوم نبع العذراء) وبركة سلوان على السفح الغربي، فقد تم اكتشافها عام ١٨٦٧ من قبل المنقب «وارن» Warren، ونظفت من قبل المنقب «باركر» Parker عام ١٩١١. ثم اعادت حملة السيدة كاثلين كينيون ١٩٦١ - ١٩٦٧ تنظيفها واعادتها إلى ما كانت عليه منذ ٢٧٠٠ عاماً. هذا ويتطابق مجرى هذه القناة المكتشفة مع الوصف الذي أعطاه سفر أخبار الأيام الثاني (انظر خريطتنا رقم ١١). ويستطيع أي زائر اليوم أن يسير خلالها منتصب القامة أو منحنياً مستعملاً الأنوار الكشافة[١٢].

وقد عثر في نفق القناة على نقش حجري يصف لحظة انتهاء حفر القناة بالتقاء فريقي الحفر الذين انطلقا كل من اتجاه. تقول ترجمة النقش: [بينما النحاتون يرفعون فأس الحفر، كل تجاه رفيقه، وبينما بقي ثلاثة أذرع للنحت، سُمع صوت رجل ينادي أخاه لأنه وجد ثقباً في الصخر من ناحية اليمين. وفي يوم انثقابه، ضرب النحاتون رجل أمام رجل، فأس على فأس. وسالت المياه من النبع إلى البركة مسافة مائتين وألف ذراع ومائة ذراع. وكانت قمة الجبل فوق رأس النحاتين][١٣].

وهنا سنتوقف قليلاً لعرض وجهة نظر الصليبي في موضوع قناة سلوام

12- Ibid, PP.151-158

13- إ. ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت ١٩٨٠. ص ٨٣.

حيث يقول في الصفحة ١٠٧ من كتابه : [عثر على نقش صخري في سلوان، قرب القدس، يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هناك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معـاً. ولـو قال النقش ان هذا النفق حفـر في عهـد حزقيـا الملك، لكان فيه تأكيد واضح لنصي سفر الملوك الثاني ٢٠ : ٢٠ وأخبار الأيام الثـاني ٣٢ : ٣٠ اللذين يتحـدثـان عن بركـة وقناة أنشأهما الملك حزقيا، ملك يهوذا. لكن الـواقـع هو أن النقش المذكور لا يشير إلى أية أسماء، سواء كانت أسـماء أشخـاص أم أسـماء أمكنة، ولذلك لا تجوز نسبته إلى عهد حزقيا، كما فعـل البـاحثـون التـوراتيـون زيفـاً. ويبـدو أن هؤلاء البـاحثين لم يأخذوا في اعتبارهم أن الأقنية المائية كانت تحفر في كل الأزمنة، أينما كان، ومتى ظهرت الحـاجـة اليها. والواقع أن نقش السلوان لا يشير حتى إلى أن القدس الحالية هي فعلاً أورشليم التوراتية، لأنه لا يذكر إسم الموقع].

في المقطـع أعـلاه، مثـال على طريقـة الصليبي في تقـديم نصف المعلومات اللازمة للقارىء غير المتخصص من أجل الحكم على قضية بالغة التخصص. فهـو يركـز على (النقش الـذي يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هنـاك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معـاً). ولا يذكـر أن القنـاة المـائيـة التي يتحـدث عنهـا النقش قد تم اكتشـافهـا، وأنهـا تجري تحت مدينة أورشليم القـديمـة من نبـع جيحـون في الوادي الغربي الى طرف المدينة في الوادي الشرقي تماماً كما هومذكور في النص التوراتي، وهويقول إن النقش قد عثر عليه (في «سلوان» قرب القدس)، ولا يقول إن النقش قد عثر عليه داخل قنـاة السلوان التي تتسـع بكـاملهـا ضمن مدينة القدس اليوم. ثم يلصق التهم بالباحثين التوراتيين ممن لا ناقة لهم ولا جمل في هذه القضية التاريخية الآثارية، ويتغاضى عن جهد المنقبين الأوائل الذين استكشفوا القناة من أولها إلى آخرها زحفـاً على البطـون، لأنهـا كانت مليئـة بالأتـربة والنفايات التي تراكمت عبر العصور، دون أن يكونوا متأكدين من خروجهم سالمين من الجهة الأخرى. ثم يقول (بأن الأقنية المائية كانت تحفر في كل الأزمنة أينما كان ومتى دعت الحاجة

إلى ذلك)، وهذا صحيح تماماً ولكن قناة السلوان متفردة في تقنيتها وطريقة حفرها ولا نظير لها في مدن الشرق القديم طراً، وان وصف قناة أورشليم الوارد في النص التوراتي لا ينطبق إلا على القناة المكتشفة تحت موقع اورشليم القديمة. وهو يقول أخيراً بان (نقش السلوان لا يشير إلى أن القدس الحالية هي فعلاً أورشليم التوراتية لأنه لا يذكر اسم الموقع). ونحن مستعدون للموافقة جدلاً على هذه النقطة، لو أن نقش السلوان لم يعثر عليه داخل القناة، ولو ان البينة الأركيولوجية لم تقم على وجود هكذا قناة.

بعد نجاة اورشليم من الحصار الأشوري عام ٧٠٠ ق. م قيض لها أن تستمر قرابة قرن آخر من الزمان كعاصمة لمملكة صغيرة شبه مستقلة، خصوصاً بعد زوال آشور وصعود المملكة البابلية الجديدة. غير أن نبوخذ نصر حمل على مملكة يهوذا عام ٥٨٨ ق. م وأخذ اورشليم، ثم حمل عليها كرة أخرى وهدم اورشليم والهيكل عام ٥٨٧ق. م(انظر الصفحة ١٢١ سابقاً). وهنا تأتي البينة الأركيولوجية لتثبت ما ورد من تفاصيل عن دمار أورشليم. فقد أظهرت التنقيبات الأثرية الأخيرة خراب سور اورشليم في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وانهيار المصاطب (الملو) التي لم تستعمل بعد ذلك قط. وفي بقية مدن يهوذا ظهرت آثار واضحة على الانقطاع الحضاري دامت قرابة قرن ونصف من الزمان[١٤].

أما فيما يتعلق باعادة بناء الهيكل والمدينة بعد العودة من السبي البابلي، فقد تم العثور على سور المدينة الجديد الذي بناه «نحميا» والذي يرجع بتاريخه إلى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك على جزء لا بأس به من سور الهيكل الذي بناه زربابل، وكذلك على أسوار وتحصينات المكابيين وفيها

14- Katheen Kenyon, Digging up Jerusalem op. cit. PP. 166-172

البرج الذي يدعى اليوم خطأ ببرج داود، وعلى جدران معبد هيرود الموسع[١٥].

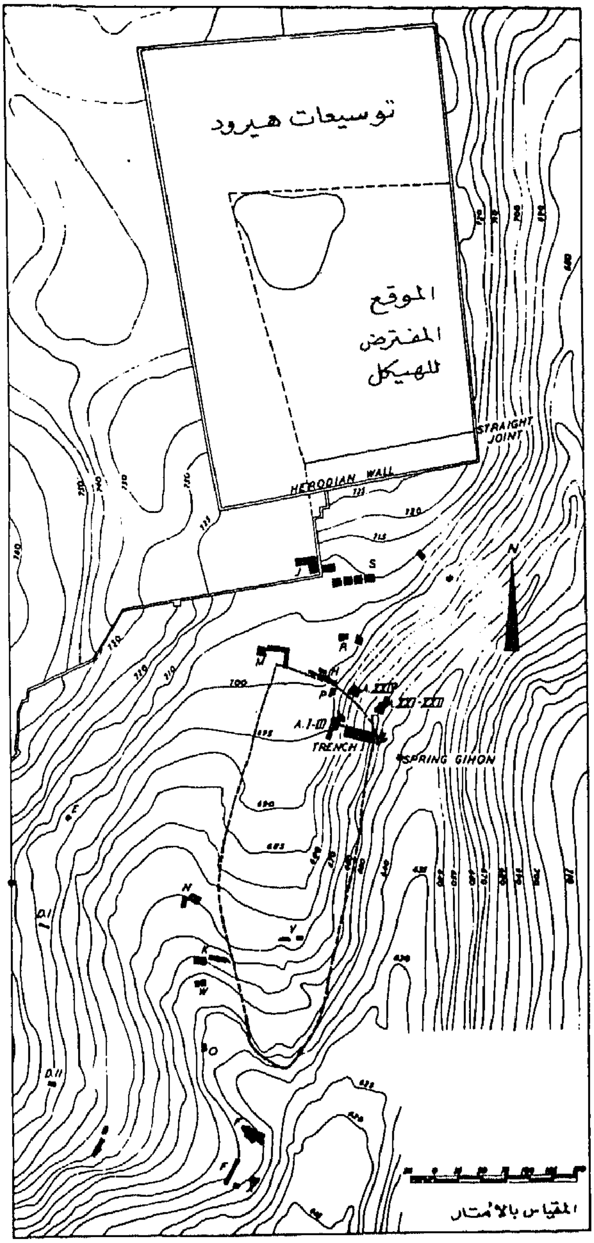
في عهد هيرود الذي عينه الرومان ملكاً على «اليهودية» اكتمل تقريباً انزياح أورشليم نحو مدينة القدس الحالية. وقد أظهرت التنقيبات آثار أسوار هيرود الجديدة، واستطاعت رسم صورة أقرب إلى الدقة لأورشليم في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. كما تم العثور على العديد من البيوت والأبنية التي ترجع إلى تلك الفترة، ومن بينها جزء من قصر هيرود نفسه. مدينة هيرود هذه هي مدينة الأناجيل، وهي المدينة التي تعرضت للدمار الأخير على يد القائد الروماني «تيتوس» الذي هدم الهيكل وسوى أبنية أورشليم بالتراب. وقد كشفت التنقيبات عن آثار الدمار الكبير الذي حل بالمدينة أواخر القرن الأول الميلادي، واستعمال حجارتها لبناء المدينة الرومانية «ايليا كابيتولينا» فوق الخرائب عام ١٣٥ ميلادية. وأسوار هذه الأخيرة تتطابق إلى حد كبير مع الأسوار التي بناها للقدس السلطان سليمان القانوني، وهي الأسوار التي ما تزال قائمة إلى اليوم[١٦].

وبعد، هذه لمحة عن اركيولوجيا أورشليم لا يتسع كتابنا لأطول منها، وهي تختصر ألوف الصفحات ومئات التقارير الأثرية وجهد أجيال متعاقبة من علماء الآثار، ولعلنا نشعر الآن أن نقل موقع أورشليم إلى موقع «آل شريم» في سراة عسير أو موقع القريتين التوأمين «أروي» و«آل سلام» في غرب العربية يتطلب أكثر مما يستطيع منهج مقارنة أسماء المواقع تقديمه.

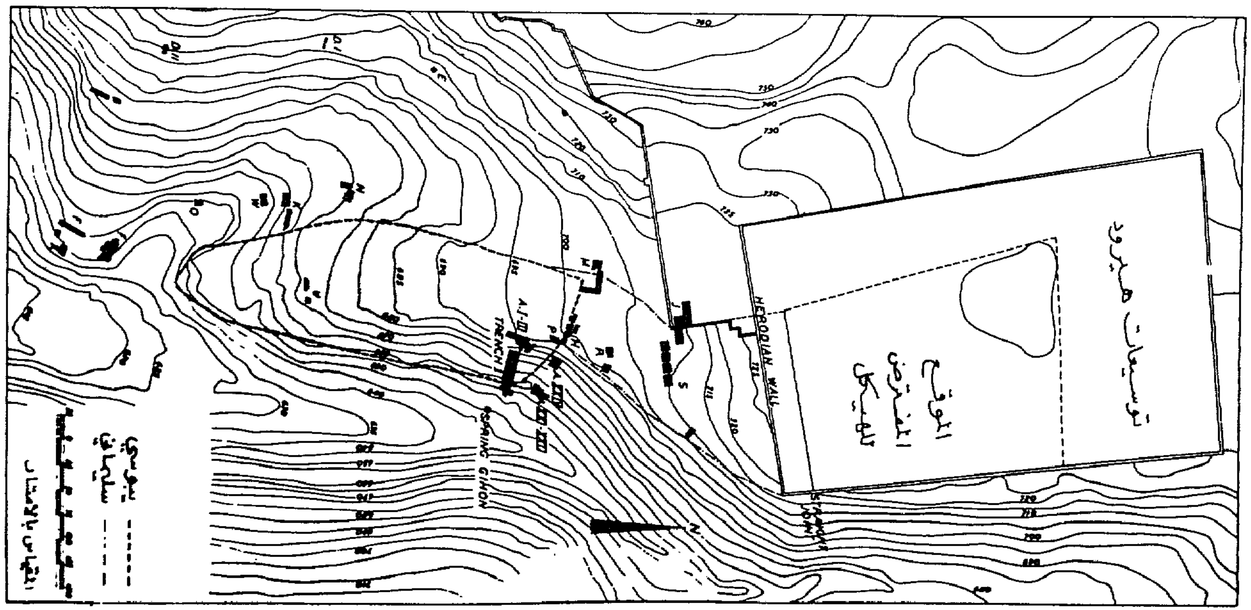
15- Ibid, PP. 172-204

16- Ibid. PP. 236-255

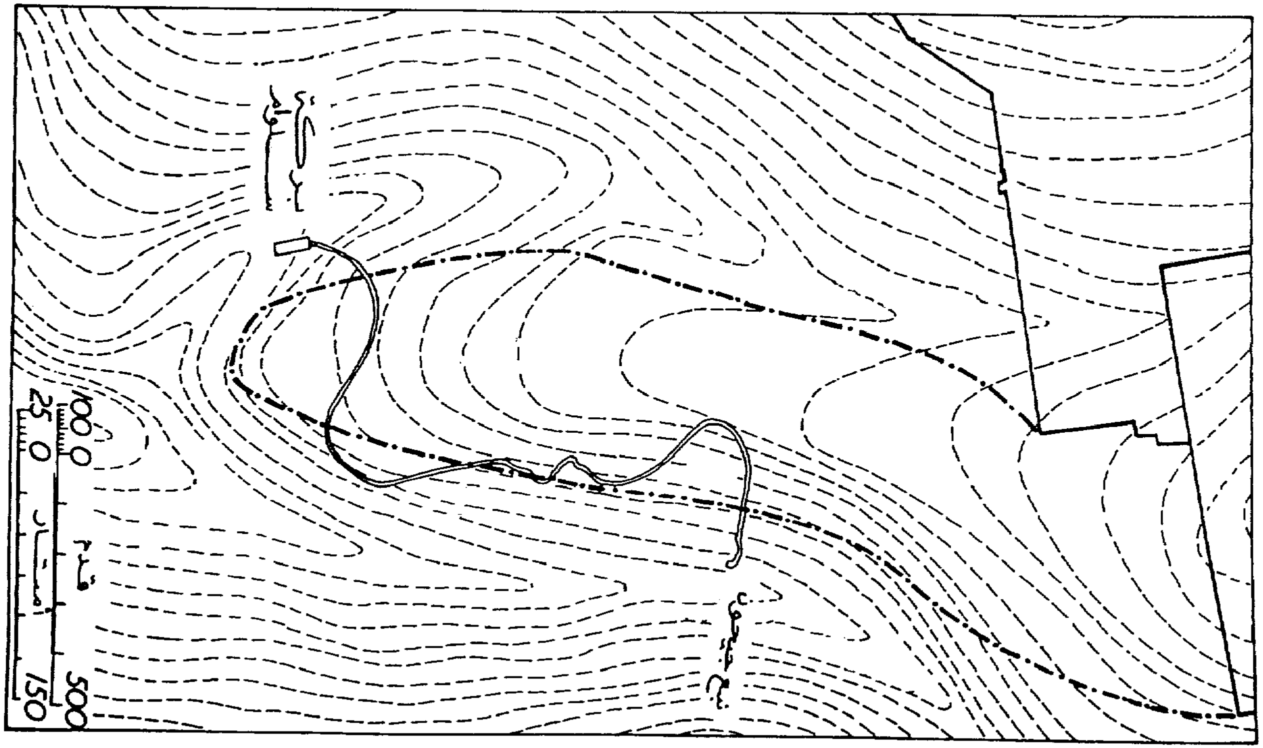
- K. Kenyon, the Bible And Recent Archaeology, Colonnade Books, London 1978, ch.6



الخارطة رقم (٩) - أورشليم اليبوسية



الخارطة رقم (١٠) - إضافات سليمان



الخارطة رقم (١١) ـ قناة سلوام

٥ - السامرة
«كوزموبوليتانية» كنعان

السامرة، هي المدينة الوحيدة التي يعزو كتاب التوراة بناءها للاسرائيليين. أما المدن الأخرى فجميعها مدن كنعانية مغرقة في القدم سكن فيها الاسرائيليون إلى جانب أهلها القدماء دون أن يقدروا على طردهم منها. ورغم فتوحات يشوع المزعومة، ورغم قوة دولة داود وسليمان التي لا نملك عنها معلومات تاريخية مؤكدة، فان مدناً كنعانية مثل مدينة «جازر» قد بقيت خارج نطاق المملكة الموحدة حتى صعد اليها فرعون مصر فأخذها وقدمها هدية إلى سليمان. نقرأ في سفر الملوك الأول ٩ : ١٦ [صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان].

وقد بنيت السامرة لتكون عاصمة لمملكة اسرائيل بعد أن تنقل ملوك المملكة الشمالية بين عدد من العواصم المؤقتة. فعقب موت الملك سليمان واستقلال الأسباط العشرة عن أورشليم والهيكل، استقر الملك «يربعام» أول ملوك اسرائيل في مدينة «شكيم». ولكنه بعد عدة سنوات تركها إلى مدينة «فنوئيل»، ثم عاد واستقر في مدينة «ترصه» التي بقيت عاصمة لمملكة اسرائيل مدة أربعين سنة. وفي ترصه بدأ الملك «عمري» حكمه عام ٨٧٨ق.م، بعد أن اغتصب السلطة من «زمري». ويعتبر عمري بمثابة المؤسس الثاني لمملكة اسرائيل، فهو الذي أمن لها الاستقرار والازدهار وكرس ارتباطها حضارياً

بالعالمين الآرامي والفينقي، وبنى لها عاصمة جديدة على تل اشتراه من رجل يدعى «شامر» وأسماها «السامرة» (الملوك الأول ١٦ : ٢٤).

ورغم أن بناء مدينة جديدة هو، من حيث المبدأ، فرصة من أجل اظهار الطابع الحضاري الخاص لمن بنوها، إلا أننا نفاجأ في موقع السامرة بمدينة لا ترتبط فقط بأرضيتها الكنعانية الفلسطينية فحسب، بل وبالعالم الكنعاني الأوسع وبالعالم الآرامي الزاخر، مما يجعلها بحق «كوزموبوليتانية» كنعان (Cosmopolitan)*. ذلك أن الخيار الديني للأسباط العشرة التي شكلت مملكة اسرائيل الشمالية، كان يحمل في الوقت نفسه خياراً حضارياً متكاملاً. ومنذ أن انفصلت مملكة اسرائيل عن هيكل أورشليم، حيث كانت الديانة اليهودية آخذة بالتشكل، وتبنت بشكل كامل ديانة كنعان، فقد تبنت أيضاً جميع مظاهر الحضارة الكنعانية العميقة الجذور، وعاشت في إطارها طيلة حياتها القصيرة حتى دمارها الأخير وسبي الأسباط العشرة دون رجعة عام ٧٢٠ق.م.

ولقد تم تكريس الانفصال الديني عن أورشليم منذ الأيام الأولى لتشكيل مملكة اسرائيل، عندما قام «يربعام» أول ملوكها ببناء معبدين كنعانيين لشعبه وضع فيهما تمثالاً على هيئة العجل، وهو رمز الاله بعل، وصرف من خدمته كهنة اللاويين الذين كانوا مكرسين للخدمة الدينية في أورشليم. نقرأ في سفر الملوك الأول ١٢ : ٢٨ - ٣١ [فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم. كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من مصر. ووضع واحداً في بيت إيل وجعل الآخر في دان.. وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي]. وبعد يربعام سار جميع ملوك بني اسرائيل في طريقه خلا واحداً هو

---

* ـ الكوزموبوليتاني، هو العالمي غير المحلي الذي يحمل خصائص شمولية.

الملك «ياهو» الذي قضى على بيت آخاب وقام باصلاح ديني لم يقيض له الاستمرار. ولم يكن موقف عامة الناس في الدولة مغايراً لموقف ملوكهم، مما استجر عليهم وعلى حكامهم اللعنات التي امتلأت بها أسفار التوراة. ولم يكن الدمار الأخير لدولتهم إلا عقاباً: [وسلك بنو اسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل. لم يحيدوا عنها. حتى نحى الرب اسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء، فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى اليوم] الملوك الثاني ١٧ : ٢٢.

وقد جاءت نتائج التنقيب الأثري في موقع السامرة في اتفاق مع الرواية التوراتية. فمدينة السامرة، هي الموقع الوحيد في فلسطين الذي بني على التربة العذراء دون طبقات آثارية سابقة عليه. كما أثبتت أساليب التأريخ الحديثة في علم الأركيولوجية أن المدينة قد بنيت في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد، وهو تاريخ بنائها الفعلي من قبل الملك عمري الذي حكم اثنتي عشر سنة منذ عام ٨٨٠ق. م. ومن ناحية أخرى، فقد أمكن التعرف على عاصمة عمري السابقة ترصه في موقع «تل الفرح» على مسافة ستة أميال شمال شرقي شكيم (نابلس). واتضح من التنقيبات أن مدينة ترصة قد هجرت في نفس الوقت تقريباً الذي بنيت فيه مدينة السامرة، وأن العديد من أبنيتها التي كانت قيد التشييد قد أوقف العمل بها وتركت على حالها. ويبدو أن الملك عمري قد بدأ بتحضير ترصة لتكون عاصمته، ثم تحول عنها إلى موقع السامرة الذي يقدم فرصاً أوفر للاتصال مع فينيقيا وآرام(١٧).

يقع تل السامرة قرب الممر الرئيسي الذي يصل شمال فلسطين بجنوبها، على مسافة عشرة أميال شمال غرب الممر الفاصل بين جبل جرزيم وجبل عيبال، ويشرف على واد عريض يتجه نحو البحر مما يؤمن للموقع اتصالاً

17- Katheen kenyon. Royal Cities Of The Old Testament, Barrie And Jenkins, London 1971 PP. 71-89.

سهلاً مع فينقيا، بينما يؤمن مرج ابن عامر في الشمال الاتصال مع آرام، وقد بدأت أولى التنقيبات في التل من قبل البر وفسور G.R.Reisner لحساب جامعة هارفارد بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٠، ثم تابع التنقيب السيد J. W. Crowfoot لحساب هارفارد وصندوق التنقيب في فلسطين والأكاديمية البريطانية ومدرسة علم الآثار البريطانية في القدس، وذلك بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥. وأخيراً الدكتور J.B.Hennessy عام ١٩٦٧[١٨].

ولقد تم الكشف في المنطقة المتوضعة على قمة التل، عن القطاع الملكي الذي يضم القصور والأبنية الادارية، وكلها ذات طابع كنعاني واضح سواء في المخطط أم في طريقة البناء والحجارة المنحوتة المستخدمة فيه. وتكاد طريقة نحت الحجارة المستعملة في سور القطاع الملكي أن تكون نسخة مطابقة للحجارة المستخدمة في مدن كنعانية أخرى، وخصوصاً أوغاريت القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد تمكن المنقبون في المنطقة من الكشف عن مرحلتين في البناء، الأولى تعود إلى الملك عمري مؤسس المدينة، والثانية إلى ابنه آخاب الذي تابع عمل أبيه[١٩]. وآخاب هذا معروف في التوراة بعلاقاته الوثيقة مع فينيقيا التي أدت أخيراً إلى زواجه من «ايزابيل» ابنة ملك صور، التي كرست بشكل نهائي عبادة الآلهة الكنعانية في اسرائيل (انظر سفر الملوك الأول ١٦ : ٣١ ـ ٣٣ و١٨ : ٤ و١٩).

ولعل أهم ما عثر عليه في خرائب القصر المعزو لآخاب، كمية كبيرة من المنحوتات العاجية البارزة، مما تزين به قطع الأثاث والجدران. وبذلك توضح المقصود «بقصر العاج» الذي يورد سفر الملوك الأول ٢٢ : ٣٩ أن الملك آخاب قد بناه في السامرة، فالبناء المقصود ليس بيتاً حجارته من عاج، وهو أمر

18- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, PP 340-41

19- K. Kenyon, Royal Cities , op. cit, ch.7

مستحيـل من النـاحيـة العمليـة ، بل هو قصـر رصعت كل مفروشاته الخشبية وأجزاء لا بأس بها من جدرانه بمنحوتات عاجية . وقد عثر على الجزء الأعظم من هذه المنحوتات العاجية في طبقة الحرائق التي يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثامن ، أي إلى التدمير الأشوري لمدينة السامرة عام ٧٢١ ق . م ومعظمها قد نالت منه النيران وتركت قطعاً متشظية وفي حالة هشة . وقد تبين من الدراسة الفنيـة لعـاجيـات السـامـرة أنها تنتمي إلى المدرسة الفينيقية وتربطها صلات قربى واضحـة مع منحـوتـات مماثلة عثـر عليهـا في أنحـاء متفرقة من سورية ، وخصوصاً في موقع «ارسلان طاش» ، أي «حداتو» القديمة في الشمال السوري[٢٠] .

وعاجيات السامرة ، تستحق أن نتوقف عندها وقفة قصيرة ، لأنها تنتمي إلى تقليـد فني سوري مغـرق في القـدم كان شائعـاً في كل المراكز الحضرية في بلاد الشـام ، وأقـدم أمثلة عليـه جاءتنـا من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من «جبيـل» ومن «ايبـلا» ومن «ألالاخ» . وفيـما بعد أفاضت تنقيبات «أوغاريت» بمجمـوعـة ضخمـة من هذه العـاجيـات التي تنتمي إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، كما نعرف من نص أوغاريتي أن دوطة الملكة «أخات ميلكـو» كانت تضم أسرة وكراسي ومساند قدمين مطعمة بالأشكال العاجية . ومن الألف الأول قبـل الميـلاد وصلتنا عدة مجموعات من المنحوتات العاجية ، أهمهـا مجموعة «أرسلان طاش» ، كماتوفر من الأدلة ما يشير إلى وجود مراكز متعددة في بلاد الشـام لانتـاج هذه المنحـوتـات أهمهـا «كـركميش» و «شمأل» و «تـل حلف» و «أرفاد» و «حماة» و «دمشق» . ورغم أن هذه العاجيات تحمل تأثيرات واضحـة من مصـر وبـلاد الأنـاضـول ، حيث تأثـرت المناطق الساحلية بالفن المصـري والشـمالية بالفن الحثي ، إلا أنهـا جميعـاً تنتمي إلى مدرسـة سوريـة واضحة ذات اتجاهات ثلاثه ، فمدرسة شمالية وأخرى جنوبية وثالثة ساحلية .

20- Ibid, ch.7

وقد تم العثور على قطع من هذه المنحوتات العاجية السورية في مناطق بعيدة عن منشئها مثل ايران والأناضول والبر اليوناني ، مما يشير إلى مدى تأثير الفن السوري في الثقافات المجاورة، ومدى نشاط التجارة السورية في ذلك الوقت أما مجموعة المنحوتات الكبيرة التي عثر عليها في موقع «نمرود» عاصمة آشور، فقد تبين أنها تنتمي جميعها إلى المدرسة السورية وأن معظمها قد جاء إلى آشور كأسلاب حرب، وهو ما تؤكده النصوص الآشورية التي تتحدث عن أسلاب العاجيات التي أتت بها الحملات الآشورية من بلاد الشام[٢١]..

لم تدم حياة السامرة، وفق الرواية التوراتية، أكثر من قرنين من الزمان. فبعد الهجوم الواسع الذي شنه تغلات فلاصر الثالث على مملكة اسرائيل، تلبية لاستغاثة «آحاز» ملك يهوذا الذي كان يتعرض لحملة مشتركة من دمشق والسامرة، جاء شلمنصر الخامس فحاصر السامرة عام ٧٢٤ق.م، ولكنها لم تسقط إلا في عهد خليفته صارغون الثاني عام ٧٢١ق.م، وتأتي نتائج التنقيبات الأثرية في اتفاق مع الرواية التوراتية، إذ تم العثور على طبقة سميكة من الأنقاض والحرائق تعود إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد حجبت مدينة آخاب التي لم يبق منها جدار واحد فوق الأرض. ويبدو أن الذين استوطنوا في الموقع، من الشعوب التي أحلها الآشوريون محل المسبيين، لم يُسمح لهم بالتوطن في الموقع المدمر، بل في أسفل التل، لأن الموقع قد بقي خالياً من آثار الاستيطان البشري مدة طويلة بعد ذلك[٢٢].

وبعد، إن التعرف على مدينة السامرة والكشف عن قصورها وأبنيتها الرسمية وأعمالها الفنية، هو فصل من أمتع فصول علم الآثار في فلسطين، غير أن مقاصد كتابنا هذا لا تسمح بتقديم أكثر مما قدمناه من لمحة موجزة ووافية.

21- Irene Winter, Ivory Carving, (in:From Ebla To Damascus Smisthonian Ins, Washington, 1985) PP 339-346

22- K. Kenyon, Royal Cities, Op. Cit, ch. 10.

وفي الحقيقة فان موقع السامرة هو مثال ميداني واضح عما يمكن لعلم الآثار الحديث تقديمه في مجال التعرف على موقع قديم بثقة مطلقة . ومع ذلك فان كمال الصليبي لم يتوقف أبداً عند المسألة الآثارية لموقع السامرة، بل ترك التعرف عليه كلياً لمنهجه في مقارنة أسماء الأماكن، إذ يقول : [وقد أقام ملوك اسرائيل الذين خلفوا يربعام عواصم لأنفسهم أولاً في ترصة ثم في يزرعيل ثم في السامرة. وكانت هذه الأخيرة مدينة قام ملوك اسرائيل أنفسهم ببنائها على هضبة قريبة من يزرعيل اشتروها من «شمر» . ومن هنا جاء الاسم الذي أعطوها، وهو بالعبرية «شمرون»... والأكثر احتمالاً هو أن «شمر» المالك الأصلي للهضبة التي بنيت فوقها السامرة (شمرون) لم يكن شخصاً بل قبيلة «شمران» . وقد استمر وجود اسمها في غرب شبه الجزيرة العربية إلى يومنا هذا. والأرض الحالية لشمران تضم الأراضي الداخلية من منطق القنفذة وما يليها شرقاً، وتمتد بلاد شمران هذه عبر الجرف والشق المائي إلى وادي بيشه. وكانت السامرة بلا شك، ما هو اليوم قرية شمران في منطقة القنفذة، على مسافة ما صعوداً من «آل الزرعي» أو «يزرعيل» . وللحقيقة فان شمران الحالية تقوم مميزة على هضبة وحدها، تماماً كما هي موصوفة في التوراة، وقد عانيتها بنفسي] (ص ٢٠٠ - ٢٠١).

وهكذا، ومقابل كل نتائج التنقيب الأثري في تل السامرة، فان ما يقدمه لنا الصليبي من وصف اركيولوجي لموقع «شمران» في منطقة عسير هو أنها «تقوم مميزة على هضبة وحدها، تماماً كما هي موصوفة في التوراة».

٦ - مجدو والمدن الملكية

بعد عاصمتي الشمال والجنوب، نأتي إلى ثلاث مدن ملكية أخرى أخبر عنها كتاب التوراة، وهي مدن «مجدو» و«حاصور» و«جازر»، وهذه تشترك في كونها مدناً كنعانية قديمة أعاد الملك سليمان بناءها بعد أن كانت مهجورة، وحولها إلى مراكز ادارية تابعة له مباشرة، بعيداً عن الولاءات القبلية (سفر الملوك الأول ٩ : ١٥).

مجدو:

تم التعرف على مجدو في «تل المتسلم» الذي يقع على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مدينة «حيفا» الساحلية، في الطرف الجنوبي من سلسلة الجبال التي تنتهي بجبل الكرمل. وقد بدأت التنقيبات في الموقع من قبل المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو باشراف عالم الآثار الكبير جيمس بريستد، وذلك فيما بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٩، واستمرت من بعده إلى خمسينيات هذا القرن[٢٣]. وقد دلت التنقيبات في الطبقات السفلى لموقع تل المتسلم على أن استيطان الموقع قد بدأ مع عصر البرونز الأول حوالي ٣٠٠٠

23- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, P. 335

ق . م ، ثم توسعت مجدو تدريجياً لتغـدو احـدى مدن فلسطـين الكبر ى خلال عصـر الـبر ونـز الثـاني والثـالـث[٢٤]. وقد ورد أول ذكر تاريخي لها في مراسلات مدينة «ماري» ابان القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم تواتر ذكرها بعد ذلك في سجلات الشرق القديم، مما قدمناه في الباب السابق.

في طبقـات المـوقـع العـائـدة لنهاية عصر البر ونز وبداية عصر الحديد، تتطـابق نتـائـج التنقيب الأثري مع الرواية التوراتية. فمدينة مجدو قد تهدمت وهجـرت في القـرن الثـاني عشر قبل الميلاد، وحدث في الموقع فراغ استمر إلى القـرن العاشر قبل الميلاد، أي إلى الفترة السليمانية، حيث أعيد بناء المدينة. وقـد أمكن ارجـاع سور المـدينة الجديد وتحصيناتها وبواباتها وعدد من قصورها إلى تلك الفـترة. وفيما يتعلق بالبـوابـة والأبـراج الـدفاعية المتصلة بها، وجد المنقبـون تماثـلاً تامـاً بينهـا وبـين بوابـات وأبـراج المدينتين الملكيتين الأخريين حاصـور وجـازر، وتطـابقـاً في تاريـخ بنـائهـا، مما يشير إلى أن المدن الثلاث قد بنيت من قبـل سلطـة مركـزيـة واحـدة ولغـرض واحـد. أما أسلوب البناء فكنعاني واضـح، يتـماثـل مع ما نراه بشكـل خاص في مدن فينيقيـا السـاحلية. وتظهر القصـــور الجـديـدة التي بنيت في القـرن العـاشـر تماثـلاً واضحـاً في التصميم وأسلوب البناء مع القصور التي كشف عنها في مناطق متفرقة من سورية الداخلية[٢٥].

وقـد بنيت المـدينـة لتكـون مركزاً إدارياً ملكياً، ذلك أن الأبنية التي تم الكشف عنها داخل السور كانت عبارة عن قصور ذات طابع رسمي إداري لا سكني. ورغم أن بعض الأبنيـــة السكنيـة القليلة كانت قائمـة داخـل السـور خلال الفـترة السليـمانية، إلا أنها اختفت خلال القرن التاسع بعد أن صارت

24- Ibid, pp. 66-76

25- K. Kenyon, Royal Cities, op. cit, PP.53-66

مجدو إلى المملكة الشمالية عقب الانقسام، وتم تشييد قصور جديدة تحمل نفس الطابع ابان فترة حكم الملك آخاب[٢٦].

خلال النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، تم بناء سور جديد للمدينة، وذلك خلال فتره تزايد النشاط العسكري الآشوري في بلاد الشام والحملات المتوالية على المنطقة التي أدت إلى دمار مجدو عام ٧٣٢ق.م، على ما تخبرنا به السجلات الآشورية. وهنا تتطابق تماماً في موقع مجدو البينة التاريخية مع البينة الأركيولوجية، فالطبقة الآثارية الرابعة تدمر تماماً وتغطيها طبقة من ركام الانهيارات ترجع إلى تاريخ دمار المدينة في السجلات التاريخية، ثم يعقب ذلك فترة فراغ في الموقع تستمر قرابة ثلاثة عقود ينقطع خلالها الاستيطان ويخلو التل من سكانه. وعندما يعاد بناء المدينة في الطبقة الآثارية الثالثة، نجد أن المنطقة الملكية قد زالت نهائياً وحلت محلها الأبنية السكنية العادية، كما نجد تغيراً جذرياً في تخطيط المدينة ونظمها المعمارية، مما يخالف ما كان معمولاً به في فلسطين خلال العصر الحديدي، ويقترب إلى حد كبير من تخطيط ونظم العمارة الآشورية، مما يشير إلى الحاقها بآشور. إلا أن بقايا الفخار واللقى الأخرى العائدة للطبقة نفسها تشير إلى استمرار الثقافة الكنعانية التي كانت سائدة في فلسطين[٢٧]، فالأقوام التي أحلها الآشوريون محل الأسباط العشرة التي لم تعد قط إلى فلسطين، لم تفرض على المدينة نمطاً ثقافياً جديداً، بل استوعبت بسرعة معطيات الثقافة الكنعانية وعملت على تطويرها في الاتجاه نفسه.

مجدو، هذه المدينة الكنعانية المغرقة في القدم، والتي وقع عندها الكثير من الأحداث التوراتية، لم يشر اليها الصليبي إلا في مقطعين اثنين مقتضبين لا أثر فيهما لأية معلومات اركيولوجية، ناهيك عن المعلومات التاريخية، يقول في

26- Ibid, PP. 93-101

27- Ibid, PP. 126-27, 130-32

أولهما: [مجدو هذه بالذات، الواردة في رسائل تل العمارنة، هي «مقدي» (مقد بدون تصويت) الحالية في منطقة القنفذة]. وفي الثاني يأتي ذكر مجدو عرضاً من خلال التعرض لموقع لخيش: [لخيش ليست بالتأكيد تل الدوير الفلسطينية. وترابط المكان مع جبعون ومجدو وحبر ون وعجلون التي هي اليوم آل جبعان و قدي والخربان وعجلان في منطقة القنفذة وجوارها العام، يشير بشكل مميز إلى أن لخيش هي آل قياس، أو قياسة، أو بني قيس في الجوار ذاته] (ص ١١٩ و٢٠٣).

حاصور:

تقع حاصور، ثاني المدن الملكية، في وادي الأردن بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية. وقد كشفت حملة التنقيب الأخيرة التي جرت بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٨ عن الجزء الأكبر من المدينة (تحت تل القدح)، وتبين أنها تعود إلى عصر البرونز المبكر حوالي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، واستمرت قائمة مع بعض الفجوات والانقطاعات حتى العصر الهلنستي[٢٨]، وقد ورد اسم المدينة في سجلات مدينة ماري منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك في رسائل تل العمارنة والسجلات المصرية اللاحقة مما بيناه في الباب الأول آنفاً.

وقد دلت نتائج التنقيب في الموقع على أن المدينة قد دمرت خلال القرن الثالث عشر، وبقيت مهجورة حتى القرن العاشر قبل الميلاد. ولكنها انتعشت بشكل فجائي أواسط القرن العاشر حيث أعيد بناؤها وتحصينها بطريقة مشابهة لمدينة مجدو. ولم تكن تضم سوى منطقة ملكية ذات أبنية ادارية كبيرة. وعندما انتقلت المدينة إلى المملكة الشمالية، حافظت على طابعها العام كمقر

28- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, P 329

اداري ملكي ، وأضاف إليها حكام السامرة أبنية ادارية فخمة ومعظمها يعود إلى فترة حكم آخاب ، ابن عمري . غير أن الطابع الملكي الاداري قد أخذ بالاختفاء في أواسط القرن الثامن ، حيث حلت البيوت السكنية والحوانيت محل عدد من الأبنية الادارية السابقة . الأمر الذي يشير إلى ضعف السلطة المركزية القائمة في السامرة(٢٩).

وكما هو الحال في مجدو، فقد بني في حاصور سور جديد أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، يشابه في تصميمه وطريقة بنائه سور مجدو الذي أقيم في حوالي التاريخ نفسه تقريباً للدفاع ضد الاجتياحات الآشورية . وقد كانت حاصور من أوائل المدن الساقطة حيث دمرت عام ٧٣٣ . وقد كشفت التنقيبات في الطبقة الآثارية الثامنة عن دمار شبه كامل للمدينة يرجع إلى التاريخ نفسه ، تلتها فترة تراجع سكني وعمراني طويلة(٣٠).

ومن الجدير بالذكر، أن كمال الصليبي لم يأت على ذكر هذا الموقع الفلسطيني الهام في كتابه ، ولم يعثر له على مقابل في غرب العربية .

جازر:

تم التعرف على جازر في تل أبو شوشة الذي يقع على مسافة ١٨ ميلاً إلى الشمال الغربي من القدس . وقد بدأ التنقيب في الموقع ، لحساب «صندوق اكتشاف فلسطين» ببريطانيا ، البروفيسور Macalister عام ١٩٠٢ ، فقام بحملتين تنقيبيتين الأولى من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٥ ، والثانية من عام ١٩٠٧ إلى ١٩٠٩ . تلى ذلك حملة ثالثة عام ١٩٣٤ باشراف السيد Alan Rowe ، ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٦٤ حيث قاد الدكتور

29- K. Konyon, The Royal Cites, op. cit, PP. 53-58, 69, 105-10, 127

30- Ibid, PP. 128, 132

W.G. Dever الحملة الأخيرة بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٣ . وقد دلت نتائج التنقيب على وجود تجمع سكني بسيط منذ العصر النحاسي، استمر إلى عصر البرونز المبكر، ثم تحول الموقع مع مطلع عصر البرونز الوسيط إلى مدينة كبيرة محصنة أواسط القرن السابع عشر قبل الميلاد. غير أن هذه المدينة قد دمرت وهجرت قرابة نصف قرن، ويتوافق تاريخ التدمير مع حملة تحوتمس الثالث على فلسطين عام ١٤٨١، مما يرجح مسؤولية هذه الحملة عن تدمير جازر. ثم بنيت المدينة مجدداً خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واستمرت مزدهرة إلى القرن العاشر حيث دمرت مجدداً[٣١].

يتطابق دمار القرن العاشر في جازر مع التاريخ التوراتي لتدمير المدينة على يد فرعون مصر الذي صعد إلى فلسطين ودمر جازر وقدمها مهراً لابنته التي زوجها إلى الملك سليمان. وقد أعاد سليمان بناء المدينة وضمها إلى مملكته، على ما نقرأ في سفر الملوك الأول ٩ : ١٦ - ١٧ [صعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان] وتدل نتائج التنقيب الأثري على أن المدينة المدمرة قد أعيد بناؤها عقب خرابها، وأقيمت لها بوابات وتحصينات مشابهة في التصميم وأسلوب العمارة لما هو موجود في المدينتين الملكيتين الأخريين مجدو وحاصور. وقد استمرت المدينة في حالة ازدهار حتى الاجتياح الآشوري في آخر القرن الثامن الذي ترك آثاراً تدميرية واضحة في المدينة. وهناك آثار تدمير أخرى تعود إلى مطلع القرن السادس تتطابق مع اجتياح نبوخذ نصر لمملكة يهوذا[٣٢].

هذا الموقع الكنعاني الهام الذي يضرب بجذوره إلى ما وراء بدايات التاريخ المكتوب، لم يشر اليه الصليبي إلا عرضاً وفي موضع واحد من كتابه،

31- K. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, op.cit, PP. 326-27

32 - Ibid p 327.

- K. Kenyon, Royal Cities, op. cit, p. 69.

حيث وجد له ثلاثة أمكنة محتملة في غرب العربية، فهو إما «الغَزَر» في وادي أضم، أو «الغَـزَرَه» في منطقة جيزان، أو «غـزيـر» في مرتفعـات غامـد (ص ١١٨). وبـذلـك ينتقل الصليبي من وادي أضم ومـرتفعـات غامد في أقصى شمال عسير إلى جيزان في أقصى الجنوب عند حدود اليمن، بحثاً عن جازر التـوراتيـة، وهـو الـذي قال في مقـدمتـه النظـريـة المقتضبـة عن المسألة الأركيـولـوجيـة للتـوراة: [وحتى في الحـالات القليلة التي تحمـل فيهـا مواقـع فلسطينيـة أسـماء توراتيـة، فان الاحـداثيـات المعطـاة في النصـوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في إطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النسبية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية] (ص ٥٠ - ٥١).

قبـل أن نغـادر مدينـة جازر، نود أن نلفت النظر إلى مسألة هامة تتعلق بمنهجنا في اعتماد الرواية التوراتية. فلقد انطلقنا منذ البداية من موقف شكوك بالخبر التوراتي، إلى أن يتقاطع مع الحدث التاريخي الثابت أو مع نتائج علم الآثـار الحـديث. وحتى في حال حدوث مثل هذا التقاطع، فانه يتوجب على البـاحث أن يفـرز المعلومـة التـاريخيـة التي يحملها الخبر التوراتي عن أرضيتها الملحميـة والأسطـورية، وعن شبكة المعلومات المتضاربة التي قد تقدم ضمنها هذه المعلومـة التـاريخيـة. ولنـا في خبر تدمير فرعون مصر لجازر وتقديمها مهراً لابنته زوجة سليمان خير مثال على ذلك.

ففي هذه الرواية التوراتية هناك معلومة أمكن لعلم الآثار التثبت منها، وهي تدمـير جازر في القـرن العـاشر واعادة بنائها باسلوب مشابه لمدن سليمان الملكيـة الأخـرى. ولما كان من غير المعقول أن يقوم سليمان بتدمير مدينة تابعة له ويعيـد بنـاءهـا بعـد ذلـك، فان من الممكن جداً أن يكون فرعون مصر قد أخذها وتنازل عنها لسليمان الذي لم يكن قادراً حتى ذلك الوقت على اكتساب أطراف أرض كنعان بقواه الذاتية. ومن الممكن أكثر أن يكون سليمان هو الذي أعاد بناءها، لأن تاريخ خراب المدينة وتاريخ اعادة بنائها يقعان حوالي النصف الثـاني من القـرن العـاشـر أي إبـان حكم الملك سليـمان. إلا أن هذه الرواية

تحتوي على عنصر ملحمي وعلى تناقض إخباري. أما العنصر الملحمي فهو زواج الملك سليمان من ابنة فرعون مصر. وتجشم هذا الفرعون مشاق الصعود إلى كنعان وتدمير مدينة من أجل مهر ابنته. فمن المعروف تاريخياً أن فراعنة مصر لم يزوجوا أبداً اميرة مصرية إلى أحد من ملوك الدول الكبرى التي عاصرتهم، وذلك انطلاقاً من تقليد راسخ وموقف متعال على بقية الشعوب التي ينعتونها بالبر برية، فكيف يخرجون على هذا التقليد من أجل ملك يحكم بقعة صغيرة واقعة تحت النفوذ المصري. وهناك قصة ذات دلالة كبيرة في هذا المجال يرويها المؤرخ الاغريقي «هير ودوتس» عن سبب اجتياح «قمبيز» خليفة «قورش» الفارسي مصر في القرن السادس قبل الميلاد، أي إبان فترة انحلال الحضارة المصرية وتقلص نفوذ المملكة السياسي إلى حده الأدنى، فيقول ان قمبيز طلب الزواج من ابنة فرعون مصر، ولكن الفرعون ارسل اليه من بنات البلاط أكثرهن جمالاً مدعياً أنها ابنته. وعندما عرف قمبيز الحقيقة شن حملته الشهيرة على مصر واحتلها من أقصاها إلى أقصاها[٣٢].

وأما التناقض الإخباري في مسألة جازر وفرعون مصر، فيكمن في أن الروايات التوراتية السابقة قد قدمت معلومات متضاربة حول هذه المدينة. ففي سفر يشوع ٢١ : ٢٢ وأخبار الأيام الأول ٦ : ٦٧، يرد أن مدينة جازر قد أعطيت لبني قهات من اللاويين. وفي يشوع ١٦ : ١٠ يرد أن الاسرائيليين لم يقدروا على طرد الكنعانيين منها فسكنوا معهم. وفي القضاة ١ : ٢٩، نجد أن الكنعانيين كانوا فيها عبيداً تحت الجزية. وأخيراً نجدها مدينة كنعانية مستقلة لم تقدر قوة المملكة الموحدة المزعومة وضعها تحت سيطر السلطة المركزية في أورشليم إلا بمعونة جيش أجنبي، وهو الخبر الأصح عن جازر، لأنه لو كان

32- تاريخ هير ودوتس، ترجمة حبيب أفندي بسترس، مطبعة القديس جاورجيوس بير وت ١٨٨٦، ص ص ١٩٤ - ١٩٥.

فيها اسرائيليون يعيشون إلى جانب الكنعانيين لما سمح سليمان بتدميرها، ولما تجشم الفرعون مشقة الصعود اليها ومساعدة الملك سليمان على أهلها.

من هنا فان الخبر التاريخي المؤكد الذي تقدمه الرواية التوراتية بعد اختبارها على محك البينة الأركيولوجية، هو أن فرعون مصر، في فترة انحسار النفوذ المصري عن بلاد الشام وصعود قوة آشور، قد حاول تقوية دولة صغيرة قامت على حدوده، لتكون خطاً دفاعياً متقدماً له في وجه القوات الآشورية التي كانت قد بدأت حملاتها المتفرقة على بلاد الشام. ومما يؤكد نجاح هذه الاستراتيجية المصرية، هو ما رأيناه من استنجاد ملوك يهوذا الذين خلفوا سليمان، بمصر، كلما حاق بهم الخطر الآشوري، واستعداد مصر الدائم لقتال الآشوريين في أرض فلسطين. وقد دمر الفرعون مدينة جازر وجوارها وأعطاها لسليمان الذي أعاد بناءها وضمها إلى مملكته.

هذا وسيكون لنا وقفة أطول في فصل قادم مستقل يعالج مسألة تاريخية الرواية التوراتية.

* * *

بعد السامرة وأورشليم والمدن الملكية الثلاث، نتابع بسط البينة الأركيولوجية من خلال عدد آخر من المواقع الكنعانية.

بيت شان:

تم التعرف على «بيت شان» قرب مدينة «بيسان» الحالية في فلسطين، وذلك في الحملة التنقيبية التي نظمتها جامعةٌ بنسلفانيا في ثلاثينيات هذا القرن باشراف السيد A. Rowe . وقد بينت التنقيبات أن الموقع كان مسكوناً منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ثم ظهرت المدينة المسورة التي بلغت أوج ازدهارها إبان القرن الرابع عشر قبل الميلاد. ولعل أكثر مكتشفات بيت شان إثارة

للانتباه، سلسلة من المعابد الكنعانية المتوضعة فوق بعضها في طبقات آثارية متتالية. يرجع المعبد الأول في تاريخه إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يليه آخر يرجع إلى الفترة ما بين ١٣٠٠ و ١١٥٠ ق.م ويظهر في تصميمه وعمارته تأثراً بالمعابد المصرية الصغيرة من فترة تل العمارنة. وقد عثر في حرم المعبد على تماثيل لآلهة كنعانية ومصرية، مما يشير إلى عبادة مختلطة مصرية كنعانية وإلى نفوذ مصري واضح، ولربما إلى وجود حاميات مصرية كانت تقيم بشكل دائم هناك منذ عهد سيتي الأول. يلي هذا معبد ثالث يرجع إلى الفترة الاسرائيلية، ورابع إلى الفترة الهلنستية، وأخيراً كنيسة بيزنطية(٣٣).

ويؤكد قوة النفوذ المصري في بيت شان (كما فصلنا اثناء دراستنا للسجلات المصرية) العثور على نصب تذكاري تركه الفرعون سيتي الأول (١٣٠٢ - ١٢٩٠ق.م) في الموقع، يذكر فيه أنه قد صد عن بيت شان جحافل الأعداء وأجبرهم على التراجع، وتمثال لرمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ق.م) مع نص تركه أحد قادة هذا الفرعون، يذكر أنه قد وصل بقواته إلى شمال فلسطين وهو يطارد فلول شعوب البحر. يضاف إلى ذلك عدد من النقوش الهيروغليفية الأبكر ترجع إلى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م).

في الطبقة الآثارية الخامسة التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد تظهر مجموعة من الأبنية الجديدة بعضها ذو طابع رسمي، تشابه في أسلوب البناء ونوع الحجارة المنحوتة المستخدمة أبنية المدن الملكية الثلاث، مما يشير إلى أن السلطة المركزية قد أولت هذه المدينة عناية خاصة. وفي عهد المملكة المنقسمة تتبع بيت شان إلى المملكة الشمالية، ويتزايد فيها عدد الأبنية ذات الطابع الاداري(٣٤). ويبدو أن بيت شان قد نجت بطريقة ما من التدمير

33- K. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, op. cit, PP. 197,320-21

34- Ibid, PP. 227-229, 251-252,273

الأشوري الذي نال من معظم المراكز الحضرية للمملكة الشمالية، إذ لا تظهر التنقيبات في الموقع آثار دمار يرجع إلى تاريخ الاجتياح الآشوري.

وهكذا تجتمع في موقع بيت شان كل البينات المعاكسة لنظرية كمال الصليبي. فاسم الموقع قديم قدم سكناه، وقد وجد مكتوباً في الوثائق التي عثر عليها بين انقاض المدينة، ولا علاقة لليهود النازحين إلى فلسطين بتسميته تيمناً بموقع قديم في غرب العربية كما يرى الصليبي، واللقى المصرية التي وجدت في الموقع من نصب وتماثيل ونقوش تثبت أن مسرح السجلات التاريخية المصرية هو بلاد الشام لا غرب العربية، ونتائج التنقيب الأركيولوجي تتفق مع الروايات المصرية والآشورية. ومع ذلك ودون توقف عند هذه الحقائق، ينقل الصليبي بيت شان إلى منطقة الطائف فيجدها في قرية «الشنية»، وذلك في حاشية صغيرة مقتضبة (ص ٢٠٩ الحاشية ٣).

بيت شمس:

تم التعرف على «بيت شمس» في تل «عين شمس» إلى الغرب من مدينة القدس، وفي منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط. وقد تم التنقيب في الموقع لأول مرة من قبل «صندوق اكتشاف فلسطين» ببريطانيا وذلك بين عامي ١٩١١ و١٩١٢. ثم قامت المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية بالقدس بالحملة التنقيبية الثانية وذلك بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣١. وقد تبين أن المدينة قد تأسست في عصر البرونز الوسيط، أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، واستمرت إلى عصر الحديد الثاني أواسط الألف الأول قبل الميلاد(٣٥).

ورغم أن النص التوراتي قد اعتبرها الحد الغربي لبني اسرائيل في مواجهة الفلستيين مع سكان الساحل، فإن الطبقة الآثارية العائدة إلى القرن

35- Ibid, P. 321

الثـاني عشـر قبـل الميلاد تظهر أن المدينة كانت تحت سيطرة الفلستيين، وذلك لشيوع الخزف الفلستي فيها. وقد دمرت المدينة في أواخر القرن الحادي عشر، وهي الفترة التي عرفت الحروب الطاحنة بين الفلستيين وشاول أول ملوك بني اسرائيل، وبعد اعادة بناء المدينة تم تدميرها مجدداً حوالي عام ١٠٠٠ ق.م، وهي فترة الصراع بين الملك داود الذي خلف شاول والفلستيين. وعندما أعيد بنـاء المـدينـة، غاب عنهـا الطـابـع الفلستي وساد الطابع الكنعاني المميز لمدن فلسطـين في تلك الفـترة، وبعـد انقسـام السلطـة السياسية في اورشليم على نفسها، استمرت بيت شمس كجزء من مملكة يهوذا الجنوبية[٣٦].

بعـد الاجتيـاح الأشـوري الكبـير لفلسطـين وسقـوط مملكـة اسرائيل بكاملها في يد الأشوريين فيما بين ٧٣٤ و٧٢٠ق.م، بقيت مملكة يهوذا، التي حرضت الأشـوريـين على جيرانهـا الشماليين، في حالة استقلال شكلي حتى عام ٧٠٥ ق.م عندما توجه اليها سنحاريب لتأديب ملكها حزقيا الذي توقف عن دفـع الجـزية بوعود وتحريض من مصر. فاجتاح سنحاريب كل مدن يهوذا ودمـر وأحـرق معظمهـا وحـاصـر اورشليم طويـلاً ثم ارتـد عنها قانعاً بالأتاوة البـاهظـة التي قدمها حزقيا. وكانت بيت شمس من المدن التي تلقت ضربات سنحـاريب الأليمـة، حيث أظهـرت التنقيبـات في الطبقـة العـائدة إلى ذلك التاريخ دماراً كاملاً للمدينة وحرائق شاملة. ثم أعيد بناء المدينة مجدداً ولكنها لم تكمـل قرنـاً آخر من حياتها حيث دمرت مجدداً في مطلع القرن السادس قبل الميلاد، في تاريخ يتطابق وحملة نبوخذ نصر الذي قضى على أورشليم ومملكة يهوذا عام ٥٨٧ق.م[٣٧].

لم ترد مدينـة بيت شمس في كتـاب الصليبي، ولم يقـترح موقعـاً لها في غرب العربية.

36- Ibid, PP. 231-32, 252

37- Ibid, PP. 289-299

شكيم :

تم التعرف على شكيم في «تل بلاطة» قرب نابلس الحديثة، وذلك في الحملة التنقيبية الأولى التي جرت بين عامي ١٩١٣ و١٩٣٤ باشراف الدكتور E. Sellin والدكتور G.Waiter . وبعد فترة من التوقف، تابع التنقيب الدكتور G.E.Wright بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٤ . وقد بينت النتائج أن الموقع كان مسكوناً منذ العصر الحجري الحديث، إلا أن المدينة المسورة لم تظهر إلا في عصر البرونز الوسيط، في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.وقد دمرت المدينة في نهاية عصر البرونز الوسيط أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها في عصر البرونز الأخير، وكانت ذات شأن في فترة تل العمارنة، حيث ظهر اسمها واسم ملكها «لابايو» في المراسلات بين حكام فلسطين وفينيقيا من جهة، وفرعون مصر من جهة أخرى. وقد دمرت المدينة مجدداً في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولم يعد بناؤها إلا في القرن العاشر قبل الميلاد. وقد استمرت جزءاً من مملكة اسرائيل الشمالية إلى حين الاجتياح الآشوري، حيث دمرت هذه الطبقة الأثارية تماماً حوالي عام ٧٢٠ق.م، أي حوالي التاريخ الذي دمرت فيه مدينة السامرة عاصمة المملكة. وقد أعقب ذلك فترة فراغ في الاستيطان استمر إلى عام ٣٣١ حيث نهضت المدينة مجدداً وصارت مركزاً للفئة الدينية اليهودية المنشقة المعروفة بالسامريين[٣٨] وعندما أعاد الرومان بناء المدينة بعد خرابها أثناء القضاء على الفتن اليهودية، أسموها «فلافيا نيابوليس»[*] أي المدينة الجديدة، ومنه جاء اسم نابلس.

38- Ibid, PP. 341-42

* ـ «فيلافيا نيابوليس». Flavia Neupolis ، أي المدينة الفلافية الجديدة، نسبة الى الامبراطور، «فسباسيان» مؤسس السلالة الفلافية التي ضمت ثلاثة أباطرة هم فسباسيان، تيتوس، دوميتان، وحكمت من عام ٧١ الى عام ٩٦ ميلادية.

ويقترح الصليبي مكانين محتملين لشكيم. فهي إما «سقامة» الحالية في وادي سقامة على المنحدرات الجنوبية الغربية من بلاد زهران، أو «القاسم» الحالية في منطقة القنفذة، ويبعد الموقعين عن بعضهما حوالي ٢٠٠ كم.

لخيش:

تم التعرف على «لخيش» في «تل الدوير» غرب مدينة «الخليل» في منتصف المسافة تقريباً بينها وبين البحر. بدأت الحملة التنقيبية الأولى بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٧ باشراف السير H.Wellcome والسير Ch. Marston. ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٧٣ حيث بدأ مجدداً باشراف الدكتور D.ussishkin. وقد بينت نتائج التنقيب أن الاستيطان في الموقع قد ابتدأ في العصر النحاسي، واستمر بشكله البسيط إلى عصر البرونز الوسيط حيث ظهرت المدينة المسّورة مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وقد تم تدمير هذه المدينة في أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الثاني عشر. وربما كان المسؤول عن ذلك شعوب البحر أثناء تقدمهم نحو مصر، أو الفرعون رمسيس الثالث الذي صد هجومهم وطاردهم إلى أرض فلسطين. وقد بنيت المدينة مجدداً بعد ذلك، وهناك آثار سور جديد يعود إلى أواخر القرن العاشر. وربما كان هو السور الذي بناه رحبعام أثناء تحصينه للمدينة في وجه حملة شيشانق الأول (انظر أخبار الأيام الثاني ١١ : ٥ ـ ١١). وقد بقي هذا السور قائماً حتى دمار المدينة على يد الآشوريين[٣٩].

في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، تظهر في الطبقة الآثارية العائدة إلى هذا التاريخ آثار حرائق ودمار شامل، وقد كان هذا من فعل سنحاريب الذي غزا مدن يهوذا عام ٧٠٥. فالنصوص الآشورية تتحدث عن حصار لخيش

39- Ibid, PP. 331-32, 206-227, 281

والقضـاء عليهـا من قبـل سنحاريب، كما تصور احدى المنحوتات البارزة التي عثـر عليهـا في مدينـة نمـرود بآشـور حصـار مدينـة لخيش. وتتقـاطع الأخبار الآشورية مع الروايات التوراتية حول حصار المدينة مما يمكن مراجعته في سفر الملوك الثـاني ١٨ : ١٤ و١٧ . وأخبـار الأيـام الثـاني ٣٢ : ٩ . وأشعيا ٣٦ : ٢ و ٣٧ : ٨ . وقـد عثـر المنقبـون بين أنقـاض هذه الطبقـة الآثـاريـة على أسلحة آشــوريـــة كانت مستخـــدمـــة في تلك الفـترة، وعلى خوذات حربيـة مماثلة للخوذات التي يضعها الجنود في نحت النمرود الذي يصور حصار لخيش[٤٠] .

ثم بنيت المـدينـة مجدداً واستمـرت جزءاً من مملكـة يهوذا، بعـد تراجع سنحـاريب. ولكنهـا دمـرت بعـد قرابة قرن من الزمان إبان حملتي نبوخذ نصر على يهوذا بين عامي ٥٩٨ و٥٨٧ق.م (انظر سفر الملوك الثاني ٢٤ و ٢٥ وارميا ٣٤، والنص البابلي في الصفحة ١٢١ سابقاً). وتظهـر التنقيبـات في الطبقـة العائدة لهذه الفترة، آثار دمار كبير وحرائق هائلة، وجثث نالت منها النيران قد دفنت بالآلاف في مقابر جماعية وفي الكثير منها آثار الاصابات الحربية. وتتشابه هذه البينـات الآثـاريـة في لخيش مع ما تم اكتشافه في مدن يهوذا الأخرى التي دمر معظمها وأكثرها لم يعد سيرته الأولى[٤١] .

وقـد عثـر المنقبـون في غرفـة الحـراسـة المتصلة ببـوابة سور لخيش على مجمـوعـة من الـرسائل موجهة من قائد قوة عسكرية إلى سيده. والنصوص في حالـة سيئـة جداً بسبب الانهيـارات والحـرائق التي حلت ببـوابـة السور حيث حفظت إلى قرننـا هذا، مما جعل قراءتها وتفسيرها موضع خلاف بين العلماء. وقـد ورد في الـرسـالـة الـرابعـة ذكـر لمدينـة لخيش ومدينة عزيقة وهما المدينتان الحصينتـان اللتـان صمـدتا حتى النهاية أمام جيوش نبوخذ. نصر وكانتا آخر ما

40- Ibid, P.290

41- Ibid, PP. 299-231, 305-06

W.F. Albright, Palistenian Inscriptions (in:Ancient Near Eastern Texts, op. cit) P.322

سقط. فنقرأ في إرميا ٣٤: ٦ - ٧ [فكلم ارميا النبي، صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام في أورشليم، إذ كان جيش ملك بابل يحارب أورشليم وكل مدن يهوذا الباقية: لخيش وعزيقة، لأن هاتين بقيتا في مدن يهوذا مدينتين محصنتين].

وقد ورد في نهاية الرسالة الرابعة المنوه عنها أعلاه ما يلي: [.. وليعلم سيدي أننا نترقب إشارات لخيش، وفق كل المؤشرات التي أعطاها سيدي، لأننا لا نرى عزيقة][٤٢]. والجو العام لهذا النص يوحي بأن قائد القوة العسكرية ينتظر اشارات من جهة مدينة لخيش لأن مدينة عزيقة قد سقطت. غير أن لكمال الصليبي وجهة نظر أخرى في هذا النص الواضح إلى درجة معقولة، فهو يرى أن كلمة «لخيش» يجب أن تجزأ إلى «ل» باعتبارها حرف جر و«كيش» كاسم مشتق من «كشه» أي امتلأ أو شبع بالطعام. وأن كلمة اشارات - التي هي بالكنعانية« مس ء ت» وتعني في الأصل «ارتفاعات أو صعودات» وفسرها مترجمو النص على أنها اشارات ناجمة عن صعود الدخان - يجب أن تفسر على أنها حمولات لأن الفعل «نس ء» يعني أيضاً «حَمَلَ» وعليه فالأقرب أن تكون كلمة «مس ء ء» هي اسم الفعل من «نس ء» وتعني «حموله» وليس صعوداً أو ارتفاعاً. أما كلمة «مؤشرات» بالكنعانية «ء تت» من الفعل «ء ته» الذي يجب أن يقارن برأيه بالفعل العربي «أتا» ومنه أتت الشجرة أي طلع ثمرها وكثر حملها، لتغدو الكلمة «أتاوات» بدل «المؤشرات» أو «الدلالات». أما كلمة «عزيقة» التي لم يستطع شطرها إلى قسمين كما فعل في «ل - كيش» فيرى فيها اسم رجل لا اسم مدينة. وعليه تصبح ترجمة النص بعد كل هذه الاجتهادات المتطرفة وتشطير الكلمات والاستعانة باللغة العربية كما يلي: [ليعرف مولاي أننا ننتظر حمولات الطعام وكذلك كل الأتاوات التي

42- W. F. Albright, Palestenian Inscriptions (In: Ancient Near Eastern Texts, op. cit) p. 322.

أعطـاهـا مولاي، لأننـا لا نستطيـع رؤيـة (السيـد) عزيقـة]. (ص ١٠٩ - ١١٠). بعد ذلك يغفل عن اعطائنا مكاناً للخيش في غرب العربية.

* * *

نكتفي بهذا القـدر من المسـح الأركيـولوجي للمواقع الكنعانية، فقائمة المـواقـع طويلة، وغـرض هذا الكتـاب لا يسمـح بأكثر مما جرى عرضـه من بينات. وسننتقل في الفصل التالي إلى ساحل فلسطين الذي استقبل موجة من شعـوب البحـر استـوطنتـه وعاصرت الفترة المؤقتة والعابرة للسيطرة السياسية الاسرائيلية على أرض كنعان، ثم ذابت تدريجياً في بحر كنعان، عرقياً وحضارياً.

٧ـ مـــاذا عن الفلستيـــين

في أواخـر القـرن الثـالث عشـر قبـل الميلاد، تعرضت الحضارة المسّينية(*) على الـبر اليـونـاني إلى سلسلة من الهجـمات الـبر بـريـة دمـرت كل مراكزها الحضـريـة الهـامة، وأدت إلى تشتت أهلها في الأصقاع المجاورة، وكمون المد الحضـاري في اليـونـان وفي جزر بحر ايجة التي تعرضت للخطر ذاته . ويبدو أن ضغـط الـبرابـرة على اليـونـان وحضـارة بحـر ايجه، قد أدى إلى سلسلة من تحركـات الشعـوب الغالبة منها والمغلوبة ، بحثاً عن مواطن جديدة للاستقرار بعيـداً عن عالم قد تم تهديمـه تمامـاً، وعمتـه الفـوضى والاضطـراب والفقـر المدقع . وقد وصلت طلائع هذه الفئات الهائمة إلى شمالي أفريقيا وتعاونت مع الليبيين الذين كانوا يتربصون منذ زمن للانقضاض على مصر، فتقدموا جميعاً نحـو الـدلتـا في محاولـة للاستقـرار فيهـا . ولكن الفـرعون «مرنفتاح» استطاع القضاء عليهم وردهم عن حدود مصر البرية والبحرية عام ١٢٢٠ق.م .

وفي الوقت نفسه تقدمت حملة أخرى من نقطة ما من الأرخبيل الإيجي فحطت على شواطيء آسيـا الصغـرى ودمـرت المملكـة الحثيـة التي لم يقم لها قائمـة بعـد ذلـك ، ثم توجهت نحـو بلاد الشام فسقطت أمامها ممالك سورية

---

* ـ نستعمـل هنـا كلمـة «مسّيني»، و«مسّينيـة» كترجمـة لكلمة «Mycenaen» المنسوبة الى مدينـة «Mycenae» ، وذلـك جريـاً على المصطلح الشـائـع في المـراجـع العربية الى وقت قريب . إلا أننا نود التنبيه الى أن مصطلح «موكيني» و«موكينيه» قد بدأ يحل في العربية محل الأول، وهو الأصح .

الشمالية من أوغاريت إلى كركميش. بعد ذلك تقدمت هذه الشعوب نحو أواسط سورية حيث أقامت لها محطة مستقرة في مملكة «آمورو» تحفزاً للانقضاض مرة أخرى على مصر، أسمن الطرائد في ذلك العصر. وفي طريقها إلى مصر اشاعت الدمار في ممالك الدويلات الفلسطينية، ولكن المصريين استطاعوا ردهم للمرة الثانية عن حدودهم، إذ قام الفرعون رمسيس الثالث بتشتيتهم والقضاء عليهم نهائياً كقوة ضاربة قادرة على التحرك العسكري، وذلك حوالي عام ١١٩١ق.م. ومنذ ذلك الوقت اختفى ذكرهم من التاريخ.

وقد دعيت هذه الموجات التي غزت بلاد الشرق الأدنى القديم بشعوب البحر، لأن مصدر انطلاقها كان من جزر بحر ايجة على ما تذكره السجلات المصرية. فمن سجل حملة رمسيس الثالث، نعرف أن خمسة شعوب انطلقت من جزرها الشمالية هي: «التجاكر» و«الوشوش» و«الشيكليش» و «البيلست» و«الدينيان»، فقضت على «حاتي» و«كود» و«كركميش» ثم تقدمت إلى مصر من امورو. ولكن الفرعون بادرها بالتحرك نحو بلاد «زاهي» حيث شتتهم واستأصل شأفتهم إلى الأبد[٤٢]. وقد أمكن لعلم الآثار تتبع تحركات شعوب البحر، من خرائب الحضارة الميسينية في اليونان إلى الدمار الفاجع للملكة الحثية في آسيا الصغرى إلى اوغاريت وكركميش وبقية دويلات ممالك بلاد الشام. ونظراً لعدم اهتمام مصر بمناطق نفوذها السابقة في بلاد الشام، فقد قامت بعض الفئات التي شتتها رمسيس الثالث بالتوطن في مناطق الساحل السوري، ومنهم البيلست الذين أسسوا لهم خمس مدن على

42- J.A. Wilson, Egyptian Historical Texts (In. Ancient Near Estern Texs , Op. c't PP. 262-263

ساحل فلسطين. وهم المعروفون في التوراة باسم «الفيليست» أو «الفلستيين»*.

هذه باختصار أخبار شعوب البحر التي أتت بالفلستيين التوراتيين إلى بلاد كنعان. فماذا قال كمال الصليبي في أمر الفلستيين؟ أفرد الصليبي لهذه المسألة فصلاً خاصاً بعنوان: ماذا عن الفلستيين، يقول في مقدمته، وقبل الدخول في مقارناته اللغوية، ما يلي:

[الفلستيون، بين شعوب العهد القديم، هم الأكثر وضوحاً والأكثر اثارة للحيرة في آن معاً. وإثارتهم للحيرة لا تبدو مبعث دهشة، إذ أن الباحثين دأبوا على البحث عن موطنهم التوراتي في المكان الخطأ. ولأنه أشير إلى الفلستيين في بعض الفقرات على أنهم «كريتيون» (كرتي، نسبة إلى كرت)، فقد ساد الإعتقاد بأنهم كانوا في الأصل «شعب بحر» من أصل عرقي غامض توطن أصلاً في جزيرة كريت في البحر المتوسط، ثم انتقل إلى هناك واستقر في ساحل فلسطين. والأمر المؤكد هو أن الفلستيين الذين تتحدث عنهم التوراة العبرية لم يكونوا فلستيو فلسطين، ولا هم أتوا على كل حال من جزيرة كريت. ولا بد أن كرت التوراتية (صموئيل الأول ٣٠: ١٤، صفنيا ٢: ٤ - ٥، حزقيا ٢٥: ١٥ - ١٦) كانت وادي «كريت» (كرث)، وهو رافد لوادي «تيه» في مرتفعات رجال ألمع، وهناك واحة تسمى «الكراث» (كرث) في وادي بيشه، حيث هناك أيضاً قرية تسمى «الفلسة» (قارن مع العبرية فلشت التي يكون جمع النسبة اليها فلشتيم أي فلستيين)] (ص ٢٤٥ - ٢٤٦).

وبعد أن يجد لكل مدينة من مدن الفلستيين الخمس مكانها في غرب العربية، ينتهي إلى القول: [ومهما كانت الأماكن الأخرى التي وجد فيها الفلستيون التوراتيون، فقد كانت لهم مدنهم الرئيسية في الجانب البحري من

---

* - الفلسطينيون في الترجمات العربية للتوراة، كلمة غير دقيقة الترجمة ومتأثرة بالاسم الحالي لفلسطين باللغة العربية.

عسير وجنوب الحجاز. . وذلك حتى زمن ملوك اسرائيل الأوائل الذين قضوا عليهم أو على وجودهم المستقل في تلك المناطق. (وربما كان في ذلك ما يفسر هجرة الفلستيين إلى الشام حيث أعطوا اسمهم لأرض فلسطين)، وقد كانت أراضيهم هناك متداخلة مع أراضي بني اسرائيل والشعوب المحلية الأخرى. وليس في التوراة العبرية ما يفيد بأنهم كانوا في الأصل مستوطنين غرباء في البلاد، وصلوا إليها كأهل بحر من الخارج. وهذا الرأي ما هو إلا من تصور الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يسنده إطلاقاً. .] (ص ٢٥٣ - ٢٥٤).

والحقيقة، فان السند الذي لا يتصور الصليبي وجوده اطلاقاً، يأتي من النصوص التوراتية ذاتها، ومن مقاطع أغفل الصليبي الاشارة إليها تماماً. فاضافة إلى وصف التوراة للفلستيين بأنهم كريتيون كما هو الأمر في سفر صفنيا ٢ : ٤ - ٥ وحزقيا ٢٥ : ١٥ - ١٦، فانه ينسبهم إلى جزيرة «كفتور» وهو الاسم التبادلي، في التوراة، لجزيرة كريت المعروفة في البحر المتوسط. نقرأ في سفر إرميا ٤٧ : ٤ [بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين، لينقرض من صور وصيدون كل بقية تُعين، لأن الرب يهلك الفلسطينيين، بقية جزيرة كفتور]، فهم إذن أهل بحر أتوا من جزيرة. وكذلك هم غرباء عن كنعان أتوا اليها من الخارج شأنهم في ذلك شأن الاسرائيليين، نقرأ في سفر عاموس ٩ : ٧ [ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر؟ والفلسطينيين من كفتور؟]. وفي سفر التثنية ٢ : ٢٣ [. . والعويون الساكنون في القرى إلى غزة، أبادهم الكفتوريون الذين خرجوا من كفتور وسكنوا مكانهم].

وكفتور هذه، لم ترد في التوراة فقط بل في العديد من نصوص الشرق القديم. ففي اسطورة بعل وعناة الأوغاريتية تبعث الإلهة «عشيرة» برسولها إلى كفتور، التي هي كريت في نصوص أوغاريت، لاحضار اله الحرف والصناعة من هناك ليبني بيتاً للإله بعل(٤٣). كما ترد كفتور في النصوص المصرية

43- H.L. Ginsberg, Ugaritic Myths (in, Ancient Near Eastern Texts, op.cit, P.138

بصيغة «كيفتو» للدلالة على كريت وجزر بحر إيجه، وحذف الراء من الاسم في الهيروغليفية وارد، لأن الراء في كفتور هي لاحقة وليست من أصل الكلمة[44].

أما السند الآخر الذي لا يتصور الصليبي وجوده، فيأتينا من علم الآثار. فلقد أعطت نتائج التنقيب الأركيولوجي على الساحل الفلسطيني معلومات وافرة عن بدايات الاستيطان الفلستي ونشوء مدن الفلستيين الخمسة: غزة وجت وأشقلون وأشدود وعقرن، التي تم التعرف عليها جميعاً. فمع بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، يظهر بشكل مفاجيء في المنطقة الساحلية الفلسطينية، نمط من الخزف غير معروف في كنعان قبل ذلك. وهذه الخزفيات التي اكتشفت على وجه الخصوص في المواقع الخمسة المذكورة أعلاه، تشبه الخزفيات السائدة في بحر ايجة في تلك الفترة، دون أن تكون نسخاً مطابقة لها، مما يدل على أنها قد صنعت محلياً من قبل مهاجرين أتوا من تلك المنطقة، ولم تجلب معهم من موطنهم الأصلي. وبعد فترة قصيرة تغدو هذه الخزفيات النمط السائد في مواقع الفلستيين التاريخية، مع تواجد عرضي في بعض المناطق المتاخمة لهم، ولكنها تنعدم كلياً في المناطق الداخلية من فلسطين. ومن الملفت للنظر أن الخزف الفلستي يظهر في معظم المواقع الفلستية بعد طبقة من الخرائب والحرائق التي تحجب طبقات كنعانية أسبق، مما يدل على أن شعوب البحر قد عادت إلى سكن المواقع التي دمرتها إبان اجتياحها الأول[45]. وسنعمد فيما يلي إلى تقديم مثالين يفيان بالغرض، الأول من موقع «أشقلون» والثاني من موقع «أشدود».

أشقلون، مدينة كنعانية قديمة على ساحل فلسطين، ورد ذكرها في سجلات الفرعون رمسيس الثاني الذي حكم منذ عام ١٢٩٠ق.م، أي قبل

44- C.H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, NewYork, 1965, P.293

45- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op .cit, PP. 214-15, 224-25

فترة لا بأس بها من توطن الفلستيين في فلسطين، كما ورد ذكرها في سجلات الملك الأشوري تغلات فلاصر الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد(٤٦). وق تم التعرف عليها في موقع عسقلان الحديثة، منذ الحملة التنقيبية الأولى من قبل صندوق اكتشاف فلسطين بريطانيا، وذلك بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١. وقد بينت التنقيبات أن الطبقة الأثارية العائدة لعصر البرونز الأخير، وقد دمرت تماماً وتغطت بطبقة من الرماد سمكها ٥٠سم، تحجب تحتها مدينة نموذجية كنعانية. وفي الطبقة الأثارية التي تلتها مباشرة، تظهر الخزفيات الفلستية الغريبة عن أرض كنعان(٤٧).

وعلى مسافة ١٥ كم تقريباً إلى الشمال الغربي من عسقلان، تم التعرف على مدينة «أشدود» قرب بلدة «أسدود» الحالية، حيث جرت الحملة التنقيبية الرئيسية بين عامي ١٩٦٢ و١٩٧٢ باشراف البروفيسور M.Dothan. وقد تبين أن الموقع كان مسكوناً منذ العصر النحاسي، إلا أن المدينة المسورة تعود إلى عصر البرونز الوسيط حوالي عام ١٧٠٠ق.م، واستمرت مزدهرة إلى عصر البرونز الأخير، حيث ورد ذكرها في سجلات أوغاريت كمدينة مشهورة بتصنيع النسيج. وقد دمرت هذه المدينة في نهاية القرن الثالث عشر واختفت تحت طبقة سميكة من الرماد. وعندما أعيد بناؤها في الطبقة التالية، تأخر ظهور الخزفيات الفلستية قليلاً ثم سادت الموقع بشكل كامل. وظهر إلى جانب الفخاريات الفلستية أختام أسطوانية عليها كتابات تنتمي إلى الزمرة القبرصية الإيجيّة، كما عثر على تماثيل للإلهة الأم، مصنوعة وفق الأسلوب الكريتي المعروف. إلا أنه في أشدود بشكل خاص، يظهر بشكل تدريجي وواضح كيفية ذوبان الشخصية الحضارية الفلستية في الشخصية الكنعانية. فمنذ القرن العاشر، يبدأ النمط الخزفي الفلستي في الاختفاء ليحل

46- James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, op. cit, PP.214-15-224-25

47- K. Kenyon, op. cit, P.215

محله النمط الكنعاني المعروف في عصر الحديد، وتختفي تماثيل الإلهة الكريتية ليتحول الفلستيون إلى الآلهة المحلية[48] التي نجد اسماءها في التوراة، مثل الاله «داجون» الاله السوري القديم المعروف في نصوص اوغاريت وإيبلا. وفي الحقيقة، لم يكن هذا التحول صعباً بسبب قرب العبادة الكريتية من العبادة الكنعانية وتماثل آلهتها، ولربما قام الفلستيون منذ البداية بمطابقة اسماء آلهتهم الايجية على أسماء الآلهة الكنعانية وعبدوها تحت أسمائها الجديدة، وهو أمر معروف في التاريخ والأمثلة عليه كثيرة.

نكتفي بهذا القدر من البينات النصية والأركيولوجية التي أشاح عنها كمال الصليبي، لنتابعه في بحثه عن مدن الفلستيين الخمس في غرب العربية، ونجده يعثر على «غزة» في موقع «العزة» الحالي في وادي أضم، و«أشدود» في «السدود» في منطقة رجال ألمع، و«أشقلون» في «شقلة» بجوار مدينة «القنفذة»، و«جت» في «الغاط» بمنطقة جيزان، و«عقرون» في «عرقين» بوادي عتود الفاصل بين رجال ألمع ومنطقة جيزان (ص ٢٥٢ - ٢٥٣). ولكن نظرة سريعة على خارطة الصليبي رقم ٣، تظهر أمراً غاية في الغرابة، فالمدن الخمس التي عثر عليها في غرب العربية، تتوزع على مسافات شاسعة جداً عبر بلاد عسير من أقصاها إلى أقصاها، وتتباعد عن بعضها مئات الكيلومترات عبر مساحات مليئة بمدن الشعوب الأخرى التي تعرف عليها الصليبي هناك، مثل أهل يهوذا وأهل اسرائيل والكنعانيين والآراميين. فالعزة (غزة) الواقعة في منطقة الليث، والغاط (جت) الواقعة في منطقة جيزان، تبعدان عن بعضهما حوالي ٧٠٠ كم. والسدود (أشدود) تبعد عن شقلة (اشقلون) أكثر من ٢٠٠ كم. وعرقين (عقرون) تبعد عن شقلة حوالي ٥٠٠ كم. فكيف تسنى لشعب واحد، كان عبر أسفار التوراة عدواً تقليدياً للاسرائيليين، أن يبني مدنه الخمس على هذه الأرض الواسعة، وفي مواقع

48- Ibid, PP. 215-217

متبعثرة عبر أراضي الأعداء؟ حقاً، لقد ذكر الصليبي مسألة التداخل بين أراضي الفلستيين والاسرائيليين، عندما عرج مطولاً على قصة شمشون في التوراة (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥). ولكن التداخل شيء والتبعثر شيء آخر. ولقد كانت أراضي الفلستيين عند حدودهم الشرقية متداخلة مع أراضي غيرهم، مما أثبته توزع الفخاريات الفلستية، إلا أن الأرض التي شغلوها على الساحل الفلسطيني كانت أرضاً متصلة، بمدنها التي يسهل التواصل بينها والانتقال والتنسيق وتجهيز الجيوش التي كانت تواجه الاسرائيليين تحت راية فلستية موحدة.

وإذا عدنا إلى البينة النصية مرة أخرى وجدنا كل الشواهد المؤيدة لوجود أرض واحدة متصلة للفلستيين، قائمة على وجه التحديد في المنطقة الساحلية، لا في المناطق الداخلية حيث عثر كمال الصليبي على معظم مدن الفلستيين، والتي تتوزع بعيداً عن ساحل البحر بمئات الأميال. نقرأ في حزقيال ٢٥ : ١٦ [فلذلك هكذا قال السيد الرب. هأنذا أمد يدي على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين وأهلك بقية ساحل البحر] وفي صفنيا ٢ : ٤ ـ ٥ [لأن غزة تكون متروكة، وأشقلون للخراب. أشدود عند الظهيرة يطردونها، وعقرون تستأصل. ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين].

هذه أسانيد الرأي الذي يقول عنه الصليبي [ما هو إلا من تصور الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يسنده اطلاقاً] (ص ٢٥٤).

٨- علم الآثار وتاريخية التوراة

يقوم المحور الرئيسي في نظرية الصليبي ونهجه، على القبول بالرواية التوراتية باعتبارها تاريخاً مؤكداً مسلماً بصحته، والشك في جغرافيتها. فهو يقول في فصله الأول: [في الدراسة الراهنة، ستقلب الأمور رأساً على عقب. وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة، ومناقشة صحتها التاريخية، سآخذ تاريخيتها كمسلمة وأناقش جغرافيتها. وبين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بني اسرائيل كانوا وحدهم المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ. أوهم على الأقل الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخياً وعبروا عن ذلك بطريقة واضحة منسجمة مكتملة. وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً، وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره] (ص ٥٣).

وفي الحقيقة، فانه منذ ظهور النقد المنهجي للتوراة اعتباراً من مطلع القرن الثامن عشر، لم تقم مدرسة واحدة على القبول المطلق للرواية التاريخية باعتبارها تاريخاً حقيقياً غير خاضع للمناقشة أو النقد، نستثني من ذلك الاتجاه اللاهوتي الذي يؤمن بأن الكتاب في صيغته الحالية، هو كلمة الإله الموحاة إلى الأنبياء. ثم جاء عصر الاكتشافات الاركيولوجية الكبرى في آشور وبابل عند منقلب القرن التاسع عشر، وفي سورية مع مطلع القرن العشرين، ليضع بين أيدي الباحثين التوراتيين معلومات تاريخية ونصية وأركيولوجية، لم يسقطها من حسابه أحد قبل كمال الصليبي، قط.

والتسليم بتاريخية التوراة عند كمال الصليبي، هو نتيجة منطقية لنقله جغرافيتها ومسرح أحداثها إلى غرب العربية، حيث نفتقد إلى أي محك

موضوعي يمكن اختبار روايات التوراة إزاءه، فالمنطقة لم تستكشف آثارياً حتى الآن. ولم يأتنا عنها بنبأ واضح أي شعب من شعوب الشرق القديم. وهو بعد أن شككنا بكثير من معلوماتنا حول تاريخ بلاد الرافدين والشام ومصر، ورفض السجلات التاريخية كوثيقة يمكن الاعتماد عليها (إلا إذا قرئت على طريقته)، فانه لم يترك أمامنا من معيار آثاري ونصي وتاريخي يمكن الاعتماد عليه في نقد التوراة، لتبقى وحدها الوثيقة المعتمدة، شاهدة على نفسها وشاهدة على أحداث عصرها. وهذه نتيجة لم يضعها في حسبانه قطعاً عندما [شعر بأن من الواجب عليه أن لا يبقي ما توصلت اليه معرفته بشأن التوراة سراً] (ص ١٩).

أما بعد أن أوقفنا على قدميها الأمور التي قلبها الصليبي، على حد قوله، رأساً على عقب، وأوضحنا المسلمات التاريخية والأركيولوجية التي لم توضع قبل ذلك في متناول جمهرة القراء من غير المتخصصين، فاننا نستطيع الآن أن ندلف إلى امتحان تاريخية التوراة استناداً إلى البينة الأركيولوجية المدعومة بالبينة التاريخية. ولسوف نقسم الفترة التي تغطيها أحداث التوراة إلى المراحل التالية، باحثين عن تاريخية الأحداث في كل منها: ١ ـ عصر الآباء ٢ ـ الخروج من مصر ودخول بلاد كنعان ٣ ـ عصر القضاة ٤ ـ المملكة الموحدة ٥ ـ المملكة المنقسمة والانهيار.

١ ـ عصر الآباء:

هناك اتفاق بين المؤرخين على أن تحركات الآباء الواردة في سفر التكوين، قد جاءت في فترة الاضطرابات التي أحدثها ظهور العموريين في الهلال الخصيب بين نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. تلك الفترة التي تميزت بتعطل تام للمراكز الحضرية في المنطقة، وتدمير للمدن

ونـزوح وهجـرات. وقـد توسطت هذه الفـترة بين عصـر البرونز المبكر وعصر البرونز الوسيط.

ففي مصـــر، انتهت المملكـــة القـديمـة حوالي عام ٢١٨٥ق.م، إثـر غزوات بربـريـة، شكّـل الآسيـويون جزءاً لا بأس به من عناصرها البشرية. وأعقب ذلك فترة من الفوضى لم تنته إلا في عام ١٩٩٠ ق.م مع ابتداء حكم الأسـرة الثـانيـة عشـر. وفي بلاد الـرافدين، اجتاح العموريون القادمون من السهوب السـورية كلاً من سومر وأكاد وأسسوا الأسرة العمورية التي اشتهر من ملوكهـا حمورابي. وتلقت فلسطـين موجـة من هؤلاء العموريين قضت بشكل كامـل على مدن عصـر البرونز المبكر، أعقبتها فترة فراغ طويلة في الاستيطان الحضـري، لأن العمـوريـين في فلسطين لم يعبأوا بسكن الحواضر، ولم يعمدوا إلى اعادة بناء المدن التي دمروها، بل سكنوا على أطرافها فتابعوا حياتهم شبه البـدويـة ذات التنظيم القبـلي. وقـد استطـاعت التنقيبات الأثرية اقتفاء أثـر هؤلاء العمـوريـين في فلسطـين، بتتبـع أنماطهم الخزفية المتميزة عن خزفيات عصر البرونز المبكر وعصر البرونز الوسيط، وأيضاً عن طريق دراسة شواهدهم الأثـريـة التي جاءت بشكـل خاص من القبور. وعندما بدأت المدن الكنعانية تعيـد بنـاء مواقعها القديمة، خلال الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، أخذ العموريون بالذوبان في المجتمعات الناهضة، وبدأت شواهدهم الأثرية بالاضمحلال حتى زالت تماماً[٤٩].

غير أن الفصـل الأخـير في تاريخ العمـوريـين قد كتبـه الهكيسوس في مصـر، عنـدمـا دخلوهـا أواسـط القـرن الثامن عشر قبل الميلاد وأنهوا المملكة المتـوسطـة. فلقـد غدا من الثـابت اليـوم، واعتـماداً على نصـوص «ماري» و «اوغـاريت» أن أسـماء ملوك الهيكسـوس الـذين حكمـوا مصـر خلال فترتهـا الانتقـاليـة الثـانيـة، هي أسماء إما كنعانية أو عمورية، وذلك مثل «يعقوب ـ

49- K. Kenyon, op.cit, PP.119-147

هار» و «سَمـوقينـا» و «بـاليـا» . . . الـخ . وصـار من الـواضح الآن ، لماذا قال المؤرخ المصـري «مانيثو» من القرن الثالث قبل الميلاد ، بأن الهيكسوس كانوا قومـاً من الفينيقيـين ، وتـراجعت نظـريـات الأصل الحثي أو الحوري أو الهندو أوربي للهيكسـوس ، رغم أنـه من السـابق لأوانه إنكار وجود مجموعات غريبة عن العموريين رافقتهم في حملتهم على مصر[٥٠] .

والـرأي الشـائـع بين البـاحثـين اليوم ، هو أن شخصيات روايات سفر التكـوين في التـوراة (وهم من يطلق عليهم البـاحثون التوراتيون اسم الآباء) تنتسب إلى الأقوام العمورية ، وذلك اعتماداً على الأصول اللغوية لأسمائها ، كاسحـاق ويعقـوب وعيسـو ، وأن تحركاتهم التي ابتدأت مع نزوح إبراهيم من بلاد الـرافـدين ، ترجـع إلى النصف الأول من القـرن الثـامن عشـر . وفي الحقيقـة ، لم يمكن حتى الآن العثـور على أدلـة آثـاريـة تثبت روايـة سفـر التكـوين ، لأن تحركـات الآبـاء كانت في حقيقتهـا تحركـات قبليـة قامت بها مجمـوعـات متنقلة لم تعـرف الاستقـرار ولا سكنى الحـواضـر . أمـا النصوص التاريخية ، فصامتة تماماً عن هذا الموضوع ، سواء في بلاد الرافدين وبلاد الشام أم في مصـر التي رحـل اليهـا يوسف بن يعقـوب وصـار هنـاك الـوزيـر الأول للفـرعـون ـ حسب الـروايـة التـوراتية ـ . من هنا ، فإن كل ما كتب ، ويكتب اليـوم ، حول روايـات الآبـاء في التـوراة ، هو محض تخيـلٍ وفـرض ، ومحـاولة لاستقـراء نصـوص التـوراة وتفسيرهـا ، على ضوء الأوضـاع السـائـدة في الشـرق القـديم إبـان تلك الفـترة . لذا فنحن واجـدون من الاجتهـادات حول هذا المـوضـوع قدر ما لدينـا من باحثـين تصـدوا له . أمـا التـاريخ وعلم الآثار فلا يستطيعان البت في مسألة الآباء ، في المرحلة الراهنة .

فقصص الآباء في سفر التكوين ، رغم ترجيح وجود أساس واقعي لها ،

50- W.F. Albright, The Role of The Caraanite In History (in The Bible and Ancient Near East, Edited by Ernist Wright, Eisenbrauns, Indiana1979) P. 335

ليست إلا نوعاً من الملحمة البطولية، مما تعودت الشعوب تدبيجه عن البدايات الأولى. ولنا في «الشاهنامه» ملحمة الفرس الشهيرة، خير مثال على ذلك. فالنفَس الملحمي يسود في سفر التكوين، سواء في الأسلوب أم في المضمون. فبعد المقدمة الميثولوجية المتعلقة بخلق العالم، ندخل في سلسلة أحداث مليئة بالتهويلات والمبالغات. فنرى مجموعة ابراهيم القليلة تهزم تجمع ملوك بلاد الرافدين السبعة بقيادة «أميرافل» الذي قرنه بعض الباحثين بحمورابي (التكوين ١٤ : ١ ـ ١٦)، ومدن بكاملها تختفي من الوجود بنار وكبريت من السماء تنسكب عليها (التكوين ١٩ : ٢٢ ـ ٢٦)، وتوهب الذرية لرجال ونساء في المائة من عمرهم (التكوين ١٧ : ١٨ ـ ٢٤)، ويأتي الآلهة إلى بيوت البشر ويأكلون على موائدهم (التكوين: ١٨ : ١ ـ ٢٣)، وتلتحم بعض شخصيات الآباء في صراع جسدي مع الآلهة (التكوين ٣٢ : ٢٢ ـ ٢٩).

٢ ـ الخروج من مصر، ودخول كنعان:

تترك الرواية التوراتية فجوة زمنية تمتد قرابة أربعمائة سنة في تسلسل أحداثها. فالنص ينتقل مباشرة من موت يوسف في مصر واستعباد بني اسرائيل هناك من بعده، إلى ولادة موسى، ويصمت صمتاً تاماً عن حياة الأسباط الاثني عشر في مصر بين هذين الحدثين. الأمر الذي دعا كثير من الباحثين إلى القول بأن الخارجين من مصر لا علاقة لهم بالآباء الأولين، وأن الربط بين التقليدين الشفويين، قد تم على يد محرري التوراة المتأخرين*.

* ـ نود أن ننبه هنا، إلى أن القرآن الكريم لم يربط بين شخصية يعقوب حفيد إبراهيم، وإسرائيل، الجد الأعلى لبني اسرائيل. ولم يورد كلمة اسرائيل كاسم علم إلا مرة واحدة: «كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل، إلا ما حرم اسرائيل على نفسه» ـ البقرة: ٣.

أما عن زمن الخروج، فهناك اتفاق على وضعه قرابة عام ١٢٦٠ق.م، إبان حكم الفرعون رمسيس الثاني الذي اشتهر بتشييد المباني العامة والصروح الضخمة، اعتماداً على اليد العاملة المسخرة، والذي اتخذ عاصمة له في منطقة الدلتا، حيث يسهل الفرار إلى بلاد الشام القريبة. وقد ورد في سفر الخروج، أن خروج بني اسرائيل قد تم من مدينة «رعمسيس» باتجاه «سكوت». (الخروج ١٢: ٣٧). ومدينة رعمسيس معروفة في التاريخ المصري، فهي التي بناها الفرعون رعمسيس الثاني في الدلتا قرب الحدود المصرية الشرقية وأطلق اسمه عليها. إلا أنه رغم الجهود الكبيرة التي بذلها المؤرخون حتى الآن، فقد فشلوا في ايجاد أساس تاريخي لقصة الخروج من مصر، وبقيت النصوص المصرية صامتة صمتاً مطبقاً عن هذا الحدث المركزي في كتاب التوراة. مما يرجح أن الخروج قد قامت به مجموعة صغيرة من الأجراء المسخرين فرت بشكل سلمي، أو سمح لها بالخروج والعودة من حيث أتت. فمن غير المعقول أن يغادر مصر ستمائة ألف مسخر من أشباه العبيد، وينسحبون من الدلتا في قتال تراجعي نحو برزخ السويس حيث يهزمون الفرعون ويتسببون في مقتله، دون أن تأتي سجلات ذلك العصر، الذي يعتبر من أكثر فترات التاريخ المصري توثيقاً، على ذكرهم.

كل هذا يجعلنا نلحق سفر الخروج بسفر التكوين، باعتباره استمراراً للقصص الملحمي التي لا تعتمد إلا القليل من الأحداث التاريخية الواقعية، فالسفر، كسابقه، مليء بالتهويلات الملحمية، كقصة ولادة موسى وحياته، والأوبئة العشرة التي حلت بفرعون وأهل بيته وكل شعبه، وعبور البحر، وقتال العماليق، وبقاء ثياب الهاربين جديدة لا تبلى، وغير ذلك من الأحداث.

أما عن دخول بلاد الشام وعبور نهر الأردن إلى أرض كنعان، فان نتائج التنقيب الأثري تشير إلى بطلان الرواية التوراتية في كثير من أحداثها. فالمقاومة المسلحة التي واجهها الاسرائيليون من قبل ملوك شرقي الأردن لا أساس لها من الصحة، لأن منطقة شرقي الأردن كانت خالية من المراكز

الحضـريـة بين القرن السابع عشر والقرن العاشر قبل الميلاد[٥١]، أما الاقتحام الصاعق للأراضي الكنعانية عبر الأردن، وتدمير واحراق مدنها الرئيسية، فلم تقم عليه بينة تاريخية حتى الآن، أما البينة الآثارية فتؤكد عدم صحة جزء لا بأس به من الفتوحات المعزوة إلى يشوع بن نون، قائد قوات الغزو الاسرائيلي وسوف نعمد فيما يلي إلى بسط نتائج التنقيب الأثري في أهم ثلاثة مواقع كنعانية، وصف سفر يشوع عملية اقتحامها واحراقها وتدميرها، وهي: أريحا وعاي وحاصور.

فيما يتعلق بأريحا، يعطي سفر يشوع وصفاً دراميا حياً عن اقتحام المدينة وتدميرها. فبعد الدوران حول المدينة ست مرات، حاملين تابوت العهد نافخين بالأبواق، تسقط أسوار المدينة من تلقاء ذاتها أمام الاسرائيليين الذين يدخلون المدينة ويقتلون من فيها من رجل وامرأة وطفل وشيخ وبقر وحمير وغنم. وقد فسر بعد الباحثين سقوط سور أريحا على أنه نتيجة لزلزال نسبه المهاجمون إلى معجزة من الرب. إلا أن لعلم الآثار رأي مختلف في هذا الموضوع. فرغم أن الزلازل كانت شائعة في فلسطين، إلا أن آثار الدمار الزلزالية في أريحا تعود إلى أزمنة سابقة بكثير للتاريخ المفترض لدخول الاسرائيليين، خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد ثبت أن آخر الزلازل المدمرة التي تصدع بسببها سور أريحا، قد وقع حوالي عام ٢٣٠٠ ق. م، وأن المدينة قد بنيت مجدداً حوالي عام ١٩٠٠ ق. م، حيث استمرت الحياة فيها إلى عام ١٥٦٠ ثم هجرت تماماً. وعندما عادت الحياة اليها في العصر البرونزي الآخير، انتعشت جزئياً لفترة قصيرة دون أن تبني لنفسها سوراً جديداً، ثم هجرت في مطلع القرن الثالث عشر وغمرها النسيان إلى القرن العاشر قبل الميلاد. أي أن مدينة أريحا لم تكن قائمة عندما دخل الاسرائيليون إلى فلسطين[٥٢].

51- Kathleen Kenyon, The Bible And Recent Archaeology, op.cit, P.33

52- Ibid, PP. 33-40

وفيما يتعلق بمدينة «عاي»، فإن البينات الأثرية تشير إلى أن المدينة قد انتهت تماماً قبل ألف عام من وصول الاسرائيليين. وعلى ذلك فان أوائلهم لم يسمعوا إلا بذكرى تلك المدينة العظيمة التي ازدهرت في عصر البرونز المبكر. وقد تم الكشف في المستويات العليا للموقع عن قرية غير ذات شأن تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد فترة طويلة من دخول الاسرائيليين. أما بخصوص مدينة «حاصور»، فقد دلت التنقيبات على أن المدينة قد دمرت في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو التدمير الذي يتطابق في تاريخه مع حملة الفرعون سيتي الأول على فلسطين. ثم أعيد بناء المدينة مباشرة لتدمر قرابة عام ١٢٣٠ ق.م، أي حوالي الفترة المفترضة لدخول الاسرائيليين[٥٣].

بعيداً عن هذه المواقع الثلاث، تتفاوت البينات الأثارية فيما يتعلق بالمدن التي يروي سفر يشوع اقتحامها وتدميرها، فمنها ما يتطابق مع التاريخ المفترض لدخول الاسرائيليين، ومنها ما يتباعد. ولكن الذي يجعل الأمر أكثر تعقيداً مما نعتقد، هو أن الدمار الذي لحق المدن الفلسطينية خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر، لا يمكن إرجاعه بصورة مؤكدة إلى جهة بعينها. فاضافة إلى أحداث سفر يشوع، وهي أحداث غير مؤكدة تاريخياً، هناك شعوب البحر الذين كانوا في طريقهم إلى مصر في تلك الفترة، ثم تراجعوا عنها أمام رمسيس الثالث الذي دفعهم إلى فلسطين وطاردهم هناك، وعلى ذلك فان جزءاً لا بأس به من المدن المدمرة يمكن عزوها إلى شعوب البحر أو إلى رمسيس الثالث نفسه.

وخلاصة القول في موضوع دخول كنعان، هو أنه لم يتوفر لدينا دليل تاريخي يثبت رواية التوراة، أما الدلائل الأركيولوجية فلا تؤيد الرواية التوراتية إلا في بعض جوانبها. وحتى في هذه الحالة، فان الشكوك تبقى قائمة والبرهان غير أكيد. ومن المرجح أن الدخول قد تم بشكل بطيء وسلمي في

53- Ibid, PP. 40-41

معظم الأحوال، وعلى فترات طويلة ومتباعدة سمحت للقادمين بالاختلاط مع المقيمين في الأرض واستيعاب ثقافتهم، وأن هؤلاء القادمين لم يدخلوا بأعداد كبيرة من شأنها تغيير الطبيعة السكانية للمنطقة والطغيان على الغالبية الكنعانية الموجودة هناك منذ بدايات التاريخ المكتوب. ومن المؤكد أن السيطرة القصيرة للإسرائيليين في مملكتي السامرة ويهوذا، لم تكن إلا سيطرة سياسية لا تعكس بالضرورة تفوقاً عددياً.

والبرهان على هذه المقولة يأتي من علم الآثار الذي لم يستطع أن يكتشف أية دلائل تشير إلى دخول فلسطين، خلال الجزء الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، من قبل جماعات كبيرة العدد ذات طابع ثقافي متميز. فالثقافة الكنعانية في جميع المواقع الفلسطينية، بقيت مستمرة في تطورها الطبيعي دون انقطاع أو انحراف يؤشر إلى حلول أقوام جديدة أتت معها بتقاليد غريبة عن كنعان[٥٤] تستثني من ذلك طبعاً منطقة الفلستيين على الساحل الفلسطيني حيث تتبعنا من الفصل السابق الظهور المفاجيء للثقافة الفلستية واختفاءها السريع بعد ذلك.

لقد تداخلت في سفر يشوع الأحداث التاريخية مع الأحداث الملحمية بشكل يجعل من الصعوبة بمكان فرز الحقيقة عن الخيال.

٣ ـ عصر القضاة:

بعد سفر يشوع الذي يصف اقتحام القبائل الاسرائيلية أرض كنعان واستيلائها على أرض فلسطين كاملة، نجد سفر القضاة يعطينا صورة مختلفة تماماً عن تلك القبائل المنتصرة. فبعد الاستقرار في الأرض، نجد أن القادمين ليسوا إلا جماعات مفككة منقسمة على نفسها إلى فريقين متخاصمين هم

54- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Op. Cit, P. 204-206.

القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية، وأن خطاً من المدن الكنعانية القوية تشكله أورشليم وجازر وعجلون يفصل بين المجموعتين ويمنع اتصالها. وأن بعض المدن الكنعانية التي من المفترض أنها وقعت في أيدي الاسرائيليين إبان اجتياحهم، تعيش حياتها الطبيعية كمدن مستقلة، وبعضها الآخر قد سكنه الاسرائيليون إلى جانب الكنعانيين الذين لم يتمكنوا من طردهم. كما نجد غزاة الأمس المتجبرين، ليسوا إلا فرقاً مستضعفة واقعة تحت نير جيرانهم الفلستيين، يضطهدونهم ويسومونهم سوء العذاب.

ويعطي المؤرخون من ذوي الاتجاه التوراتي لهذا الواقع المتناقض تفسيرات أكثر تناقضاً وأقرب إلى اللاهوت منها إلى المنطق التاريخي. ولنقرأ على سبيل المثال ما يقوله عالم اللغات القديمة اللامع البروفيسور س. هـ. غوردن في كتابه «الشرق الأدنى القديم» الذي أفرد ثلثيه لتاريخ بني اسرائيل، في معرض تفسيره لأحوال الاسرائيليين في عصر القضاة: [عند اقتحام أرض كنعان، لم يمارس الاسرائيليون عملية إبادة كاملة للكنعانيين ولم يطردوهم من مدنهم وأراضيهم. وحينما كانت شوكة الاسرائيليين تقوى كانوا يستعبدون الكنعانيين ويشغلونهم في أعمال السخرة لصالحهم. لقد أرادت المشيئة الإلهية ابقاء الكنعانيين إلى جانب بني اسرائيل، من أجل ابقاء روح النضال قوية وشعلة الايمان متقدة، فإذا رجحت كفة الكنعانيين في الصراع، عاد الاسرائيليون عن غيهم وانقلبوا إلى عبادة الاله القادر على تخليصهم من يد أعدائهم](٥٥)..!!

لقد دام عصر القضاة قرابة قرنين من الزمان، ومع ذلك لم يستطع علم الآثار تقديم أي دليل على وجود وازدهار ثقافة اسرائيلية متميزة، وخصوصاً في المواقع التي كانت مركز الأحداث في سفر القضاة مثل «شلوه» و«بيت إيل» و«جبعه» و«دان». ففي موقع جبعة التي كانت مقر داود ومسقط رأسه، لم يعثر

55- C.H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, N.Y 1965, PP. 148-49

المنقبون إلا على قرية صغيرة تعود إلى مطلع عصر الحديد حوالي عام ١٢٠٠ ق.م، ذات تحصينات بدائية وبيوت ذات أسقف خشبية. الأمر الذي يشير إلى أن الاسرائيليين كانوا يعيشون على هامش المجتمعات الكنعانية والفلستية القوية. والشيء نفسه ينطبق على بيت إيل التي كانت مدينة كنعانية متواضعة في عصر البرونز الأخير، ثم هدمت وانقطع فيها الاستيطان إلى بداية عصر الحديد، حيث عادت الحياة إليها من خلال بلدة صغيرة ذات بنيان بدائي، استمرت حتى القرن العاشر، أي طيلة فترة عصر القضاة. أما مدينة دان التي اعتبرت في سفر القضاة الحد الشمالي للاستيطان الاسرائيلي، فقد تبين من غلبة النمط الخزفي الفلستي في موقعها، أنها كانت واقعة تحت النفوذ الفلستي معظم فترة عصر القضاة[٥٦].

ولعل في قصة شمشون المعروفة في سفر القضاة، أوضح دليل على استمرار الأسلوب والمضمون الملحمي في سفر القضاة. وعلاقة شخصية شمشون بشخصيات ملحمية أخرى في أدبيات الشرق القديم، معروفة ولا مجال هنا لاعطاء مزيد من التفصيلات*.

٤ ـ المملكة الموحدة:

بعد خضوعهم لاضطهاد الفلستيين فترة طويلة، قرر الاسرائيليون توحيد قواهم تحت قيادة أول ملوكهم «شاول» الذي أمضى حياته في قراع الفلستيين، عبر روايات لا يمكن تصنيفها إلا في زمرة الملاحم. وتبلغ الحبكة

56- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op.cit, PP.229-232

* ـ راجع مؤلفي «كنوز الأعماق، قراءة في ملحمة جلجامش» دار العربي، دمشق ١٩٨٧ ومؤلفي الأسبق «ملحمة جلجامش»، دار الكلمة، بيروت ١٩٨٢.

الملحمية لحياة شاول ذروتها، في مشهد موته مع أولاده الثلاثة. نقرأ في صموئيل الأول ٣١: ٢ - ١٣ [واشتدت الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً من الرماة. فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفي واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنونني ويقبحوني، فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً. فأخذ شاول السيف وسقط عليه. ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول، سقط هو أيضاً على سيفه ومات معه. فمات شاول وأبناؤه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معاً... وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعدوا القتلى، وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه... وسمروا جسده على سور بيت شان. ولما سمع سكان يابيش جلعاد بما فعل الفلسطينيون بشاول، قام كل ذي بأس وساروا الليل كله وأخذوا جسد شاول وأجساد بنيه عن سور بيت شان وجاءوا بها إلى يابيش وأحرقوها هناك. وأخذوا عظامهم ودفنوها]. وهذا مشهد يليق بملحمة من ملحمتي هوميروس المعروفتين، وخصوصاً فيما يتعلق باحراق جثة شاول وأولاده قبل دفنهم، وهي عادة غير معروفة في تعاليم التوراة، تركها محررو التوراة في حلتها الملحمية هذه رغم تعارضها مع الشريعة.

وخلف داود شاولَ، بعد أن أظهر بطولات خارقة اثناء خدمته مع شاول، استهلها بقتله فارس الفلستيين «جليات»، وهو فتى غر لا يحمل سوى المقلاع وعصا الراعي، وهذه فكرة كثيرة التكرار في ملاحم الشعوب. إضافة إلى ذلك فان بقية سيرة حياة داود كملك تفشي الكثير من العناصر الملحمية المعروفة في الشرق القديم. فقد كان الأصغر بين إخوته الثمانية، مع ذلك اختاره الرب ليخلف شاول على الملك. وهنا يمكن أن نقارن مع ملحمة كرت الأوغاريتية، حيث كان كرت ثامن اخوته. ومثل كرت أيضاً الذي حصل على عروسه بالحرب، كذلك داود الذي ترتب عليه قتل العديد من الفلستيين مهراً لعروسه. وكلا الملكين يتعرض لغضب سماوي بسبب خطاياهما، فداود يخطيء بزواجه من زوجة أوريا الحثي بعد أن دبر قتله،

وباحصائه بني اسرائيل، وكرت يخطيء بنسيانه تقديم النذور للآلهة، فتتعرض مملكتا الاثنين للجوائح والمصائب، ويهلك من بني اسرائيل سبعون ألفاً. وشخصية داود في سفر صموئيل أبعد ما تكون عن ملامح الرصانة التي حاول محررو التوراة رسمها لملوكهم، فكان مولعاً بالموسيقى، ويقود موكب الرقص العنيف أمام تابوت العهد بعد معارك النصر كملك وثني.

لقد وحد داود قبائل الشمال وقبائل الجنوب، وأسس أول وآخر مملكة موحدة لبني اسرائيل. وتقول الرواية التوراتية التي لم يؤيدها شاهد تاريخي، أن داود بعد أن استقرت له الأمور داخلياً، قد اتجه إلى التوسع فاخضع منطقة شرقي الأردن، ثم امتد شمالاً إلى آرام فاخضع دمشق والممالك الآرامية الأخرى. أما ابنه سليمان فقد تفرغ من بعده إلى البناء والتشييد والتجارة والنشاط الديبلوماسي، فبنى هيكل الرب في أورشليم وإلى جانبه المنطقة الملكية بقصورها المتعددة وأبنيتها الادارية، وجمل العاصمة وحصنها تحصيناً قوياً. وإضافة إلى أعماله في أورشليم فقد أعاد بناء ثلاث مدن كنعانية قديمة هي حاصور ومجدو وجازر. وقد بلغ من ثروة سليمان في ذلك الوقت أن سفنه قد جاءت في احدى حملاتها محملة باربعمائة قنطار من الذهب، أي ما يعادل سبعة عشر ألف كيلوغراماً بأوزاننا المعروفة اليوم، وبلغ من رخاء الناس أن الفضة في أورشليم كانت مثل الحجارة!!

فأين هذا الإطناب التوراتي من البينة الأركيولوجية والتاريخية؟ في الحقيقة، يمكن لنتائج التنقيب الأثري، وخصوصاً في المدن الملكية الثلاثة مجدو وجازر وحاصور أن تسند واقعة قيام سلطة مركزية خلال القرن العاشر قبل الميلاد في فلسطين الداخلية، غير أن المنقبين لم يعثروا على دلائل تقدم حضاري وازدهار اقتصادي. فخارج المواقع القليلة التي لقيت عناية خاصة، كان أهل المملكة يعيشون حياة فقيرة جداً وبسيطة إلى أبعد الحدود. أما الديانة السائدة في كل المواقع التوراتية المكتشفة، فكنعانية قديمة تتمحور

حول آلهة الخصب المعروفة[٥٧]. أما عن عظمة أورشليم أيام الملك سليمان، فان علم الآثار (كما بينا سابقاً بالتفصيل) لا يستطيع تقديم بينة عليها لأن المدينة بكاملها قد ضاعت بسبب استخدامها كمقالع للحجارة، عدا أجزاء من السور لا تقدم كثيراً من المعلومات الدقيقة، رغم تقديمها لتواريخ أكيدة. والشيء نفسه ينطبق على هيكل سليمان الذي لم يبق منه ولا من أسواره حجر واحد. وجل ما بقي قائماً إلى اليوم هو جزء من أساسات سور هيكل زربابل الذي أقيم بعد العودة من المنفى، وما يدعى خطأ ببرج داود، الذي يرجع إلى فترة المكابيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وأجزاء من سور هيرود بما فيها حائط المبكى التي تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. وتؤكد عالمة الآثار السيد كاثلين كينيون، التي كشفت عن كل ما يمكن كشفه في موقع اورشليم القديمة، عدم جدوى البحث عن هيكل سليمان لأنه قد ضاع إلى الأبد.

أما من الناحية التاريخية، فلا يمكن التثبت من قيام المملكة الموحدة، ولا من وجود داود وسليمان، بسبب عدم تقاطع الأخبار التوراتية هنا مع أي نص تاريخي قديم. إلا أنه يمكن استنتاج قيام المملكة الموحدة، ووجود أساس تاريخي لسليمان وداود، وذلك من البينات التاريخية اللاحقة التي تثبت وجود مملكتي يهوذا واسرائيل، وورود أسماء خلفاء سليمان على هاتين المملكتين في السجلات الآشورية مثل عمري وآخاب وياهو ومنسي ومنحيم. إلا أنه يصعب فرز الملامح التاريخية لداود وسليمان عن الظلال الملحمية التي أحاطت بهما في الرواية التوراتية. أما عن توسع المملكة الموحدة وتكوينها لامبراطورية مترامية الأرجاء فليس إلا حبكة ملحمية صرفة، لا تتقاطع مع أية معلومة تاريخية أكيدة.

وخلاصة القول في أمر المملكة الموحدة اعتماداً على البينات الأركيولوجية والتاريخية، هو أنها لم تكن سوى مملكة صغيرة لا تزيد رقعة ولا

57- Ibid, P. 254

منعة عن ممالك بلاد الشام القائمة في ذلك العصر، قامت خلال فترة قصيرة لا تتجاوز السبعين عاماً ثم آلت إلى الانهيار.

٥ ـ المملكة المنقسمة والانهيار:

بعــد موت الملك سليــمان حوالي عام ٩٢٥ ق. م، عادت الخـلافـات القبلية من جديد، وانقسمت المملكة إلى مملكة يهوذا في الجنوب تحت حكـم ابن سليمان المدعو «رحبعام»، ومملكة اسرائيل في الشمال تحت حكم «يربعام». ويمكن القــول اعتـماداً على نتـائـج التنقيب الأثـري، أن المملكـة الحقيقيـة المـزدهـرة قد استمـرت في الشـمال، حيث الأراضي الزراعية الخصبة والطرق المفتـوحـة على التجـارة في البر والبحر. أما في المملكة الجنوبية التي لم تنل من القسمة إلا الأراضي الفقيرة، فقد عاشت أورشليم في حالة من العزلة محاطة ببلاد معادية من جميع جهاتها. وبينما انفتحت السامرة على بقية العالم الكنعاني وصـارت جزءاً منـه، ازداد انكفـاء أورشليم على نفسها تدريجياً ودخلت عصر التحجر والمحافظة الذي عاشه اليهود إلى نهاية تاريخهم.

وقـد رأينـا من خلال دراستنـا الأركيولوجية لعدد من المواقع الرئيسية في المملكتـين، تطـابق الـرواية التوراتية في جزء لا بأس به منها مع نتائج التنقيب الأثري ونصوص الشرق القديم. وهذا يدل على أن أسلوب محرري التوراة قد بدأ بالتغـير بعـد حادثـة موت سليمان وانقسام المملكة، حيث يضعف تدريجياً السـرد الملحمي للأحـداث، وتحل محله محاولة شبه ناجحة لسلسلة الاحداث بأسلوب تاريخي منسق، غير أنه رغم العديد من التقاطعات الثابتة بين الرواية التـوراتيـة والشـواهـد الآثـارية والتاريخية، خلال فترة المملكة المنقسمة، فان محرري التـوراة كانـوا في كثير من الأحيـان على شيء من الانتقائية في تقديم الأحـداث. فاشـتراك الملك آخاب في حلف قرقرة ضد شلمنصر الثالث لم يرد

في التـوراة، وليس لدينـا ما يدعو إلى الشك في صحة الخبر الأشوري المتعلق بذلك، حيث تم تقديم معلومات مفصلة عن عدد الجنود والفرسان والعربات التي قدمهـا آخـاب للمعـركـة. وكـذلـك الأمر فيما يتعلق بخضوع الملك ياهو للعاهل الأشوري، وتقبيل الأرض تحت قدميه، الذي أغفلتهُ الرواية التوراتية بينما نراه مصوراً في منحوتة بارزة آشورية كتب تحتها: «جزية ياهو بن عمري».

ورغم المحـاولـة شبـه الناجحة لتقديم تسلسل تاريخي منسق فيما يتعلق بأخبـار المملكـة المنقسمـة، فان الظـلال الملحمية بقيت تؤطـر الكثير من الأحـداث والأشخـاص. فمـلاك الـرب يضرب جنود سنحاريب عند أسوار أورشليم ويقتل ١٨٥ ألفاً من جنوده (الملوك الثاني ١٩ : ٣٥). والنبي إيليا أيام الملك آخـاب يقتـل مائـة من جنـود الملك أتـوا لاحضاره (الملوك الثاني ١ : ٣ - ١٦)، ويـذبـح أربعـمائـة من أنبيـاء البعـل بعد تغلبه عليهم في منافسة تقديم الذبيحة (الملوك الأول ١٨ : ٢٠)، ويفلق مياه الأردن بضربة من ردائه (الملوك الثـاني ٢ : ٨)، وهـو ينـزل المطـر أو يحبسه عن الأرض (الملوك الأول ١٧ : ١، ١٨ : ١ - ٤٦)، ويركب عربة نارية تحمله إلى السماء (الملوك الثاني ٢ : ١١ - ١٣).

بنـاء على ما تقـدم كله، نخلص إلى القول بأن كتاب التوراة قد ابتدأ بالأسطورة في مطلع سفر التكوين، حيث جاء بعدة أساطير تنتمي إلى النسق الميثـولـوجي السـوري - البابلي. ثم انتقـل إلى السـرد الملحمي الذي يعتمد احـداثـاً مغـرقـة في القـدم تختلط بالخرافة وتحيط بها هالات البطولة والمعجزة، بطريقة يصعب معها تبين الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال. بعد ذلك أخذ الخيـط التـاريخي يتـوضح تدريجياً بين الخيوط المتشابكة للسرد الملحمي، حتى توصل محررو التوراة إلى محاولة ناجحة جزئياً للتوثيق التاريخي، يجب التعامل معها بحذر بسبب انتقائيتها وتدخل أهواء أصحابها.

من هنا، يجب تصنيف مضمون الكتاب وفق هذه الزمر الأربعة وإرجاع

كل روايـة إلى زمرتها قبـل دراستهـا والتعقيب عليهـا. فليس من المعقول أن نبحث عن الأسـاس التـاريخي لدمـار مدينتي سدوم وعمـورة بنار وكبريت من السماء، بالطـريقـة التي نبحث فيهـا عن الأسـاس التـاريخي لدمار السامرة أو أورشليم، كما فعـل الصليبي عنـدمـا أعطى القيمـة التـاريخيـة نفسهـا لكـلا الحادثين، انطلاقاً من القبول الكامل للرواية التوراتية باعتبارها تاريخاً مؤكداً.

الباب الثالث

البينة النصية من كتاب التوراة

بعد قراءتنا للتوراة مجدداً على ضوء نظرية كمال الصليبي، تبينت لنا حقيقة محيرة، وهي أن كل ما في هذا الكتاب، سواء بنصه العبري المسّوري (محركاً كان أم غير محرك)، أم بترجماته المختلفة إلى اللغات القديمة، لا يتفق على الاطلاق مع نتائج «التوراة جاءت من جزيرة العرب». وقبل أن نبدأ في بسط بيناتنا النصية، نرى من الواجب التوقف قليلاً عند مسألة تاريخ النص العبري للتوراة وترجماته القديمة، لأن الصليبي لم يشرح لنا في مقدماته النظرية سوى جزء يسير من الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع.

يقول الصليبي في مطلع فصله الثاني تحت عنوان «مسألة نهج»: [والموضوع هنا، هو التوراة العبرية، وهي مجموعة من نصوص تاريخية وأدبية ودينية بالغة القدم كتبت أصلاً بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط. ولأن لغة هذه النصوص خرجت عن إطار الاستعمال العام منذ زمن يعود إلى ما بعد القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، فانه لا يمكن لأحد أن يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب أو الشعوب التي تكلمتها. ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يتوجب على الباحث إما أن يتبع تقليد العبرية المتأخرة، أو أن يسعى إلى الارشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حية مثل العربية والسريانية. وعلى العموم فانه من الأضمن للباحث في

التوراة أن يعتبر لغتها العبرية لغة مجهولة عملياً يجب تفكيك رموزها من جديد بدلاً من معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار].

[وبفضل الأمانة العلمية التي تحلى بها المسّوريون، وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية، فان النص المكتوب بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل الينا من القدم دون أن يمس تقريباً. ولا بد أن الأسفار التوراتية عموماً، كما هي موجودة بين أيدينا، قد أخذ معظمها شكله الحالي قبل النهاية التاريخية لبني اسرائيل، أي في حدود القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. والدليل على ذلك هو أن التوراة العبرية كانت قد ترجمت فعلاً بكاملها إلى اللغة الآرامية خلال المرحلة الأخمينية وإلى اليونانية وقد بديء بها في المرحلة الهيلينية. وإن اضافة الأحرف الصوتية إلى العبرية التوراتية، باستعمال إشارات صوتية خاصة، هو ما فعله المسّوريون الفلسطينيون والبابليون بين القرن السادس والتاسع أو العاشر من العصر المسيحي. وكانت اللغة العبرية في حينه قد غابت عن الاستعمال العام منذ ألف سنة أو أكثر]. (الصفحات ٥٧ ـ ٥٩).

تتضمن هذه المقدمة النظرية عدداً من المعلومات التي تنقصها الدقة، والآراء غير المستندة إلى واقع الأمور:

١ ـ يقول الصليبي أن هناك نصاً عبرياً واحداً لكتاب التوراة، تسلسل بشكله الثابت منذ القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العاشر الميلادي حيث انتهت عملية تنقيطه على يد المسّوريين. والحقيقة أن دراسات وثائق البحر الميت قد أثبتت وجود عدة نصوص للتوراة العبرية، لم يكن النص المسّوري إلا واحداً منها.

٢ ـ وهو يقول أن التوراة العبرية قد ترجمت بكاملها إلى اللغة الآرامية خلال المرحلة الأخمينية (أي بين فتوحات قورش والاسكندر)، وإلى اليونانية التي بديء بها في المرحلة الهلينستية. والحقيقة أن ما يدعى بالترجومات، وهي ترجمات التوراة إلى الآرامية الشرقية قد تمت بعد الميلاد، وفي حدود الفترة

الـواقعـة بين القـرنـين الثـاني والخـامس الميـلاديـين، كما تمت الترجمة المعروفة بالبشيطة إلى السريانية في خلال الفترة نفسها.

٣ ـ وهـو يرى أن اللغـة العـبر يـة قد خرجت عن إطار الاستعمال العام بعـد القـرن السـادس أو الخامس (ص ٥٧)، وماتت كلغة محكية، حيث راح قراء التوراة الذين لم يعرفوا كيف كانت اللغة العبر ية لكتبهم المقدسة تلفظ في الأصل، يضيفون إليها الإشارات على الأساس الآرامي، اللغة التي كانوا بها يتكلمـون (ص ٤٥). والحقيقـة إن خروج اللغـة العبر ية عن إطار الاستعمال العـام، والـذي لا يعـود قطعاً إلى هذا الوقت المبكر، لا يعني موت اللغة لأنها بقيت لغة مقدسة تستخدم في العبادات والطقوس وقراءة أسفار التوراة، على الأقـل بالنسبـة للكهنـة المتفـرغـين. وإذا كان العلماء المسّـوريـون الذين أكد الصليبي على دقتهم قد حفظـوا النص العـبر ي للتـوراة لفترة تزيد عن ألف سنة، فكيف تموت اللغة العبر ية في القرن الخامس ق.م، ولما يمض على بناء هيكل زربابل بضعة عقود من الزمن.

٤ ـ إن أول تحريـك للنص الـعـبر ي السـاكن قد اكتمـل على يد المسوريين بين القرن التاسع والعاشر الميلاديين، بعد مضي أكثر من ألف عام على موت اللغـة العـبر يـة (ص ٥٩)، ولهـذا فان ادخال الحركات والضوابط على النص، قد تم بصـورة اعتبـاطيـة في كثير من الأحيـان، مما غير اعراب الجمل وحور المعاني (ض ١٥). والحقيقة أن النص العبر ي المحرك قد اكتمل فعلاً على يد المسّوريين في القرن العاشر الميلادي، غير أن النص الساكن قد تم تحريكه بصورة غير مباشرة في وقت مبكر، وذلك عن طريق الترجمة إلى لغة مصـوتـة، كاليـونانية التي ترجم التوراة اليها أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. ولاعطاء مثال مبسط عما نعنيه بالتصويت غير المباشر، نقول إن كلمة «كتب» باللغـة العـربيـة، إذا وردت هكـذا وبـدون تحريـك، وإلى جانبهـا ترجمتها الانكليـزيـة «Wrote» فإن الكلمـة تعني الفعـل «كَتَبَ»، لا «كُتُبْ» كجمـع لكلمة «كتاب».

ولقد كان بين أيدي المسّوريين عدد لا بأس به من الترجمات إلى لغات مصوتة (كما سنبين لاحقاً) ترشدهم في مواضع الإشكال، وهذه الترجمات قد صيغت في وقت مبكر كان خلاله واضعوها على صلة مباشرة باللغة الحية أكثر من زملائهم المسوريين. من هنا، فان وصف كمال الصليبي عمل المسّوريين بالاعتباط لا يتفق وقوله فيهم: [ولو كان الباحثون المحدثون في التوراة بمثل عناية المسّوريين واحتراسهم لما كان علم التوراة الحديث على ما هو عليه من تشويش اليوم] (ص ٥٩)؟ ورغم أن هذا الأمر لا ينفي وقوع المسّوريين في أخطاء عديدة، إلا انه يجعل من مقولة الصليبي (بأن من الأضمن للباحث اعتبار لغة التوراة لغة مجهولة يتوجب تفكيك رموزها)، مبالغة لا تقوم على مبرر تاريخي أو علمي.

ومن أجل القاء مزيد من الضوء على ملاحظاتنا أعلاه، سنعمد فيما يلي إلى تقديم عرض تاريخي سريع لمسألة النص التوراتي[1].

إن كل ترجمات التوراة إلى اللغات الحديثة، ترجع إلى النص المسّوري، الذي اكمل العلماء المسّوريون تنقيطه في تاريخ لا يتجاوز القرن العاشر الميلادي. وكلمة مسوري ومسوريون هي النسبة إلى «ماسّوراه»، أي التقليد، لأن علماء الكتاب في ذلك الوقت، قد قرروا وضع الصيغة التقليدية النهائية لقراءة التوراة، من أجل اغلاق باب الاجتهاد في هذا المجال، في زمن صارت فيه اللغة العبرية في عداد اللغات الميتة فعلاً. غير أن النص الساكن الذي عمل المسّوريون على تحريكه، يرجع في عهده إلى مجمع «حمنيا» في أواخر القرن الأول الميلادي بين عامي ٩٠ و ١٠٠ ميلادية، حيث قام علماء الكتاب باختيار النص العبري المعتمد من بين نصوص عديدة كانت متداولة حينها.

إلى جانب النص التقليدي، لدينا ترجمات قديمة للتوراة بعضها يرجع

1- John Allergo, The Dead Sea Scrolls, Penguin, London 1966, Chapter ٤, ,PP. 59-83

إلى ما قبل الميلاد، اعتمدت نصوصاً مغايرة للنص التقليدي الذي تم تثبيته بعد ذلك، أهمها الترجمة اليونانية المعروفة بـ «السبعينية» (السبتوجنت)، التي أنجزت في الاسكندرية أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. على يد أثنين وسبعين عالماً في الكتاب، إبان عهد «بطليموس فيلاديلفوس» (٢٨٥ - ٢٤٦ق.م)، الذي جمعهم لهذه المهمة بعد أن سمع بالكتاب وأحب ضمه إلى مكتبته. وقد غدت الترجمة السبعونية الكتاب المتداول بين اليهود المتكلمين باليونانية، وشاعت في شتى بلدان حوض المتوسط، وبعد وقت قصير تم اعتمادها من قبل الكنيسة المسيحية الناشئة. وعندما أخذ المسيحيون يحاجون اليهود اعتماداً على النص السبعيني، فقد جاذبيته عند اليهود فعملوا إلى انجاز ترجمة أخرى، فظهرت ترجمة Aquila حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي، والتي يبدو أنها اعتمدت نصاً أقرب إلى النص التقليدي منه إلى النص الأصلي للترجمة السبعينية. وقد استبدل اليهود هذه الترجمة بالترجمة السبعينية التي بقيت مرجعاً عند المسيحيين. وبعد ذلك بقليل ظهرت ترجمة Symmachus التي تميزت بحرية أكثر في التعبير وباسلوب يوناني أكثر جزالة.

وبعد ذلك بنصف قرن ظهرت ترجمة Theodotion، التي يبدو أن أصلها العبري أقرب إلى أصل Aquila والنص التقليدي منه إلى السبعينية. وخلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، قام اوريجين الاسكندري بوضع نص مقارن قسمه إلى عدة أعمدة، حيث وضع في العمود الأول النص التقليدي، وفي الثاني النص التقليدي مكتوباً بالاحرف اليونانية*، واتبع ذلك بترجمة Aquila ثم Symmachus ثم Theodotion، وفي العمود الأخير الترجمة السبعينية مراجعة من قبله. غير أن المراجعة التي قام بها أوريجين للترجمة السبعينية، قد غدت بحد ذاتها ترجمة مستقلة، وتم تداولها على هذا الأساس.

---

* - راجع ما أشرنا إليه منذ قليل حول التصويت غير المباشر للنص العبري.

بين هذه الترجمات اليونانية، كان يبدو أن السبعينية وحدها تنتمي إلى تقليد يختلف عن التقليد الذي تنتمي اليه بقية الترجمات. ورغم أن الخلاف لا يمس القضايا الجوهرية، إلا أن السبعينية تقدم، في أجزاء من الكتاب وخصوصاً في الكتب التاريخية، قراءة أوضح، بينما يتفوق النص القليدي في المزامير والأمثال والأسفار الشعرية الأخرى. وكان السؤال المطروح، هو إلى أي حد تمثل السبعونية تقليداً مستقلاً تمام الاستقلال؟ وإلى أي حد ساهم المترجمون في حصول الاختلاف؟. وقد بقي هذا السؤال معلقاً دون جواب حتى عام ١٩٤٨ حين بدأت الوثائق المعروفة بمخطوطات البحر الميت تظهر تباعاً من كهوف وادي قمران عند البحر الميت، ومنها لفائف تحتوي على أجزاء متفرقة من أسفار التوراة، بينها أجزاء لا بأس بها من سفر أشعيا وسفر صموئيل الأول، ومتفرقات من أسفار موسى الخمسة، وشذرات أخرى من هنا وهناك. وقد أرجع الباحثون أقدم نص بينها إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. بينما تتوزع بقية الوثائق التوراتية على مدى القرن الثاني قبل الميلاد*.

وفي وقت قصير تم تشكيل لجنة دولية لقراءة نصوص قمران وترجمتها شارك فيها علماء من خمس دول هي: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا وبولندة. وكانت لفيفة سفر إشعيا أول ما تم ترميمه وقراءته، وقد تبين أنها تتبع بدقة النص التقليدي حتى في أصغر جزيئات التهجئة، الأمر الذي أكد على قدم النص التقليدي واستمراريته. إلا ان الاجزاء التي عثر عليها من سفر صموئيل الأول، وتمت عملية ترميمها وقراءتها بعد عدة سنوات، كانت مفاجأة للعلماء، لأنها قدمت نصاً يتفق مع السبعينية كلمة فكلمة تقريباً. وبذلك تم

---

* - يقول كمال الصليبي في حاشية مقتضبة أسفل الصفحة ٥٩، [ان وثائق البحر الميت قد تكون ذات فائدة في دراسة اليهودية الفلسطينية في أيام الرومان، ولكنها لا تنفع في حل الغاز وغوامض التوراة العبرية، وليس لها قيمة بالعلاقة مع غرض هذه الدراسة]. ولكننا سنظهر فيما يلي مدى قيمة هذه الوثائق بالعلاقة مع غرض هذه الدراسة.

الحصول على جواب السؤال القديم المعلق، فالترجمة السبعونية تمثل تقليداً مختلفاً عن النص المسوري، ذي أصول مستقلة. وسنقدم فيما يلي مثالاً من سفر صموئيل الأول في ترجمته السبعينية، وفي نص قمران وفي النص التقليدي المسوري وفق الترجمة العربية، لاعطاء فكرة عن نوعية الاختلاف والاتفاق بين هذه النصوص الثلاثة:

صموئيل الأول ١: ٢٣ - ٢٤

قمران	السبعونية
فمكثت المرأة وارضعت ابنها حتى فطمته.	فمكثت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.

النص التقليدي

فمكثت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.

وأصعدته معها الى «شيلوة» مع عجل ذي ثلاث سنين وخبزاً وإيفة دقيق وزق خمر. ودخلت بيت الرب في شيلوة ومعهم الصبي.	وصعدت معه إلى «سلوام» مع عجل ذي ثلاث سنين وخبزاً وإيفة دقيق وزق خمر. ودخلت بيت الرب في سيلوم ومعهم الصبي.

ثم حين فطمته أصعدته معها
بثلاث ثيران وإيفة دقيق وزق خمر،
وأتت به إلى الرب في «شيلوة».
والصبي صغير

وجـاءوا أمام الرب، وذبح أبـوه التقـدمة، كما فعل سنة بعد سنــة للرب. ثم قربــوا الـصبي فذبـح العجـل. وأتت حنـة، أم الصبي إلى «عالي» وقالت:	وجـاءوا أمام الرب، وذبح أبـوه التقـدمة، كما فعل سنة بعد سنــة للرب. ثـم قربــوا الصبي فذبـح العجـل. وأتت حنـة، أم الصبي إلى «عالي» وقالت: . . .

فذبحــوا الثـور، وجـاءوا بالصبي إلى
«عالي» وقالت: . .

ولعـل من المفيـد أيضـاً أن نعطي مثـالاً عن كيفيـة انحـراف الـترجمـة السبعينيـة عن أصلهـا العـبري القديم في بعض المواضع الحرجة التي تعكس العنـاصـر الـوثنيـة في التـوراة، وعن كيفيـة التفاف النص التقليدي على هذه الفقرات. والمثال من سفر تثنية الاشتراع . .

التثنية ٣٢ : ٤٣

قمران	السبعونية
تهللي أيتها السماوات معه وأنتم أيها الآلهة اعبدوه	تهللوا أيها الأمم مع شعبه وأنتم يا ملائكة الله اعبدوه

النص التقليدي

تهللوا أيها الأمم، شعبه

وإلى جانب التأكـد من وجـود أصل عبري مستقل للترجمة السبعينية، فقـد أكـدت لنـا مخطـوطـات البحر الميت وجود أصول عبرية قديمة لنصوص

توراتيـــة متـداولـة إلى جانب النص التقليـدي، مثـل التـوراة السـامـريـة. فالسـامـريـون، منـذ تكـوين طائفتهم الصغيرة في القرن الخامس قبل الميلاد يعتمدون توراة لا تحتوي إلا على أسفار موسى الخمسة، ويعتقدون ببطلان ما عداها. وهذه تختلف مع النص التقليدي في ستة آلاف موضع، بينها ١٩٠٠ موضـع تأتي في اتفـاق مع الـترجمـة السبعينية. وتعود أقدم نسخها إلى القرن الحـادي عشـر الميـلادي، رغم أن السـامـريـين يعتقدون بأنها ترجع إلى أيام موسى نفسه. وكان علماء الكتاب يقفون موقف الحذر من الأسفار السامرية، معتقدين أن الاختلافات فيها إنما هي من صنع السامريين، لتثبيت معتقداتهم في مواجهـة اليهـود والـدفـاع عن وجهـات نظرهم تجاههم. إلا أن مخطوطات البحر الميت قد أثبتت وجود أصل عبري قديم للتوراة السامرية. ففي الكهف الرابع من كهوف قمران، تم العثور على بقايا من مخطوط قديم لأسفار موسى الخمسة، يتفق مع التوراة السامرية ضد النص التقليدي والترجمة السبعينية. الأمـر الـذي أثبت أصـالـة وقـدم كتاب السامريين وانتسابه إلى تقليد مستقل بذاته، له من المشروعية ما للنص التقليدي.

وهكذا نجد أن الطائفة المنشقة عن اليهودية، التي كانت تقيم في مناطق قمـران المنعزلة، كانت تحتفظ إلى جانب نصوصها الخاصة، بنصوص توراتية تنتمي إلى تقـاليـد متعـددة دون أن تلزم نفسهـا بتقليد معين. ومن المؤكد أن تعدد التقاليد هذا، هو الذي حث مجمع «جمنيا» على تثبيت النص التوراتي بشكل نهائي، باعتماد أحد التقاليد واعتباره الممثل الحقيقي للكتاب المقدس. وهـذا التقليـد المعتمـد هو الذي أوصله المسوريون إلى صيغته المنقطة المعروفة اليوم. ولعل أهم ما قدمته مخطوطات البحر الميت التوراتية إلى علم الكتاب، هو تغيير موقف العلماء الحديثين من النص المسّوري، لأنه لم يعد يمثل النص الـوحيـد الحقيقي في مقـابل نصوص مشكوك بأمرها. وصار من المشروع، بل ومن الضروري، أن يرجع العلماء إلى النصوص الأخرى في مواضع الاشكال

أو الغموض التي يطرحها النص المسوري التقليدي، بعد أن تبين أن لها من الأصالة ما يدانيه.

وبعيداً عن التقاليد المتنوعة للنص التوراتي، أخذ العلماء تدريجياً بالاعتماد على نصوص اوغاريت، بعد أن تبين مدى الصلة بين الكنعانية الأوغاريتية ولغة التوراة المدعوة بالعبرية (والتي ليست سوى كنعانية فلسطين مكتوبة بالخط الآرامي المربع). وقد أدت هذه الدراسات المقارنة حتى الآن، إلى القاء الضوء على مئات المواضع الغامضة في النص التقليدي اعتماداً نصوص أوغاريت. وسنقدم فيما يلي مثالاً واحداً لغرض الإيضاح[1]، وهو مأخوذ من أنشودة دبورة في سفر القضاة، التي يعتبرها علماء الكتاب من أقدم نصوص التوراة، وذلك اعتماداً على أسلوبها وطبيعة الكلمات المستخدمة فيها:

«جلعاد» في عبر الأردن سكن،
و«دان» لماذا استوطن عند السفن،
و«أشير» أقام على ساحل البحر، وفي فُرضه سكن.
ـ القضاة ٥ : ١٧ ـ

تلوم النبية دبورة في هذا المقطع القبائل التي لم تهب إلى مساعدتها ضد «سيسرا» قائد جيوش مدينة حاصور الكنعانية. و المشكلة تكمن هنا في السطر الثاني الذي يقول إن أهل دان أقاموا عند السفن، في الوقت الذي نعرف فيه أن الدانيين لم يسكنوا عند البحر ولم يمارسوا أي نشاط بحري على الاطلاق. فالذي يضفي الغموض على ادانة دبورة للدانيين هو كلمة «السفن» التي وردت في العبرية الساكنة «ءنيوت» وتعني «سفن». ولكن السفن هنا لا محل لها في المعنى المراد توصيله، ولا بد أن في الكلمة تجانساً في التهجئة مع كلمة أخرى تختلف عنها في المعنى. ومثل هذه الفرضية بدا مرجحاً، نظراً لقدم الأنشودة وخروج بعض كلماتها عن الاستعمال العام. ولكن ماهو المعنى

1- Peter C. Craigie, Ugarti And The Old Testament, Erdmans, Michigan 1983, pp. 84-86.

الآخر، الذي خرج عن الاستعمال، لكلمة «ء نيوت»، خصوصاً وأنه لا وجود لمعنى آخر لها في التوراة؟

وكمثال قريب من اللغة العربية عن مثل هذا التجانس بين كلمتين متفقتين في التهجئة ومختلفتين في المعنى، نجد كلمة «زند» التي تعني أعلى الذراع، و«زند» التي تعني عود الخشب الذي تقدح به النار، وذلك بتحريكه حركة دائبة ضمن ثقب محفور في عود آخر يدعى «الزندة» مما يؤدي إلى اشتعاله بالنار. وقد بقيت الكلمة الأولى مستعملة في لغتنا الحديثة، بينما انقرضت الكلمة الثانية التي لا نعثر عليها إلا في الأشعار الجاهلية أو المعاجم. ولكن المشكلة المتعلقة بموضوعنا هنا، هي أن التوراة هي المرجع الوحيد للغة العبرية، ومن غير الممكن تقصي الكلمات المهجورة في أي مرجع آخر. هنا قدمت الكنعانية الأوغاريتية الحل الأقرب إلى الصحة لفهم كلمة مهجورة في الكنعانية التوراتية.

ففي ثلاثة نصوص أوغاريتية، وردت كلمة «ءن» وبشكلها الآخر «ء ني» بمعنى يسترخي أو يركن إلى الراحة. وفي أحد هذه النصوص وردت الكلمة متعلقة بالفعل «جر» أي يبقى، وهذه حقيقة مثيرة للاهتمام، لأن «جر» الأوغاريتية تعادل «جور» العبرية المستعملة في السطر أعلاه والمتبوعة بالكلمة الغامضة «ءنيوت» وبذلك يكون التعبيران الأوغاريتي والتوراتي متعادلان لغوياً، وتغدو الترجمة الصحيحة للمقطع كما يلي:

جلعاد في عبر الأردن سكن.

ودان لماذا بقي مرتاحاً

وأشير لماذا اقام على ساحل البحر، وفي فُرضه سكن.

لقد أردنا من ذلك كله توضيح عدد من الأمور الهامة الوثيقة الصلة بموضوعنا. فأولاً، إن حل اشكالات النص العبري للتوراة، عند هذه المرحلة المتطورة من علم الكتاب، لا يتأتى من التسمر عند الصيغة المسّورية

ومحـاولـة استنطاقها ما لا تستطيع النطق به، كما فعل كمال الصليبي. ذلك أن المعلومـات التي صارت متيسـرة أمام الباحثين الآن، تتيح لهم عدداً متنوعاً من المصادر التي تضيء النص التقليدي من خارجه، خصوصاً وأن ترجمات التوراة المختلفـة التي اعتمـدت أصـولاً مغـايـرة للنص التقليـدي، قد صار لها الآن المشروعية نفسها، واللجوء اليها يزود الباحث بنظرات ثاقبة ومصيبة، لمن كان أقـرب إلى لغـة التـوراة من أي بحـاثـة في العصر الحديث. فإذا عجزت هذه الـترجمـات عن ايضـاح بعض الغوامض، يبقى لدينا نصوص قمران، واللغة الكنعانية الأم بلهجاتها المختلفة مثل الأوغاريتية والفينيقية.

وإن ما قمنـا به من تعـريف سريـع بالـترجمات اليونانية للتوراة وتواريخ انجـازهـا وتـسلسلها الينا من مصادر عبرية مختلفة، ومن تعريف بمخطوطات قمـران التـوراتيـة، ينفي مقـولـة الصليبي عن موت اللغة التوراتية اعتباراً من القـرن الخـامس قبل الميلاد، وان موت هذه اللغة قد ساهم في نسيان جغرافية الحـدث التـوراتي (الصفحات من ٤٥ إلى ٤٩). فإذا كان أقدم نص توراتي من نصـوص قمـران يرجـع إلى نهايـة القـرن الثالث قبل الميلاد، وأقدم ترجمة ذات أصـل مستقـل، وهي السبعـونيـة، ترجع إلى أواسط القرن الثالث قبل الميـلاد، أي بعـد قرنـين فقـط من بنـاء نحميـا لسور أورشليم بعد العودة من السبي، وقـرنـين ونصف من اعادة بناء الهيكل على يد زربابل، فكيف تسنى لهؤلاء نسيـان مسـرح الحـدث التـوراتي في غرب العربية، خلال هذا الوقت القصير جداً.

وأخـيراً، ان توضيـح تاريـخ النص التقليـدي للتـوراة العبرية، الذي اعتمـد عليـه الصليبي كوثيقـة وحيـدة، يضعنا في جو تمهيدي للبدء في تقديم بيناتنا النصية التي تعتمد على الوثيقة ذاتها.

وسنعمد فيما يلي من فصول هذا الباب إلى تقديم ما قاله كتاب التوراة بكلماتـه ذاتهـا، حول بعض المسـائل الهامة التي أثار حولها الجدل الدكتور كمال الصليبي، وجميعه لا يقدم سنداً من قريب أو بعيد لأطروحاته كلها.

٩ ـ مسألة الأردن

بعد نقل مواقع الحدث التوراتي إلى غرب العربية، واجهت الصليبي مشكلة شائكة هي مشكلة «نهر الأردن» الذي ترتبط به جل أحداث التوراة الرئيسية. فكيف توصل إلى حلها؟. نقرأ في فصله المعنون «مسألة الأردن» ما يلي:

[الأردن (هـ ـ يردن) لم يكن في التوراة العربية نهراً. وأكثر من ذلك، فان أهل الاختصاص يعرفون تماماً أنه ما من مكان وردت فيه الكلمة في النصوص التوراتية معرفة على أنها نهر. أما كيف صار النهر الفلسطيني الشهير يعرف بهذا الاسم فهي مسألة تستحق التمحيص بحد ذاتها، ولكنها ليست المسألة التي سنتطرق اليها هنا. والمسألة المباشرة والآنية هي التالية: إذا كان أردن التوراة العبرية ليس نهراً، فماذا يمكن أن يكون؟ ... في الاستعمال التوراتي، تؤخذ كلمة «هـ ـ يردن» تقليدياً على أنها اسم النهر المعروف في فلسطين، ولكنها ليست دوماً اسماً بل تعبير طوبوغرافي يعني «جرف» أو «قمة» أو «مرتفع». وفي المبنى «عَبرْ هـ ـ يردن» (عَبرْ أو ما بعد الأردن)، الذي أُخذ حتى الآن على أنه يعني «عبر الأردن» (أي شرق الأردن) تشير «هـ ـ يردن» بلا استثناء إلى الجرف الرئيسي لسراة عسير الجغرافية، الذي يمتد من الطائف في جنوب الحجاز إلى منطقة ظهران الجنوب قرب الحدود اليمنية. وفي معظم الحالات، تشير «عبر هـ ـ يردن» إلى أراضي عسير الداخلية تفريقاً لها عن عسير الساحلية التي كانت أرض يهوذا الاسرائيلية. وعلى العموم فان

«هـ ـ يردن» من دون «عبر» يمكنها أن تشير إلى أي جزء من جرف عسير، وكثيراً ما تشير أيضاً إلى أي من القمم والمرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز] (ص ١٣٣ ـ ١٣٤).

والنقطة المصيبة في مقدمة الصليبي عن مسألة الأردن، هي أنه فعلاً لم ترد الكلمة في التوراة معرفة على أنها نهر في كل المواضع التي وردت فيها. ولكن السياق الذي وردت فيه دوماً، لا يدع مكاناً للشك بأن المقصود بالكلام هو نهر بعينه يدعى نهر الأردن. وسنقدم فيما يلي بضع أمثلة تكفي لتوضيح ذلك.

نقرأ في سفر الملوك الثاني ٦ : ١ ـ ٦ [وقال بنو الأنبياء لأليشع هوذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك، ضيق علينا. فلنذهب إلى الأردن ونأخذ من هناك كل واحد خشبة ونعمل لأنفسنا هناك موضعاً لنقيم فيه. فقال اذهبوا. . . وإذ كان واحد يقطع خشبه وقع الحديد في الماء، فصرخ وقال آه يا سيدي، لأنها عارية (أي أن الفأس كانت مستعارة). فقال رجل الله أين سقط؟ فأراه الموضع فقطع عوداً وألقاه هناك فطفا الحديد. .]. في قصة معجزة النبي اليشع هذه، هناك تتابع منطقي في الأحداث لا يمكن أن يشير إلى أن المقصود بالأردن جرف صخري من أي نوع كان. فالجماعة تذهب لتحتطب خشباً من ضفاف الأردن لا من ذرى الجرف الصخري حيث لا توجد الأخشاب، وهناك تقع رأس الفأس الحديدية من أحد الرجال في الماء، الذي هو ماء نهر الأردن، لأن مجمعات المياه عادة لا توجد في الجروف الصخرية.

ونقرأ في سفر يشوع عن معجزة فلق مياه الأردن أمام الاسرائيليين عند عبورهم ما يلي: [فقال الرب ليشوع . . . وأما أنت فأمر الكهنة حاملي تابوت العهد قائلاً: عندما تأتون إلى ضفة مياه الأردن تقفون في الأردن ... ويكون حينما تستقر بطون أقدام الكهنة حاملي تابوت الرب، سيد الأرض كلها، في مياه الأردن، أن مياه الأردن المياه المنحدرة من فوق تنفلق وتقف ندا وحداً. ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكي يعبروا الاردن، والكهنة حاملو تابوت العهد

أمـام الشعب، فعنـد اتيـان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حامـلي التـابـوت في ضفـة الميـاه، والأردن ممتـلىء إلى جميـع شطـوطه كل أيام الحصاد، وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت نداً واحداً بعيداً جداً عن أدام، المدينة التي إلى جانب صرتان، والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا]. يشوع ٣: ١٣ - ١٧. [فكان لما صعد الكهنة حاملوا تابـوت العهـد من وسـط الأردن، واجتـذبت بطـون أقدام الكهنة إلى اليابسة أن مياه الأردن رجعت إلى مكانها وجرت كما من قبل إلى كل شطوطه] يشوع ٤: ١٨.

من هذا الـوصف الملحمي الحي لعبـور الأردن، يتضـح دون لبس أو إبهـام أن المقصـود بالأردن هو نهرٌ وليس جرفـاً صخـريـاً. ذلك أن الحديث يدور حول «مياه الأردن» و«ضفة مياه الأردن» و«الأرجل التي تنغمس في ضفة المياه» و«شطـوط الأردن»، ونحن إذا استبـدلنـا كلمـة «الجرف» بكلمة «الأردن» في المقاطع أعلاه لحصلنا على الوصف الغامض التالي: [عندما تأتون إلى ضفة مياه الجرف، تقفون في الجرف. ويكون حينما تستقر بطون أقدم الكهنة حاملي تابـوت الـرب في ميـاه الجـرف، أن ميـاه الجـرف.. الـخ. فعند اتيان حاملي التـابـوت إلى الجـرف وانغـماس أرجـل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه، والجـرف ممتـلىء إلى جميـع شطوطه كل أيام الحصاد. وقفت المياه المنحدرة من فوق.. الخ]، وهو قول لا معنى له اطلاقاً.

وفي تعليقـه على كلمـة «شـاطىء الأردن» أو «شطـوط الأردن» يقـول الصليبي إن تعبير «شاطيء الأردن» الذي يرد في ترجمات التوراة كترجمة لتعبير «سفت هـ - يردن» بالعبـريـة، لا يعني «شـاطيء الأردن» بل «شفـا الجـرف» (ويستشهد على ذلك بسفر الملوك الثاني ٢: ١٣ دون أن يورد الشاهد. فلننظر الآن إلى تعبـير «شـاطيء الأردن» في سفـر الملوك الثـاني ٢: ٧ - ١٣ في سياقه العـام لنعـرف ما هو المقصـود فعـلاً بـ «سفت هـ - يردن». يروي الموضع من السفـر معجـزة قيـام النبي ايليـا بفلق مياه الأردن بردائه، فقبل ان يصعد إيليا

إلى السماء بمركبة نارية يأخذ بيد اليشع إلى الأردن حيث يسلمه النبوة هناك: [ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس. ولما عبرا، قال إيليا لا ليشع اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك. فقال ليكن نصيب اثنين من روحك علي... وفيما هما يسيران ويتكلمان، إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما، فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء. وكان اليشع يرى وهو يصرخ.. ولم يره بعد. فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين، ورفع رداء ايليا الذي سقط عنه ورجع ووقف على شاطيء الأردن، فأخذ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال أين هو الرب إله إيليا، ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر اليشع].

من الواضح في المقطع أعلاه أن الحديث يجري عن نهر وليس عن جرف صخري. فالنبيان يقفان أولاً «بجانب الأردن»، ولا معنى لقولنا أنهما وقفا «بجانب الجرف»، وهناك يأخذ إيليا رداءه ويضرب الماء فيفلقه ويعبر كلاهما في اليابسة. وبعد صعود إيليا الى السماء، يستبدل النص تعبير «جانب الأردن» بتعبير «شاطيء الأردن» حيث يقف اليشع في نفس الموضع على الضفة الأخرى التي عبرا إليها ويكرر المعجزة بعد أن حلت عليه روح إيليا. ولامكان هنا لاستبدال «شاطيء الأردن» بـ«شفا الجرف» لسببين، الأول أنه ما من مبرر يدعو النبيين إلى الصعود إلى أعلى الجرف، والثاني أن شفا الجرف لا يحتوي على المياه.

غير أن الصليبي يتقدم بتفسير لوجود الماء على الجرف الصخري، وذلك في تعليقه على رواية عبور يشوع لنهر الأردن الواردة أعلاه، عندما عبرت قوات يشوع الأردن «وهو ممتليء إلى شطئانه»، فيقول أنهم [انطلقوا إلى عبورهم في وقت الحصاد، عندما كانت الوديان على جانبي الجرف ممتلئة بمياه السيول. وعندما وصلوا إلى النقطة التي يمكنهم عبورها، تراجعت

المياه، أو هي جعلت تتراجع ببناء سدود لتحويل مجراها، لتسمح لهم بالعبور. فنهر الأردن لا يفيض في وقت الحصاد، وهو آخر الربيع. وعلى العموم فإن هذا هو موسم الأمطار الغزيرة في عسير الجغرافية، وهي الأمطار التي يمكنها أن تتسبب في سيول هائلة أحياناً] (ص ١٣٨ وحاشيتها رقم).

وهذا التفسير لا ينطبق على رواية العبور بتاتاً. فصياغة تعبير «والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد» دقيقة وواضحة ولا تحتمل استبدال كلمة الأردن، كنهر، بالجرف الصخري، وإلا لتحدثت الرواية التوراتية عن سيول ووديان الجرف. ثم انه من الواضح أن الحديث هنا يجري عن عقبة مائية دائمة يتوجب اجتيازها، لا عن سيل مؤقت يمكن انتظار تراجعه خلال فترة قصيرة. أما عن قول الصليبي بأن نهر الأردن لا يفيض في وقت الحصاد وهو آخر الربيع، فان النص التوراتي لم يتحدث عن فيضان بل عن امتلاء، والفرق كبير بين المعنيين. ذلك أن الأردن لا يفيض فعلاً في أي فصل من فصول السنة، ولا يجب أن نخلط هنا بين ظاهرة الفيضان التي تتميز بها بعض الأنهار كالنيل مثلاً حيث يغمر الماء الأراضي الزراعية المحاذية لضفتيه، وظاهرة الامتلاء الطبيعي للنهر حيث يزداد منسوب المياه دون حدوث الفيض. فمياه الأردن ترتفع في الربيع بسبب ذوبان الثلوج على جبل حرمون، وقد تصل فعلاً إلى جميع شطوطه في بعض السنين. وهذه ظاهرة تشترك بها كل الأنهار التي تعززها مياه الثلوج الجبلية.

وفي سفر صموئيل الثاني ١٩ : ١٥ ـ ١٨، نجد أن الأردن يُعبر بواسطة القوارب وخوضاً على الأرجل: [فرجع الملك وأتى إلى الأردن، وأتى يهوذا (أي جمع سبط يهوذا) إلى الجلجال سائراً لملاقاة الملك، ليعبر الملك الأردن. فبادر شمعي بن جيرا البنياميني الذي من بحوريم ونزل مع رجال يهوذا للقاء الملك داود، ومعه ألف رجل من بنيامين وصبياً، غلام بيت شاؤول وبنوه الخمسة عشر وعبيده العشرون معه. فخاضوا الأردن أمام الملك، وعبر القارب لتعبير بيت الملك وعمل ما يحسن في عينيه]. في هذا المقطع، لا

نستطيع التصديق أيضاً بأن السيول على جانبي الجرف هي التي قطعها الرجال خوضاً على الأرجل، ثم جاءوا بقارب ليعبر عليه الملك وأهله مياه الأردن، فالتعبير اللغوي «خاضوا الأردن» لا يمكن أن ينطبق إلا على مياه النهر. فنحن نستطيع أن نقول مثلاً «خاض نهر بردى» أو «خاض بردى» لتأدية المعنى نفسه، ولكن من الخطأ أن نقول: «خاض الجرف» بمعنى خاض سيولاً على جانبي الجرف. أما عن خوض مياه نهر الأردن على الأرجل فأمر معروف، حيث يتسع سرير النهر في مواضع عديدة تدعى معابر أو مخاضات، وتكثر خصوصاً في الشمال.

وفي سفر الملوك الثاني ٥ : ٩ ـ ١٤، يأتي «نعمان» القائد الآرامي إلى النبي اليشع آملاً أن يشفيه من برصه، فيطلب منه النبي أن يغتسل في نهر الأردن ليشفى: [فجاء نعمان بخيله ومركباته ووقف عند باب اليشع فأرسل اليه اليشع رسولاً يقول إذهب واغتسل سبع مرات في الأردن فيرجع اليك لحمك وتطهر. فغضب نعمان ومضى وقال: هوذا قلت أنه يخرج إلي ويقف ويدعو باسم الرب اله ويردد يده فوق الموضع فيشفى الأبرص. أليس إبانة وفرفر نهرا دمشق أحسن من جميع مياه اسرائيل، أما كنت أغتسل بها فأطهر؟ ورجع ومضى بغيظ. فتقدم عبيده وكلموه وقالوا: يا أبانا لو قال لك النبي أمراً عظيماً أما كنت تعمله؟ فكم بالحري إذا قال لك اغتسل واطهر. فنزل وغطس في الأردن سبع مرات حسب قول رجل الله، فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر].

وتعقيباً على هذه الرواية، لا يجد الصليبي مناصاً من الاعتراف بأن كلمة الأردن هنا تعني جدول ماء، فيقول [وعلى العموم فان تعبير «يردن» يظهر في بعض الحالات في التوراة بمعنى جدول أو بركة. وبهذا المعنى تكون الكلمة مشتقة من «يرد» بمعنى ذهب إلى الماء. وهكذا فان «هـ ـ يردن» التي غطس فيها نعمان الآرامي سبع مرات ليعالج نفسه من الجذام كانت بالتأكيد بركة ماء أو نبعاً أو جدولاً. وإذا أخذ في الاعتبار أنها كانت قرب السامرة

(«شمرون» التي هي «شمران») في جنوب القنفذة، فان «يردن» نعمان كانت بلا شك تشير إلى مجمع مياه وادي «نعص» الذي يجري هناك]. وهكذا يضيف الصليبي دلالة جديدة تضاف إلى الدلالات التي أعطاها لكلمة الأردن. فهي الجرف الرئيسي لسراة عسير، أو أي جزء من هذا الجرف، أو أي من القمم والمرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز، أو أي جدول أو بركة ماء. وهذه، لعمري، خيارات واسعة جداً للتعامل مع كلمة بسيطة واحدة، وردت في صيغة واحدة عبر الكتاب بأكمله. ولا ندري لماذا اختار محرروا التوراة استعمال هذا التعبير الفضفاض للدلالة عن عدد متنوع من المعالم الجغرافية، وهم المعروفون بتسميتهم الدقيقة للأماكن والمعالم والأشخاص المهمين منهم والثانويين، إلى درجة تبعث على السأم أحياناً.

ويتوقف الصليبي عند صيغتين تكررتا مرات قليلة في التوراة هما «هذا الأردن» و«أردن أريحا» فيقول: [«يردن يرحو» لا يعني «أردن أريحا»، بل «جرف يرحو». ويرحو هنا تشير إلى مرتفع من جبل «عيسان» في بلاد زهران، حيث يبدأ وادي «وراخ»، وفيه أيضاً قرية اسمها وراخ. وحقيقة أن هنالك أكثر من «يردن» واحدة، تظهر أيضاً في التعبير «هـ ـ يردن هزة» أي «هذا الجرف» أو «هذا المرتفع»، وليس «هذا الأردن» الذي يرد ما لا يقل عن ست مرات في أسفار مختلفة من التوراة. ولو كانت «هـ ـ يردن» اسماً لنهر معين، أو في هذه الحالة اسماً لجرف أو مرتفع معين، لكان يصعب التفكير بسبب يقضي بالإشارة إليه بهذه الكثرة بالتعبير «هذا الأردن»](ص ١٣٥).

والحقيقة، أنه لدينا أكثر من مثال يثبت أن المقصود بأردن أريحا هو ذلك المقطع من نهر الأردن المقابل لمدينة أريحا. ففي سفر العدد ٣٣: ٤٨ ـ ٥٠ [ثم ارتحلوا من جبال عباريم ونزلوا في عربات موآب على أردن أريحا. نزلوا على الأردن من بيت بشموت إلى آبل شطيم في عربات موآب. وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلاً..] فالنص هنا يستخدم «أردن أريحا»

بالـترادف مع «الأردن». فبعـد القـول بأن القوم نزلوا في منطقة عربات موآب على «أردن أريحا»، يحدد بدقة المناطق التي نزلوا فيها على «الأردن» فهي تمتد من بشمـوت إلى آبـل شطيم. ومن ناحيـة أخـرى فنحن لا نرى في استخدام تعبير «أردن أريحا» خروجاً عن المألوف. ففي العربية يمكن أن نقول مثلاً «إن فرات جرابلس أضيق مجرى من فرات الرقة» أي أن الفرات في منطقة جرابلس أضيق مجرى من الفـرات في منطقـة الـرقـة. وأهـل المنطقة الوسطى في سورية حيث يمر نهر العاصي، يسمى مقطع النهر باسم المكان القريب منه، فيقولون «عاصي الخراب» و«عاصي الجديدة» و«عاصي الميماس».

أمـا تعبـير «هـذا الأردن» الذي قال الصليبي أنه يرد مالاً يقل عن ست مرات في أسفـار مختلفـة من التـوراة، وأن وروده بهذه الكثـرة يشـير إلى دلالته على مرتفعـات مختلفـة عن بعضهـا، فاننـا أيضـاً لا نرى في هذا الاستخـدام خروجـاً عن المألـوف. فقـد نقول بالعربية «إعبر هذا الفرات» بديلاً عن قولنا إعبر نهر الفرات هذا. أما كثرة ورود التعبير في أسفار التوراة، التي يؤكد عليها الصليبي، فلا أسـاس لها من الصحة، فمن بين مائـة وأربعين مرة تقريباً ورد فيها اسم الأردن، جاء ست مرات ضمن تعبير «هذا الأردن».

ولابـد من الإشـارة أخـيراً إلى السؤال الـذي طرحه كمال الصليبي في مطلع مقـدمتـه دون أن يلمـح إلى إجـابـة شافية عنـه عندما قال: [أما كيف أصبـح النهـر الفلسطيني الشهـير يعـرف بهذا الاسم، فهي مسألـة تستحق التمحيص بحد ذاتهـا، ولكنهـا ليست المسألـة التي سنتطـرق إليهـا هنـا. .].

والـواقـع أن تسميـة نهر الأردن في فلسطـين قديمـة قدم كنعـان، ولا نخـال الصليبي قادراً على عزوها للإسرائيليين الذين سموا المواقع والهيئات الجغرافية في فلسطين بأسماء مواقع وهيئات ألفوها في غرب العربية، ذلك أن نهر الأردن قد ورد باسمـه الكنعـاني في السجـلات المصـريـة قبـل وقت طويل من ظهور الاسرائيليين (راجع الصفحة ٧١ سابقاً).

١٠ - الخـــروج ومسـألة مصـر

إن المشكلة الأساسية في مسألة تاريخية التوراة تكمن، كما اشرنا سابقاً، في عدم توافق الـروايـة التـوراتية، في ما يتعلق بدخول الاسرائيليين إلى مصر والخـروج منهـا، مع التـواريخ المصرية والسجلات الملكية الفرعونية. ولما كان الخـروج من مصـر بالطـريقـة التي قدمتهـا الـروايـة التـوراتية، يشكل المحور الرئيسي في كتاب التوراة برمته، فقد جهد المؤرخون المهتمون بهذا الموضوع في صيـاغـة نظـريـات معقـولـة حول الخروج وزمنه، تجعله في سياق مع التاريخ المصـري. فقـال البعض بأن الاسـرائيليـين ليسـوا إلا جماعـة من الهيكسوس غادروا مصــر إبــان الـثـورة الـشــامـلة التي طردتهم من هنـاك حوالي عام ١٥٧٠ق.م. وقـرن البعض بين العـبرانيـين والعـابـيرو الذين كانوا يهاجمون المـدن الفلسطينيـة خلال فترة تل العـمارنة في مصر. وقام فريق ثالث بالتوسط بين النظـريتـين، فقـال ان الاسـرائيليـين قد خرجـوا من مصر مع الهيكسوس ودخلوا فلسطين باعتبارهم عابيرو، بعد فترة تجول تزيد عما ذكر في التوراة.

غير أن آراء المؤرخـين تتفق اليــوم على أن الخـــروج قد تم في عهـــد الفـرعـون رمسيس الثاني، حوالي عام ١٢٦٠ق.م، وذلك لأسباب عديدة لا مجال لبسطهـا هنـا، منهـا أن الخروج قد تم، وفق الرواية التوراتية، من مدينة «رعمسيس». وهذه المدينة، كما هو معروف من السجلات المصرية، قد بناها رمسيس الثـاني الـذي اشتهـر بتشييـد المباني العامة واطلق عليها اسمه. ومنها

أيضـاً، أن اسم اسـرائيـل قد ورد لأول مرة في السجـلات التـاريخية، في نص للفرعون «مرنفتاح» عام ١٢٢٠ ق.م، يتحدث عن وجود فئة في كنعان اسمها اسرائيل. وقد ورد الاسم في صيغة لغوية هير وغليفية تدل على شعب متجول غير مستقر[1].

في مقابل هذه المحاولات التاريخية الجادة لإعطاء صبغة شبه تاريخية لحادثة الخـروج الملحميـة، قامت محاولات أخـرى تهدف إلى تقـويض كل معـارفنـا التـاريخيـة المتحصلة حتى الآن وفق المنـاهـج العلميـة، من أجل اثبات صحة الـروايـة التوراتية بحرفيتها وكما وردت في التوراة، باعتبار أن الكتاب هو كلمة الـوحي التي لا تخطيء. من ذلـك، نذكـر أعـمال الأمـيركي «عـمانـوئيـل فيليكـوفسكي»، وخصـوصـاً كتـابـه «عصـور في الفوضى»[2]، الذي احدث ظهـوره منـذ عام ١٩٥٣ كثـيراً من الجـدال داخـل حلقـات الاختصـاصيين وخارجها. وكان منطلق فيليكوفسكي هو ان عدم التوافق بين الرواية التوراتية والتـاريـخ المصـري، لا يرجـع إلى خلل في الـرواية التوراتية بل إلى خلل في المعلومات التاريخية المتحصلة لدينا. من هنا، أخذ على عاتقه مهمة تصحيح تاريـخ مصـر وتـاريخ الشرق الأدنى القديـم، فعمد إلى دفع التواريخ المصرية مدة ستمائـة سنة إلى الامام، وعاد بتاريخ الخروج إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إبان نهايات المملكة المتوسطة، وذلك باسلوب مبدع يختلط فيه البحث التاريخي بالأسلوب الروائي البوليسي*.

ونظرية الصليبي في مسألة الخروج، تعتمد بدورها على القبول بحرفية الـروايـة التوراتية والبحث عن منفذ للخروج من مأزقها التاريخي، ولكن دون

1- W.H. McNeill and J. Sedlars, The Ancient Near East, Oxford, 1968, P.25

2- I. Velikovsky, Ages In Chaos, Abacus, London, 1981.

* ـ لا يقل اعجابي بهذا الكتاب عن اعجابي بكتاب الصليبي، رغم قناعتي التامة ببطلان النظريتين.

مساس بتواريخ الشرق القديم، بل بالغاء أية امكانية للمقارنة بينها وبين الرواية التوراتية، وذلك بنقل مسرح الحدث إلى غرب العربية حيث تنعدم التواريخ والأحداث التاريخية الثابتة.

وقد تعامل الصليبي مع مسألة مصر بحرية أكبر مما رأيناه في مسألة الأردن. فإذا كان الأردن تارة الجرف الرئيسي لسراة عسير، وتارة ثانية أي مرتفع من القمم والمرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز، وتارة ثالثة أي مجرى أومسيل أوبركة ماء، فان موقع مصر ينتقل عند الصليبي من أفريقيا إلى الجزيرة العربية جيئة وذهاباً، وفق الحادثة التوراتية المترافقة معها. فان كان للحادثة التوراتية تقاطع ثابت مع واقعة تاريخية مثبتة، لم يجد الصليبي مناصاً من الاعتراف بأن المقصود بالكلمة التوراتية «مصريم» هومصر الفرعونية، وإن لم يكن للحادثة أي تقاطع تاريخي ثابت، أخذها بحرفيتها كحادثة تاريخية، ووجد لمصريم المرتبطة بها موقعها المناسب، فهي إما قرية «المصرمة» في مرتفعات عسير بن أبها وخميس مشيط، أو قرية «مصر» في وادي بيشة في عسير الداخلية أو «آل مصري» في منطقة الطائف.

ففيما يتعلق بحملة الفرعون «شيشق الأول» على مملكة يهوذا، والوارد ذكرها في سفر الملوك الأول ١٤ : ٢٥ ـ ٢٨، يعترف الصليبي بأن المقصود بمصريم هنا هومصر الفرعونية. وهولا يستطيع غير ذلك لأن شيشق الأول (٩٤٥ ـ ٩٢٤ق.م) معروف تاريخياً على أنه الفرعون الأول من الأسرة الثانية والعشرين في مصر، وأخبار حملته مذكورة في السجلات المصرية بتفاصيلها. وكذلك الأمر فيما يتعلق بحملة الفرعون «نخو» وهزيمته من قبل البابليين عند الفرات، الوارد ذكرها في سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٩ ـ ٣٠، لأن الفرعون نخو (٦٠٩ ـ ٥٨٣ق.م) معروف تاريخياً على أنه الملك الثاني من الأسرة السادسة والعشرين في مصر، وأخباره كثيرة في سجلات وادي الرافدين.

أما فيما يتعلق بقصص الآباء، ودخول مصر أيام يوسف ثم الخروج منها

بقيادة موسى، وجميعها روايات لا تتقاطع مع أخبار الشرق القديم وسجلاته، فقد حول مسرحها باطمئنان إلى غرب العربية، فرحيل «ابرام» وزوجته «ساراي» إلى مصر بعدما حدث جوع شديد في الأرض (التكوين ١٢ : ١٠ - ٢٠) هو رحيل إلى موقع قرية «المصرمة» بين أبها وخميس مشيط، التي يرى فيها «مصريم» سفر التكوين، وفي حاكمها المتسلط «فرعة»*. فرعون الرواية التوراتية. والمصرمة هذه، هي التي وصل إليها يوسف بن يعقوب وتبعه بعد ذلك اخوته حيث أقاموا وتناسلوا إلى زمن الخروج. وفي ذلك يقول الصليبي: [ليس هناك أدنى شك بأن أسلاف الاسرائيليين من العبرانيين كانوا ذات يوم قوماً قبلياً وقع في الأسر وأجبر على العمل في السخرة في مكان اسمه «مصريم»، لم يكن بالضرورة مصر، وأنهم خرجوا من هناك في هجرة جماعية برعاية قائد يسمى موسى، نظمهم في مجتمع ديني وأعطاهم شريعتهم، وأنهم عبروا نقطة تسمى هـ - يردن ليست بالضرورة نهر الأردن برعاية قائد آخر اسمه يشوع ليستقروا في أرض كانت لهم عليها أخيراً السيطرة السياسية] (ص٥٣).

هذا جل ما يذكره الصليبي عن رواية الخروج من مصر. وهو رغم تحديده للمكان الذي خرج منه الاسرائيليون بالمصرمة في القسم الجنوبي لمرتفعات عسير (انظر خريطة الصليبي رقم ٦). وتحديده لمكان الانطلاق لعبور الأردن بمنطقة الطائف في الشمال (انظر خريطة الصليبي رقم ٧)، إلا أنه لم يعن بدراسة مسار الخروج من المصرمة إلى الطائف، وذلك فيما عدا بضع اشارات ثانوية في هوامش الصفحة ٧٠ والصفحة ٥٢. ولعل السبب الأساسي في ذلك، هو عدم مقدرته على حل مشكلة عبور البحر الذي شقه موسى بعصاه ومشى فيه على اليبس مع اتباعه. فمهما كان اتجاه الطريق الذي سار عليه الفارون بين المصرمة والطائف، فانهم لن يلتقوا ببحر أو بتجمع مياه

---

* - لقب الفرعون في اللغة المصرية القديمة هو «برعو».

كبير يشبه البحر*. ولكنه توقف طويلاً عند جبل «حوريب» الذي تجلى عنده الرب لموسى أول مرة في شجرة تحترق، عندما كان يرعى غنم حميه «يثرون»، كاهن «مديان» بسيناء، ثم عرج على الموضع نفسه بعد الخروج بجماعته من مصر، وهناك وقعت المعركة الكبرى بينهم وبين العماليق.

في تعرفه على جبل حوريب يستعين الصليبي هذه المرة بالقرآن الكريم، فيقول إن القرآن الكريم حيثما تكلم عن الآباء العبريين أوعن اسرائيل أوعن الأنبياء اليهود، أشار إلى عدد من الأماكن التي هي من الأسماء المعروفة في غرب شبه الجزيرة العربية. وحيث يمكن للتوراة مثلاً أن تعطي اسم جبل في غرب شبه الجزيرة العربية، فان القرآن قد لا يعطي اسم هذا الجبل، بل اسم واد أو بلدة أو اسم موقع آخر في الجوار نفسه. وحتى الآن جرى البحث عن جبل حوريب التوراتي في سيناء ولم يعثر عليه بهذا الاسم. ولكن القرآن يقول لنا بدقة أين كان حوريب، فهو مرتفع جبلي في المنطقة البحرية من عسير، ويسمى اليوم جبل هادي. وعلى سفح جبل هادي هناك قرية ما زالت تدعى حتى اليوم «الطوا»، يمكن أن تكون قد أعطت اسمها ذات يوم إلى رافد مجاور يصب في وادي بقرة، ولا بد أن هذا الرافد هو الوادي المقدس طوى المذكور في القرآن، وفي وادي بقرة، توجد هناك حتى اليوم قرية تدعى «حارب»، لا بد أن تكون قمة جبل هادي المجاورة قد أخذت اسمها منها (ص ٦٩ - ٧٠).

والاستشهاد هنا يتم بما ورد في سورة القصص ٢٩ - ٣٠ حيث نقرأ [فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله، آنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أوجذوة من النار لعلكم تصطلون. فلما أتاها نودي من شطي الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، أن ياموسى

---

* - تدارك الصليبي هذه الثغرة في كتابه الجديد «خفايا التوراة واسرار شعب اسرائيل» الذي وصلنا بينما كان مخطوط كتابنا تحت التنضيد.

إني أنـا الله رب العـالمـين]. وبـما ورد في سورة طه: ١١ ـ ١٢ [فلما آتاها نودي ياموس إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طُوى]. والحقيقة، فان كمال الصليبي في استشهاده بالقرآن الكريم قد قدم نصف الحقيقة فقط، لأن جبـل الطـور الـذي بالـواد المقـدس طوى يقـع في سينـاء على ما تذكره آيات أخـرى، وهـذا يتطـابق مع الرواية التوراتية عن مكان جبل حوريب. نقرأ في سورة التـين: ٢ [وطـور سينـين وهذا البلد الأمين]، وفي سورة المؤمنين: ٢٠ [وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين].

ويـرتبـط بمصـر في التـوراة بلد آخـر إسمه «كوش» الذي يرد في معظم المـواضـع مقـترناً بمصر. وبما ان النصوص التوراتية توحي بأن كوش تقع إلى الجنـوب من مصـر، فقـد طابق البـاحثـون بينهـا وبين الحبشة، خصوصاً وأن الـترجمـة السبعينيـة تورد الاسم تارة بصيغته العبرية «كوش» وتارة تترجمه إلى الحبشة. ولكن الكثير من المؤرخين وعلماء اللغات القديمة يميلون إلى اعتبار كوش على أنها أرض النوبة. غير أن للصليبي رأياً مختلفاً في هذه المسألة، فهو بعد أن نقل مصر إلى غرب العربية كان لا بد من نقل كوش معها، حيث يعثر على مكـانهـا القـديم في موقع «الكوثة» اليوم قرب خميس مشيط.. وهو يتخذ من رواية هجوم «زارح الكوشي» على مملكة يهوذا منطلقاً لاثبات وجهة نظره. نقـرأ في سفـر أخبـار الأيام الثاني ٩: ١٤ [فخرج إليهم زارح الكوشي بجيش ألف ألفٍ، وبمـركبـات ثلاث مئة وأتى إلى مريشة. ودعا آسا الرب وقال.. فضـرب الـرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا، فهرب الكوشيون وطردهم آسا والشعب الذي معه إلى جرار... وضربوا جميع المدن التي حول جرار لأن رعب الرب كان عليهم، ونهبوا كل المدن لأنه كان فيها نهب كبير].

وتعلقياً على هذه الرواية يقول الصليبي: [وتبرز مشكلات أخرى من خلال ذكـر جرار في أخبـار الأيـام الثـاني ١٤، حيث تبـدو البلدة وكأنها تخص الكوشيين. وقد عرف هؤلاء الكوشيون تقليدياً بكونهم حبشيين... وإذا نحن سلمنـا بأن الكـوشيـين كانوا بالفعل حبشيين، يبقى هناك السؤال كيف تيسر

لهؤلاء الحبشيين أن يسيطروا على أرض هي أرض جرار، ويفترض أنها كانت في فلسطين؟ وهل كان هؤلاء الحبشيون مصريين من عهد الأسرة الخامسة والعشرين، أي الأسرة الحبشية (٧١٦ - ٦٥٦ ق. م)؟ هذا أمر غير معقول باعتبار أن سيطرتهم على جرار كانت في عهد آسا ملك يهوذا الذي توفي قبل عهد الأسرة الحبشية هذه بحوالي قرن ونصف القرن ... وكل هذا اللغز الغامض المحيط بجرار قد يكون من الأفضل الانطلاق من الدليل الوارد في أخبار الأيام الثاني ١٤، ومحاولة تحديد الهوية الحقيقية للكوشيين المذكورين في هذا النص. وكما أشير سابقاً، فان كوش يترافق ذكرها في النصوص التوراتية مع مصريم التي تشير بالتأكيد إلى مصر في بعض الفقرات التوراتية، أما في أماكن أخرى في التوراة فان مصريم تشير إلى أي من المواقع العديدة في غرب شبه الجزيرة العربية بما فيها قرية المصرمة في مرتفعات عسير بين أبها وخميس مشيط، أو قرية مصر في وادي بيشه في عسير الداخل والباحث عن كوش في ذلك الجوار العام يجدها فوراً في «الكوثة» - كوث - قرب خميس مشيط].

وفي الواقع، فان الرواية التوراتية لم تذكر أن قائد القوة المهاجمة كان ملكاً لمصر أو حتى ملكاً لكوش، بل اكتفت بوصفه بالكوشي. وفي ذلك دلالة هامة وواضحة على أن الكوشيين لم يصعدوا من اقليم في جنوب مصر إلى مملكة يهوذا، بل كانوا يعملون لمصلحة فرعون مصر، وإلا لكان النص قد وصف زارح بأنه ملك كوش، كما وصف «ترهاقة» فيما بعد. ولدينا أكثر من بينة نصية على تواجد مكثف للقوات الكوشية في الجيش المصري (راجع أخبار الأيام الثاني ١٢ : ٣). وأغلب الظن أن زارح هذا لم يكن سوى قائداً مصرياً من أصل حبشي أو نوبي توجه بأمر من الفرعون على رأس حملة قوامها الكوشيون لتأديب ملك يهوذا، وقد سيطروا في طريقهم على مدينة جرار وجوارها من أراضي الفلسطينيين. وعندما صدهم آسا تراجعوا إلى جرار التي كانت بمثابة قاعدة المؤخرة لحملتهم. وعندما أخلوها نهبها آسا مع المواقع المجاورة لها، والتي لم تكن أصلاً من أملاكه.

ونحن إذا رجعنا إلى النصوص التي وردت فيها «كوش» في التوراة، تبين لنا أن الإشارة فيها إلى كوش، هي اشارة واضحة إلى بلد كبير تقرنه النصوص بفارس والهند وغيرها من حضارات ذلك الزمن. الأمر الذي يستبعد «كوثة» الصليبي في غرب العربية من مسرح الأحداث. نقرأ في سفر أشعيا ١١ : ١١ [ويكون في ذلك اليوم أن الرب يعيد يده ليقتني بقية شعبه من آشور ومن مصر ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر].

ويتكرر ذكر كوش مراراً كثيرة في التوراة، وغالباً ما تذكر بالترافق مع ممالك كبرى مثل فارس والهند وعيلام وفوط (ليبيا)، الأمر الذي يؤكد صحة مطابقتها مع الحبشة أو بلاد النوبة، ويستبعد «كوثة» الصليبي في غرب العربية من مسرح الأحداث. نقرأ في سفر أشعيا ١١ : ١١ [ويكون في ذلك اليوم، أن الرب يعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر]. وفي حزقيال ٣٨ : ٥ [وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لابسين أفخر لباس... فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة..].

وحيثما ذكرت كوشي بالترافق مع مصر، كانت الإشارة واضحة في النص إلى مصر الفرعونية، الأمر الذي يستبعد «مصرمة» و«كوثة» كمال الصليبي في غرب العربية. نقرأ في إرميا ٤٦ : ٧ ـ ٩ [من هذا الصاعد كالنيل كأنهار تتلاطم أمواهها. تصعد مصر كالنيل، وكأنهار تتلاطم المياه. فيقول (الرب) أصعد وأغطي الأرض، أهلك المدينة والساكنين فيها. اصعدي أيها المركبات ولتخرج الأبطال. كوش وفوط القابضان المجن..]. وفي حزقيال ٢٩ : ٩ ـ ١٠ [ويأتي سيف على مصر، ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر. ويسقط عاضدو مصر وتنحط كبرياء عزتها من مجدل إلى أسوان]. وفي حزقيال ٢٩ : ١٠ [لذلك هأنذا عليك وعلى انهارك، وأجعل أرض مصر خِرباً خربةً مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخم كوش]. إضافة إلى ارتباط كوش بمصر الفرعونية في هذه النصوص، فان فيها اشارة

واضحـة إلى موقـع كوش إلى الجنـوب من مصـر، فهي تلي منـاطق أسوان في أقصى جنوب مصر.

وفي سفـر استـير ١ : ١ يرد ذكـر كوش باعتبـارها احدى النقاط القاصية التي امتـدت اليهـا الامبراطورية الفارسية، ويقترن ذكرها هنا بالهند [وحدث في أيـام احشـويـرش، هو احشـويـرش الـذي ملك من الهنـد إلى كوش. .]. واحشـويـرش هذا هو حفيـد قورش الكبـير واسمه باليونانية Xer Xes (٤٨٥ - ٤٦٥ق. م)، وقـد ورث امـبراطـورية قورش وقمبيز التي امتدت من الهند إلى وادي النيـل. وقـد ترك لنـا احشـويـرش نصـاً يرسم فيـه حدود امـبراطوريته المترامية، والبلدان التي تؤدي له الجزية وتخضع لأوامره وشرائعه، فيذكر الهند والعـربيـة وأيـونيـا ومصر وليبيا وما بين هذه الأقطار، ثم ينتهي بكوش[٣]. ومن البـدهي أن لا يكـون حد الامـبراطـوريـة الفـارسية في نقطته القصوى، التي تطـابقت في كلا النصـين الفارسي والتوراتي، هو «الكوثة» ذلك الموقع المغمور في غرب العربية.

وفي النصـوص التـوراتيـة التي ترد فيهـا كوش غير مقـترنـة بغيرها من البلدان، يتضح من وصفها أنها ليست سوى ذلك الجزء الذي يلي مصر على حوض النيـل. نقـرأ في سفـر أشعيـا ١٨ : ١ [يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهـار كوش، المـرسلة رسـلاً في البحـر وفي قوارب من الـبردى على وجـه الميـاه. إذهبـوا أيهـا الـرسـل إلى أمـة طويلة وجـرداء إلى شعب مخوف]. إن التعـابـير المستعملة هنـا مثـل أنهار كوش وقوارب البردى التي تسير على وجه الميـاه، والـرسل التي تعبر البحر، لا يمكن أن تشير إلا إلى بيئة لها علاقة بنهر النيل وافريقيا.

وهنـاك بينـة منطقيـة نستمدها من أخبار حملة شيشانق ملك مصر على أورشليم الواردة في أخبار الأيام الثاني ١٢ : ١ - ٤ [وفي السنة الخامسة للملك

3- Leo Openheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts op cit, p. 316.

رحبعام، صعد شيشق ملك مصر على أورشليم لأنهم خانوا الرب، بألف ومئتي مركبة وستين الف فارس. ولم يكن عدد للشعب الذين جاءوا معه من مصر، لوبيين وسكيين وكوشيين. وأخذ المدن الحصينة التي ليهوذا وأتى إلى أورشليم]. فإذا كانت حملة شيشانق قد تمت، كما يقول الصليبي ضد غرب العربية (ص ٢٠٧)، فكيف حوت في صفوفها الكوشيين من أهل «الكوثة»، وهي مدينة في غرب العربية ذاتها؟ وما الذي حمل بأهل الكوثة إلى مصر ليعودوا كرة أخرى كعناصر مقاتلة في جيشها إلى جانب عناصر افريقية أخرى مثل اللوبيين والسكيين؟

وتتفق النصوص المصرية مع النصوص التوراتية بخصوص موقع كوش في جنوب مصر. نقرأ على سبيل المثال في نص من عهد الفرعون «سنوستريس الأول» (١٩٧١ ـ ١٩٢٨ق.م) تركه أحد قادته العسكريين: [تبعت سيدي عندما أبحر جنوباً ليقهر الشعوب البربرية الأربعة. أبحرت جنوباً كابن لسيد نبيل يحمل الختم الملكي، وقائد للقوات خلفاً لأبيه الشيخ، المفضل لدى القصر والمحبوب من البلاط. عبرت كوش متجهاً جنوباً الى أقاصي البلاد، جلبت معي كل أنواع الهدايا الثمينة واطبقت شهرتي الآفاق. ثم عاد جلالته بعد القضاء على أعدائه في كوش][4].

أما الآشوريون فقد دعوا كوش باسم «كوشو». ويتفق ما ورد في سجلاتهم عنها مع ما تحصل لدينا من النصوص التوراتية والمصرية. ونقرأ في التوراة عن أول احتكاك بين الآشوريين والكوشيين في سفر الملوك الثاني ١٩ : ٨ ـ ٩، حيث يصعد «ترهاقة» ملك كوش لنجدة ملك يهوذا الذي حرضه على آشور [فرجع ربشاقي ووجد ملك آشور (سنحاريب) يحارب لبنة لأنه سمع أنه ارتحل عن لخيش. وسمع عن ترهاقة ملك كوش قولاً: قد خرج ليحاربك. فعاد وأرسل رسلاً إلى حزقيا قائلاً هكذا تكلمون حزقيا ملك يهوذا

4- W. McNeill and J. Sedlar, The Ancient Near East op. cit, p. 25.

قائلين . .]. وترهـاقة ملك كوش المذكور في هذا النص، هو الفرعون الثالث من الأسـرة الخـامسـة والعشرين والتي تدعى بالأسرة الحبشية ولم يكن في عهد سنحاريب قد ارتقى العرش، بل كان يعمل قائداً في خدمة الفرعون السابق، ثم ارتقى العـرش قبـل عدة سنـوات من ارتقـاء «أسـر حادون» كآخـر فراعنـة الأسرة الحبشية. وكما وجدنا ترهاقة يتدخل في السياسة الفلسطينية أيام الملك حزقيـا، كذلـك نجـده وقـد صار فرعـوناً يتدخل في شؤون الساحل الفينيقي محرضاً الممالك الفينيقية على آشور. نقرأ في نص لأسرحادون:

[. . قهـرت صور التي في البحـر، وأخـذت كل مدن وممتلكـات ملكها «بعلو» الـذي وضـع ثقتـه في ترهـاقة ملك كوش. ثم قهرت مصر وكوش. أما ملكهـا ترهـاقـة فقـد أصبتـه بخمسـة جراح برميـات السهام، وحكمت فوق جميـع بلاده وحملت منهـا الأسـلاب. بعـدهـا، كل الملوك في البحـر من يدنانا (قبرص) إلى ترشيش (الساحل الاسباني) خضعوا لي وتلقيت منهم الجزية](5).

بعد فتح مصر وكوش، يقوم اسرحادون بتعيين ملوك مصريين محليين في مختلف المقـاطعـات تابعـين له مبـاشرة ويعود إلى آشور. غير أن ترهاقة الذي توارى عن الأنظـار في الأحـراش، يعـود إلى تنظيم قواتـه ويستولي على مصر مجدداً ويطـارد الملوك المعينـين من قبل آشور. فيحـمل عليه خليفة أسرحادون «آشور بانيبال». تقرأ في خبر هذه الحملة:

[ترهاقة ملك مصر وكوش، الذي هزمه أبي أسرحادون وحكم بلاده، نسي عظمـة آشـور وعشتار وبقية أسيادي الآلهة، واضعاً ثقته في قوته. انقلب على الملوك والـولاة الـذين عينهم أبي في مصـر، ودخـل مدينـة «ممفيس» التي الحقهـا أبي بملك آشـور، فجعلهـا مقـراً له... دعوت قواتي التي أوكلها إلى الإله آشور والإلهة عشتار، واتخذت الطريق المباشر إلى مصر وكوش... ترهاقة

5- Leo Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts, op. cit, P.290

ملك مصـــر وكـــوش، سمـــع في ممفيس باقـتراب حملتي، فدعـا كل محاربيـه وأرسلهم إلى المعركة الفاصلة ضدي. ولكني هزمت القوات المدربة لجيشه في معـركـة مفتـوحـة كبيرة. سمع ترهاقة في ممفيس بخبر الهزيمة فأعماه الهلع من عظمـة آشـوروعشتـار، حتى غدا كالمجنون، ثم هرب طالباً حياته إلى مدينة «ني» (طيبه). ولكني تقدمت وأخذت هذه المدينة أيضاً (يلي ذلك تعداد لأسماء الملوك الذين أعادهم اشور بانيبال إلى مناصبهم، وبينهم نخو، الذي سيغدو فرعـونـاً فيـما بعـد ويقـاوم نبـوخـذ نصـر). كل هؤلاء الملوك والحكـام والولاة الذين عينهم أبي في مصر، والذين تركوا مناصبهم إبان تمرد ترهاقة وتوزعوا في البـلاد، أعـدتهم إلى مراكـزهم السـابقـة، وتـوليت من جديـد مقـاليد مصر وكوش. أما ترهاقة الذي أخذه الخوف في مخبئه من أسلحة آشور سيدي، فلم يسمع عنه خبر بعد ذلك][6].

فأين «المصرمة» و «الكوثة» في هذا الإطار الواسع لتاريخ الشرق القديم؟

استطراد حول الخروج
قصة بلعام بن بعور:

عنـدمـا ناقشنـا مسألـة تاريخيـة الرواية التوراتية، وخصوصاً في الأسفار الخمسـة الأولى منهـا، توصلنـا إلى نتيجـة مفـادهـا أن أحـداث هذه الأسفار المـدعـوة بأسفـار موسى*، لا يمكن تصنيفها إلا في عداد الملاحم التي تعودت التقاليد الشعبية تدبيجها والإضافة عليها جيلاً بعد جيل، دون أن يمنع ذلك

6- Ibid, PP. 294-295

* ـ وطبعاً لا علاقة لموسى بهذه الأسفار، لأنه لم يكن سوى شخصية بين حشد شخصياتها الكثيرة، وأخبارها تأتي بقصص عما قبل موسى وما بعده

من وجود عناصر تاريخية موغلة في القدم لا يمكن فرزها بسهولة عن نتاج الخيال الجامح، واستخلاصها من شبكة الأحداث الملحمية التي تحيط بها. وهذه العناصر التاريخية، لا تغدو تاريخاً بالمعنى العلمي للكلمة إلا في حال تقاطعها مع وقائع تاريخية ثابتة، أومع جملة نتائج آثارية. وفي الحقيقة، فان رواية الخروج من مصر من بدايتها في مدينة رعمسيس إلى نهايتها عند شاطىء نهر الأردن لم تجد لها سنداً حتى الآن من شاهد تاريخي أو أركيولوجي. إلا أن هناك حادثة صغيرة في سفر العدد الاصحاح ٢٢، تؤيد ما ذهبنا إليه من وجود أحداث موغلة في القدم وشخصيات عاشت في غابر الأزمان، وجدت طريقها إلى حبكة الملحمة.

نقرأ في العدد ٢٢ : ١ ـ ٨ [وارتحل بنو اسرائيل ونزلوا في عربات موآب من عبر أردن أريحا. . وكان بالاق بن صفور ملكاً لموآب في ذلك الزمان. فأرسل رسلاً إلى «بلعام بن بعور»، إلى «فتور» التي على النهر في أرض بني شعبه ليدعوه قائلاً: هوذا شعب قد خرج من مصر، هوذا قد غشي وجه الأرض، وهومقيم مقابلي. فالآن تعال والعن لي هذا الشعب لأنه أعظم مني، لعله يمكننا أن نكسره فاطرده من الأرض، لأني عرفت أن الذي تباركه مبارك والذي تلعنه ملعون. فانطلق شيوخ موآب وشيوخ مديان، وحلوان العرافة بين أيديهم وأتوا إلى بلعام وكلموه بكلام بالاق، فقال لهم بيتوا هنا الليلة فأرد عليكم جواباً كما يكلمني الرب. فمكث رؤساء موآب عند بلعام].

عن بلعام بن بعورهذا، يقول الصليبي [وكان بلعام هذا من «أرام» (ءرم)، العدد ٢٣ : ٧) من «جبال قدم» (في الترجمات جبال المشرق ٢٣ : ٧). وقد سبق القول أن «آرام» هوعلى الأرجح الاسم القديم للحجاز وما يليه إلى الشرق من وادي الرمة «رم» بمنطقة القصيم. وقد سبق أيضاً أن أرض «قدم» ليست أرض المشرق، بل موطن بني جذمة (جذم، قابل مع قدم) بداخل الحجاز بين الطائف والمدينة، ومنه منطقة القصيم. وكان بلعام يقيم هناك في «فتور» التي على النهر (٢٢ : ٥). وفتور هذه على الأرجح هي اليوم واحة

الطرفية (بالاستبدال) بمنطقة القصيم، حيث يمر النهر الذي هو مجرى وادي الـرمـة. ويبـدو أن بلعـام لم يكن اسم شخص العـراف، بل اسم القبيلة أو العشـيرة التي ينتمي إليهـا. والـدليـل على ذلك أن بلعام (بلعم، تماماً كما في التـوراة، وبـالتصـويت ذاتـه) ما زال إلى اليـوم اسـماً لقـرية من جوار الطرفية بمنطقة القصيم]*.

وفي الـواقـع، فان نتـائـج التنقيب الأثري في منطقة «دير العلا» الواقعة إلى الشـمال من مصب نهر الـزرقـاء بشـرقي الأردن، قد كشفت عن نصوص آرامية على غاية كبيرة من الأهمية، بينها نص عنوانه: [هذه سطور «بلعام بن بعـور» ناظـر الآلهـة][7]. وهـذه بينـة أركيولوجية وكتابية دامغة، تظهر إلى أي مدى يمكن لمنهـج مقـابلة أسـماء المـواقع، أن يؤدي إلى نتائج بعيدة عن واقع الأمور، عندما يفتقر إلى التقاطعات التاريخية والأركيولوجية.

لقد كان بلعام بن بعور شخصية دينية آرامية رفيعة المقام، كما يبدو من النص التـوراتي والنص الأرامي. وقـد بقيت ذكراه قائمة في الذاكرة الشعبية، ثم انتقلت بطريقة ما إلى الرواية التوراتية. وهاهو يخرج إلينا من تحت انقاض موقع آرامي عريق، ليذكرنا بأن التاريخ يكتب بمعول التنقيب، لا بالتأملات اللغوية الذهنية.

---

* ـ هذا مقطـع من فصـل «شهـادة بلعام» في الكتاب الثاني لكمال الصليبي الذي يقدم فيه تطبيقـات متنـوعـة لنظـريتـه الأصليـة. وقـد وصلنـا الكتـاب عندما كان مخطوط كتابنا قيد لتنضيد. ومن هنا جاء هذا الاستطراد.

7- الـدكتـورعلي أبـوعسـاف، الآراميـون، دار أمـاني، الجمهـوريـة العـربيـة السـوريـة، ١٩٨٨، ص ٧٠.

١١ ـ أرض كنعان

شكلت أرض كنعان، تاريخياً، المناطق السورية الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات بما فيها فلسطين. أما الكنعانيون كشعب، فلم يُفصل بعد في أمر موطنهم الأصلي وتاريخ استيطانهم في الأرض التي أعطتهم اسمها أو أعطوها اسمهم، إلا أن هنالك من البينات ما يشير بوضوح إلى أنهم كانوا موجودين في سورية الجنوبية منذ الألف الرابع قبل الميلاد. ذلك أن العديد من المدن التي أسست مع نهاية الألف الرابع ومطلع الألف الثالث، مثل بيت شان ومجدو وأريحا وبيت يارح تحمل أسماء كنعانية[٨].

ورغم تعدد الآراء في نشأة الكنعانيين الأولى ومصدرهم، تبقى جميعها في حدود الفرضيات غير المثبتة. فمن قائل بقدومهم من منطقة الخليج العربي، أو أرتيريا، أو البادية السورية ـ العربية، أو سيناء. وجل هذه الآراء يعتمد على المؤلفين الكلاسيكيين المتضاربة أقوالهم بهذا الخصوص. والحق أن أكثر النظريات قرباً من المنطق السليم، هي التي تجعل الكنعانيين أصيلين في أرضهم، وترى في مدنهم الأولى تطوراً طبيعياً لمستوطنات العصور الحجرية الأقدم[٩]. ذلك أن الكثير من مقار الكنعانيين التاريخيين، كانت مستوطنات

8- W. F. Albright, The Role of Canaanite In The History (In: the Bible And The Ancient Near East, Eisenbrauns, Indiana, 1979) PP. 328-332

9- S. Moscati, The World of The Phoenicians, Cardinal, London, 1979, PP. 22-23

مزدهـرة في عصـور ما قبـل التـاريـخ . ولا أدل على ذلـك من أريحـا وجبيـل وأوغاريت . فأريحا كانت أحد المراكز القليلة التي ظهرت فيها الزراعة لأول مرة في التـاريـخ مع مطـالـع العصـر الحجـري الحـديث خلال الألف الثامن قبل الميلاد . وكانت في بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، نموذجاً موغلاً في القـدم للمـدن الأولى التي ظهـرت في سومـر منـذ أواسـط الألف الـرابـع قبل الميـلاد . ومثلهـا في ذلـك جبيـل التي ظهرت أيضاً مع مطالع العصر الحجري الحـديث ، واستمـرت مسكـونـة إلى نهايـة العصـر البرونزي حيث تضاءلت أهميتهـا وتحـول موقعهـا القـديم إلى القـريـة التي ما زالت قائمة اليوم . وأيضاً أوغاريت التي نشأت في العصر الحجري الحديث واستمرت مسكونة إلى حين دمارها على يد شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق . م[١٠] .

ويمدنا موقع جبيل بشكل خاص بأهم وأغزر الوثائق الآثارية التي تشير إلى عراقة المدن الكنعانية وعلاقاتها المبكرة مع الحضارات المجاورة . فقد عثر في المـوقـع على مصنـوعـات مصـريـة عليها نقوش هيروغليفية يعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثـالـث قبـل الميـلاد ، تثبت علاقـات ملوك جبيـل بفـراعنـة مصر من الأسرات الأولى . وفي المنطقة الملكية بمدينة عاي الكنعانية بفلسطـين ، عثـر على طاسـات حجرية مصرية تعود إلى عهد الأسرة الثالثة . وبـالمقـابـل ، فقـد عثـر في مقـابـر الأسـرة الفـرعـونيـة الأولى على فخاريات ومصنـوعـات كنعانية أخرى من الساحل السوري . كما استطاع علماء اللغات تمييز عدد من الكلمات الكنعانية المستعارة إلى الهيروغليفية المبكرة مثل «كرمو» أي كرم العنب ، و«قمحـو» أي قمـح[١١] . غير أن العـلاقات الودية والمتكافئة بين مصـر وكنعـان ، ما لبثت أن تحولت إلى علاقـة تسلط وسيطـرة من قبـل

10- James Mellaart, The Neolithic of The Near East, Thames and Hudson, London 1981.

11- W.F. Albright, op. cit, p.332

المصـــريـــين مع مطلع الألف الثـاني قبـل الميـلاد، حيث بدأ فراعنـة المملكـة المتـوسطـة، بعـد اعادة توحيد مصر عقب الفترة الانتقالية الأولى، بالنظر إلى ممالـك بلاد الشـام كمناطق نفوذ طبيعية لهم. ولكن كنعان لم تكن مطية سهلة لهم، ولنـا في نصـوص اللعن المصـريـة العائدة إلى تلك الفترة، والتي تصف حكـام المنـاطق الكنعانية بالمتمردين وتطلب من القوى الإلهية تدميرهم، مثال حي على ذلك.

وخلال الفترة الانتقالية الثانية في مصر إبان حكم الهكسوس، تراخت قبضـة مصـر عن كنعـان مدة قرنـين من الزمان انتعشت خلالها دويلات المدن الكنعـانيـة، واستطـاعت تدريجياً امتصاص موجة العموريين، التي اجتاحت المنطقـة منـذ مطلع الألف الثـاني قبـل الميـلاد، وسببت انقطـاعـاً في الحضارة الكنعـانيـة ودمـاراً لأهم مواقعها الحضرية. وإضافة إلى الدماء العمورية التي رفـدت بلاد كنعـان، فقـد وفدت اليها جماعات عرقية غير سامية من الشمال، مع بدايـات الانسيـاح الحـوري الـذي غمر مناطق بلاد الشام الشمالية. ومع مطلع القرن الخامس عشر، نعثر في فلسطين بشكل خاص على أسماء حكام هنـــدو - أوربـين، كما هو الحـال في مجدو وأورشليم وأشقلون، دون أن ندري بالتفصيل عن الكيفية التي تم بها توطن هذه الجماعات الغريبة.

إلا أن مصـر بعـد تحررها من الهيكسوس، أواسط القرن السادس عشر قبـل الميـلاد، عادت إلى توطيد وجودهـا في فلسطـين وسورية، وتنازعت مع الحثيـين السيطـرة على بلاد الشـام حتى سقـوط الامبراطورية الحثية على يد شعوب البحر، الذين تابعوا بعد ذلك تدمير الممالك الكنعانية في طريقهم إلى مصر، حيث تكسرت موجة هجومهم العارمة أمام قوة جيش رمسيس الثالث، آخـر عمالقـة التـاريـخ المصـري. وقـد نجم عن هجـمات شعـوب البحر فراغ حضـاري في بلاد كنعـان، أخـذ الآراميـون الـذين بدأوا بالتـوطن في سوريـة الـداخليـة بملئـه تدريجياً، والسير بالمنطقة نحو عصر جديد. ولم تحتفظ الهوية الكنعـانيـة بوجودها إلا على الشاطيء اللبناني في المنطقة المحصورة بين الجبل

والبحر، حيث تابعت الحضارة الكنعانية استمرارها وتطورها في حلتها الفينيقية الجديدة، وأيضاً في منطقة فلسطين الداخلية التي تركها الفلستيون بعد أن توطنوا في المناطق الساحلية، والتي وقعت تدريجياً ولمدة قصيرة نسبياً تحت السيطرة السياسية للفئات الهامشية المدعوة بالاسرائيليين.

هذه المناطق الأخيرة للتواجد الكنعاني، هي التي عرفها الاسرائيليون، وهي التي تحدث عنها كتاب التوراة باعتبارها أرض كنعان، وحددها في التكوين ١٠ : ١٩ ـ ٢٠ [وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزة. وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع]. وهذا النص رغم عموميته وبعده عن الدقة الجغرافية بمفهومها العلمي الحديث، إلا أنه يشير فعلاً إلى ما تبقى من أرض كنعان في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

وتسمية «كنعان» و «كنعانيين» الواردة في التوراة، ليست مصطلحاً توراتياً كما يتصور البعض، بل هي تسمية قائمة قبل تحرير أسفار التوراة، وقبل التاريخ المفترض لدخول الاسرائيليين إلى كنعان. فقد استعملت النصوص المصرية تسمية «كنعان» منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت ترد بصيغة «بي كنعان» ـ Pekanan[١٢]. كما استعملتها المصادر المحلية في سورية، مثل نقش «ادريمي» ملك آلالاخ، من أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، والذي يصف فيه هروبه إلى بلاد كنعان من وجه مغتصبي عرش أبيه، ثم عودته المظفرة بعد ذلك[١٣]. وقد بقيت الكلمة مستخدمة الى العصر الهلنستي، حيث نجدها على العملة المعدنية المسكوكة في بعض مدن الساحل الكنعاني، كما نجدها في

12- W. Mcneill And J. Sedlar, The Ancient Near East, op. cit, P.25

13- James Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1975, V.11, PP.96-99

المصادر الكلاسيكية. وفي بلدان شمال أفريقيا، نجد التسمية ما تزال قائمة إلى ما بعد الميلاد، حيث يتمسك المعمرون بأصلهم الكنعاني[14].

ولا نريد هنا، أن ندخل في المسألة اللغوية حول أصل التسمية، رغم كثرة ما قيل في ذلك. غير أننا نود أن نشير أخيراً إلى أن الكنعانيين لم يتعودوا استخدام اسم كنعان في الاشارة إلى أنفسهم أو أرضهم، ذلك أن أرض كنعان لم تعرف عبر تاريخها الوحدة السياسية أو السلطة المركزية. من هنا كانت الانتماءات دوماً لدولة المدينة، وانتسب كل فريق إلى مدينته وتسمى باسمها. نستثني من ذلك الفترة التي كانت لصيدون فيها سلطة على جاراتها الفينيقية، حيث استعملت تسمية الصيدونيين للدلالة على الشعب الفينيقي، سواء من قبل الفينيقيين أنفسهم أم من قبل من احتك بهم خلال تلك الفترة.

هذه كنعان بلاد الشام في التاريخ، وهي كنعان الوحيدة التي نعرفها حتى الآن. فماذا قال كمال الصليبي في أمرها؟

[إن أرض الكنعانيين التوراتيين في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في فلسطين، كان يفترض بها أن تضم المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر رجال ألمع، إلى منطقة جيزان في الجنوب، ومعظم هذه المنطقة ضمناً. وهنا يمكن ملاحظة وجود قريتين تسميان «القناع» (قارن بالجذر كنع ومنه كنعن) في منطقة المجاردة شمال منطقة بلحمر. وفي الجوار الأوسع ذاته، هناك قرية تسمى «العزة»، وكذلك قرية تسمى «القناع»، وواحدة تسمى «ذي القناع»، وواحدة تسمى «القنعات»، وقريتان تسميان «القنعة» توجدان في منطقة جيزان، هذا دون أن نتطرق إلى ذكر أسماء الأمكنة المشتقة من الجذر نفسه في أجزاء أخرى من عسير وجنوب الحجاز. وأخيراً هناك قرية تسمى «آل كنعان» (ء ل كنع، وتعني حرفياً إله كنعان) في وادي بيشة عبر الشق المائي في منطقة المجاردة. والدليل الاسمي المتعلق بموقع

14- S. Moscati, op. cit, P.21

الكنعانيين التوراتيين، تفريقاً عن أولئك الشاميين، في غرب شبه الجزيرة العربية يستدعي اعادة نظر دقيقة وبالعمق في الأفكار الشائعة حول هذا الموضوع] (ص ١٠١ - ١٠٢).

هؤلاء الكنعانيين قد بدأوا بالهجرة إلى الساحل السوري قبل هجرة الاسرائيليين فهم: [قد نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مبكر ليعطوا اسمهم لأرض كنعان على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين في المنطقة التي سماها الاغريق فينيقيا... وفي كتابه عن الفينيقيين وعن سوريي فلسطين في القرن الخامس قبل الميلاد، لا يبدي أي شك حول كونهم من غرب شبه الجزيرة العربية. وهويقول عن الاثنين «هؤلاء الناس، واستناداً إلى روايتهم نفسها، قطنوا قديماً على البحر الأحمر، وبعبورهم من ذلك المكان استقروا على ساحل البحر في سورية، وما زالوا يقيمون». ومهما كان شأن الهجرات الفلستية والكنعانية إلى هناك، لا بد أن تكون قد نمت حجماً بمرور الزمن... ولعل هجرة هؤلاء الفلستيين والكنعانيين ازدادت حجماً على إثر الهزائم المتتالية التي الحقها بهم بنو اسرائيل في مواطنهم الأصلية] (ص ٣٣ - ٣٤ وخريطة الصليبي رقم ٦).

وفي الحقيقة فان الصليبي هنا يستنتج من هيرودوتس بحرية كبيرة، ذلك أن المؤرخ الاغريقي لم يقل أن الفينيقيين قد أتوا من غرب العربية، بل قال انهم جاءوا من شواطيء بحر أريتريا (وهي التسمية الاغريقية للبحر الأحمر) دون أن يرجح الجانب العربي من البحر على الجانب الأريتيري المقابل في افريقيا، ونظريته معروفة تاريخياً بالنظرية الأريتيرية. وهذه ترجمة للموضعين الذين أورد فيهما ذكر موطن الفينيقيين الأول في الكتاب الأول الفقرة رقم واحد نقرأ: [إن هؤلاء يوم جاءوا من سواحل بحر أريترية إلى شاطيء بحرنا، سافروا في البحر مسافة طويلة حالما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطناً لهم إلى الآن، وطفقوا يتاجرون بالبضائع المصرية والآشورية بأن ينقلوها إلى عدة أماكن منها..]. وفي الكتاب السابع، الفقرة رقم ٨٩: [والفينيقيون كانوا

يسكنـون سواحـل بحر اريتريا، كما يقولون هم أنفسهم. وعندما اجتازوا من هنـاك إلى سواحـل سورية، قطنوها. وهذا القسم من سورية، مع كل البلاد التي تمتـد إلى تخوم مصـر، يسمى فلسطين](١٥). يضاف إلى ذلك أن المؤلفين الكـلاسيكيـين الآخرين لا يوافقون هيرودوتس الرأي. فلقد ذهب «استرابو» إلى أن الكنعانيين قد جاءوا من خليج البصرة، وأكد على وجود معابد ومدائن شبيهة بما هو موجود في فينيقيا، وأيده في ذلك «بليني». أما «فيلو الجبيلي»، فقد قال بأن الكنعانيين أصيلون في سورية ولم يهاجروا اليها من أي مكان(١٦).

وبعد أن حد الصليبي أرض كنعان في المنحدرات البحرية لعسير على مسافة كبيرة من ساحل البحر الأحمر، يقوم بتحديد مواقع أهم المدن الكنعانية الفينيقية الواردة في التوراة، في المناطق الداخلية لعسير وغرب العربية:

[صـور التـوراتيـة، لم تكن مدينـة على حافة البحر (يم بالعبرية)، بل الـواحـة الحـالية الكبيرة المسماة اليوم بالتحديد «زور الوادعة» في منطقة نجران بمحـاذاة بلاد «يـام» (قـارن مع يم العـبريـة) المجـاورة للصحـراء العـربيـة الداخلية. وسفنها (ء ونيوت بالعبرية) كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة (الأون بالعـربيـة هو أحـد جانبي ظهـر الـدابـة)... وجبيـل التـوراتية (جبل بالعبرية غير المحركة) ليست جبيل لبنان. وهناك جبيل معينة تقع قرب صور التـوراتيـة هي «القـابـل» (قبـل) في اقليم نجـران. وأرواد غرب شبـه الجزيرة العـربيـة هي اليوم «رواد» في مرتفعات عسير] (ص ٣٤ - ٣٥). [ومن المؤكد أن «صيـدن» ليست هي الميناء اللبناني «صيدون». ومن بين أربعة صيدونات تدعى اليـوم «زيـدان» أو «آل زيـدان» (زيـدن، قارن بالعبرية صيدن) توجد اليوم في أجزاء مختلفة من عسير، فان تلك الواردة في سفر التكوين: ١٠، لا

15- تاريخ هيرودوتس، ترجمة حبيب بسترس، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت ١٨٨٦.

16- S. Moscati, op.cit, P.20

بد أن تكـون اليـوم قريـة «آل زيدان» في مرتفعات جبل شهدان، وهو قمة من جبل بني مالك. في أرض جيزان الداخلية] (ص ٩٩).

فهل تتفق نصوص التـوراة، مهـما كانت الطـريقـة التي يُقرأ بها النص العبري الساكن، مع جغرافية الصليبي هذه؟ في الحقيقة، ان هذه النصوص تتفق مع ما تحصـل لدينـا حتى الآن من دراسة السجلات القديمة لمصر وبلاد الـرافـدين، ومن التـدقيق في نتـائـج التنقيبات الأثرية الحديثة. فمدن كنعان الفينيقية، هي نفسها تلك المدن البحرية التي تحدثت عنها السجلات التاريخية القـديمـة، وهي على السـاحـل السوري وليست في عسير الداخلية. ولنبدأ بمدينة صور.

يرد ذكر صور لأول مرة في التوراة بشكل مفصل، في خبر اتصال ملكها بسليمان: [وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكـاً مكـان أبيـه، لأن حيرام كان محباً لداود كل الأيام]. فيطلب سليمان من ملك صور أن يرسـل له خشبـاً من لبنـان وحرفيين للبناء: [وأرسل حيرام إلى سليـمان قائـلاً قد سمعت ما أرسلت به إلي. أنـا أفعـل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السـرو. عبيـدي ينـزلون ذلك من لبنان إلى البحر، وأنا أجعله أرماثاً في البحر إلى الموضع الذي تعرفني عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله] الملوك الأول ٥ : ١ ـ ٩. وفي روايـة أخـرى، يتم تحديـد المكـان الـذي سيتم إنـزال الأخشـاب فيـه، وهـو «يـافـا»: [. . ونحن نقطع خشباً من لبنان حسب كل احتيـاجـك ونأتي به إليـك أرمـاثـاً على البحـر إلى يافـا، وأنت تصعـده إلى أورشليم] الأيام الثاني ٢ : ١٦

من الواضح هنا، أن صور المقصودة، هي الميناء الفينيقي المعروف على السـاحـل اللبنـاني. فحيرام سينقل الأخشاب بحراً، وسليمان سيستلمها من البحر أيضاً وينقلها بعد ذلك إلى أورشليم. فلو كانت صور المعنية هنا هي زور الـوادعـة بمنطقـة نجـران، فأي سغب في أن ينقـل حيرام خشب الأرز إلى شاطيء البحـر حيث يستلمـه سليمان ويقفل راجعاً به إلى أورشليم، ولماذا لا

تنقل الأخشاب براً؟ ثم ان النص قد حدد نقطة الانزال عند ميناء يافا، ويافا التوراتية في رأي الصليبي تقع إما في منطقة جيزان وهي «الوفية» أو قرب خميس مشيط وهي «الوافية» (ص ١١٧ و ١٢٠)، وكلا الموقعين يبعدان مسافات شاسعة جداً عن شاطيء البحر. ويجب أن نلاحظ هنا أن «الوفية» تقع في منطقة زور الوادعة نفسها، أما «الوافية» فليست بالبعيدة عن «آل شريم» التي هي أورشليم داود وسليمان عند كمال الصليبي (ص ٨٣) فلماذا تنقل الأخشاب إلى واحدة منهما ولا تسلم في أورشليم ذاتها؟

وهناك أكثر من بينة نصية على أن يافا المذكورة في التوراة هي يافا الشام، وليست أياً من الموقعين اللذين يحددهما لها الصليبي في غرب العربية. فمن سفر عزرا ٣ : ٧ نفهم بوضوح أن يافا هي ميناء بحري وليست مدينة داخلية: [وأعطوا فضة للنحاتين والنجارين، ومأكلاً ومشرباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين، ليأتوا بخشب أرز لبنان إلى بحر يافا، حسب إذن كورش ملك فارس لهم]. ومن ميناء يافا يبحر النبي «يونان»: [فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب. فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر. فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى الهه، وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم] (يونان ١ : ٣ - ٥).

وترشيش المذكورة هنا، هي الموقع البحري البعيد الذي كانت سفن صور تبحر اليه للتجارة. وقد كان للملك سليمان سفناً تبحر اليه مع سفن ملك صور بعد أن توطدت العلاقة بينهما: [كان للملك في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام. فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنوات حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس] الملوك الأول ١٠ : ٢٢. وأيضاً: [لأن سفن الملك كانت تسير إلى ترشيش مع عبيد حورام، وكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنين] الأيام الثاني ٩ : ٢١. والطريق إلى ترشيش شاقة

ومهولة: [بريح شرقية تكسر سفن ترشيش] المزمور ٤٨ : ٧.

وقد ذكرت ترشيش أيضاً في مصادر الشرق القديم، وفي المصادر الكلاسيكية اللاحقة. ففي السجلات الآشورية ترد تحت اسم «ترسيسي»، التي يقول أسرحادون أنها كانت الحد الأبعد لنفوذه في البحر: [كل ملوك أعالي البحار ركعوا عند قدمي وتلقيت منهم الجزية الكبيرة. من بلاد يدنانا (قبرص) إلى ترسيسي][17]. ويغلب الظن أن ترشيش أوترسيس تقع في جنوب اسبانيا، وهي التي ذكرها المؤلفون الكلاسيكيون باسم «ترتيسوس»، الأمر الذي يعطي بعداً هاماً للتوسع الكنعاني الفينيقي في البحر المتوسط، منذ القرن العاشر قبل الميلاد[18]، وقد حدد المؤلفون الكلاسيكيون مكانها بموقع «قادس»، وهي جزيرة صغيرة مقابل اسبانيا في المحيط الأطلسي، وكانت قادس مستعمرة فينيقية قامت في موقع ترشيش الأقدم، وعلى هذا يقول «بليني» من القرن الأول الميلادي في كتابه «التاريخ الطبيعي» أن معنى قادس هو المكان الحصين أو القلعة، وأنها بنيت في مكان ترشيش القديمة. وقد التحمت جزيرة قادس مع البر الرئيسي اليوم، بتأثير الرسوبات التي يصبها النهر الكبير بالقرب منها[19].

إذن، فسفن صور المذكور في التوراة، لم تكن قوافل حيوانات محملة، كما يقول الصليبي. وهناك المزيد من البينات النصية على ذلك.

نقرأ في أشعيا ٢٣ : ١ ـ ٨ [وهي من جهة صور. ولولي ياسفن ترشيش لأنها خربت ... اندهشوا يا سكان الساحل ... عند وصول الخبر إلى مصر يتوجعون عند وصول خبر صور، أعبروا إلى ترشيش، ولولوا يا سكان

17- Leo oppenheim, op.cit, P.290

18- S. Moscati, op.cit, P.34

19- محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٢، ص ص ٨٢ ـ ٨٥.

الســاحــل. أهذه لكم المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قِدمها، تنقلها رجلاها بعيداً للتغرب؟ من قضى بهذا على صور المتوجة التي تجارها رؤ ساء؟].

ونقرأ في حزقيال ٢٨ : ١ ـ ٩ [وكان إلي كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم قل لرئيس صور، هكذا قال السيد الرب، من أجل انه قد ارتفع قلبك وقلت انا الـه، في مجلس الآلهـة أجلس في قلب البحـار، وأنت انسان لا إله. . . لذلك هاأنذا أجلب عليـك غربـاء عتاة الأمم فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك ويدنسون جمالك، ينزلونك إلى الحفرة فتموت موت القتلى في قلب البحار].

وفي سفـر حزقيـال ٢٦ : ٣ ـ ١٧ [هأنذا عليك يا صور، فأصعد عليك أمماً كثـيرة كما يعـلي البحـر أمـواجـه، فيخربون أسوار صور ويهدمون أبراجها وأسحي ترابهـا عنهـا وأصيرهـا ضِحَّ الصخر، فتصير مبسطاً للشباك في وسط البحـر... لأنـه هكـذا قال السيد الرب. هأنذا أجلب على صور نبوخذ راصر ملك بابل... بحوافر خيله يدوس كل شوارعك، يقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض أنصـاب عزك وينهبـون ثروتك ويغنمون تجارتك ويهدمون أسوارك ويهـدمـون بيـوتـك البهيجـة، ويضعـون حجـارتك وخشبك وترابك في وسط المياه. . . كيف بدت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانها، الآن ترتعد الجزائر يوم سقوطك وتضطرب الجزائر التي في البحر لزوالك].

وفي حزقيـال ٢٧ : ١ ـ٤ و٢٥ ـ ٢٦ و٣٢ ـ ٣٤ [وكـان كلام الـرب إلي قائلاً: وأنت يا ابن آدم فارفع مرثاة على صور وقل لصور الساكنة عند مداخل البحـر، تاجـرة الشعـوب إلى جزائـر كثيرة، هكذا قال السيد الرب. يا صور أنت قلت أنـا كاملة الجـمـال، تخومـك في قلب البحـور]. . [سفن ترشيش قوافلك لتجـارتـك، فامتلأتِ وتمجدت جداً في قلب البحار. ملاحوك قد أتوا بك إلى ميـاه كثـيرة، كسـرتـك الـريـح الشرقية في قلب البحار]. . [يرفعون عليك مناحة ويرثونك ويقولون أية مدينة كصور كالمُسْكَتَةِ في قلب البحر. عند خروج بضـائعـك من البحـار أشبعت شعـوبـاً كثيرة. بكثرة ثروتك وتجارتك

أغنيت ملوك الأرض. حين انكسارك من البحر في أعماق المياه سقط متجرك وكل جمعك].

وفي زكريا ٩: ٣ ـ ٤ [وقد بنت صور لنفسها حصناً وكومت الفضة كالتراب، والذهب كطين الأسواق. هوذا الرب يمتلكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار].

فأين صور، هذه المدينة البحرية العظمية كما تصورها التوراة، من الواحة الكبيرة المسماة «زور الوادعة» في غرب العربية؟

فاذا انتقلنا إلى صيدون التوراتية التي وجد الصليبي لها أربعة مواقع تدعى «زيدان» و«آل زيدان» في عسير الداخلية ومرتفعات شهدان في أراضي جيزان الداخلية، وجدناها ترد مقترنة بصور وبالجزر البحرية. نقرأ في إرميا ٢٥: ٢٣ [كل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر التي في عبر البحر]. وترد صيدون أيضاً مع الموانيء الفينيقية البحرية الأخرى أرواد وجبيل، كمدن متعاونة مع صور مجاورة لها على البحر. نقرأ في أشعيا ٢٣: ٢ ـ ٥ [تجار صيدون العابرون البحر ملأوكِ، وغلتها زرع شيحور حصاد النيل على مياه كثيرة فصارت متجرة لأمم. اخجلي يا صيدون لأن البحر، حصن البحر نطق قائلاً: لم أتمخض ولا ولدت ولا ربيت شباناً ولا نشّأت عذارى..]. وفي حزقيال ٢٧: ٨ ـ ٩ [أهل صيدون وارواد كانوا ملاحيك، حكماؤ ك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك، شيوخ جبيل وحكماؤ ها كانوا فيك قلافوك*].

وترتبط هذه الموانيء المتجاورة، في النصوص التوراتية، بجبل لبنان فخشب الأرز كما رأينا يحتطب من لبنان ويرمى في بحر يافا (الملوك الأول: ٥

* ـ القلافة، هي حرفة من يخرز ألواح السفن ويجعل في خللها القار، ومنها قلاف وجمعها قلافون. وقلف السفينة أعدها وسد خلالها بالليف والقار.

والأيـام الثـاني : ٢ وعـزرا ٣) . ويصنع البناؤ ون منه سواري للسفن : [أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري ، صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك] حزقيال ٢٧ : ٤ ـ ٥ .

وهكذا، فان البينة النصية التوراتية تثبت متعاونة مع البينات المستمدة من السجـلات المصـرية والآشورية ، أن المواقع الكنعانية الفينيقية المذكورة في التوراة، هي تلك التي قامت تاريخياً على الساحل السوري ، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بغرب العربية .

١٢ - يهوذا واسرائيل

في بحثه عن يهوذا واسرائيل في غرب العربية، تتجلى كل سلبيات المنهج الأحادي لكمال الصليبي. فهنا يقوده السعي وراء تطابقات الأسماء إلى نتائج تتنافى ونصوص التوراة التي يعتمد عليها باعتبارها مضموناً تاريخياً ثابتاً. فأرض يهوذا ليست تلك التي رسمت لسبط يهوذا وبنيامين في أيام يشوع، والتي شكل معظمها فيما بعد مملكة يهوذا الجنوبية، بل هي كامل الجانب البحري من عسير الجغرافية، من الشق المائي لامتداد السراة وحتى صحراء تهامة الداخلية، أي بمعنى آخر كل أراضي اسرائيل التوراتية. أما اسرائيل فليست أرضاً، بل تسمية للشعب الذي أتى أصلاً من جبال السراة وسكن في أرض يهوذا. وعلى ذلك، فلا وجود لأرض محددة شغلتها مملكة يهوذا، ولا لأخرى شغلتها مملكة اسرائيل، بل كان لكل من السلطتين المركزيتين في أورشليم والسامرة مدن وقرى مبعثرة في كامل أرض يهوذا، تدين بالولاء لها، وتتداخل مع مدن وقرى الجماعة الأخرى وهذه بدورها تتداخل مع مدن وقرى الفلستيين كما أوضحنا في فصل سابق (ماذا عن الفلستيين). وهذه ظاهرة سياسية فريدة في التاريخ، حيث تحكم ثلاث سلطات مركزية مستقلة أرضاً مشتركة تضم مجموعات بشرية موزعة حسب ولاءاتها السياسية، دون أن تختص كل مجموعة بأرض ذات تخوم واضحة.

فيما يتعلق بيهوذا يقول الصليبي: [والواضح أن «يهوذا» كان إسماً جغرافياً

قبل أن يصبح إسماً لقبيلة من بني اسرائيل. وصيغته العبرية «يهوده» هي اشتقاق من «يهد» المماثلة للعربية «وهد» وهو جذر يفيد معنى الانخفاض. ومن الجذر «وهد» بالعربية الوهد والوهدة بمعنى المنخفض أو الهوة في الأرض. ويهود ويهوده التوراتيتان تأتيان من العبرية يهد، ولا بد أنهما كانتا تعبيرين طبوغرافيين ساميين قديمين يحملان المعنى نفسه. والواقع إن الأرض الهضبية الممتدة على الجانب البحري من عسير الجغرافية، ليست مجرد أرض تحتوي على قمم وسلاسل متضافرة فيما بينها بعضها يبرز من الامتداد الرئيسي للسراة وأخرى تقف معزولة هنا وهناك، بل هي أيضاً تحتوي على وهاد منخفضة تتعرج بين القمم والسلاسل، ولا شك أن هذا هو ما أعطى يهوذا اسمها القديم].

[ويمكن للباحث أن يدرس أمثلة كثيرة من النص التوراتي لكي يبرهن أن أرض يهوذا التوراتية، كموطن لبني اسرائيل على وجه العموم وليس لقبيلة يهوذا وحدها، كانت تضم المنحدرات البحرية لعسير وجنوب الحجاز حتى مرتفعات الطائف. وأحد الأمثلة الواضحة يأتي من سفر عزرا ٢ : ٣ - ٦٣ وسفر نحميا ٧ : ٨ - ٦٥ عن عودة بني اسرائيل من الأسر في بابل إلى أرض يهوذا. وهذان النصان، وباختلافات ضئيلة، يدرجان أسماء المجموعات العائدة من بني اسرائيل استناداً إلى البلدان والقرى الأصلية لها، وليس استناداً إلى الأسرة أو القبيلة في أية حال، كما أعتقد حتى الآن، وباستعراض النصين يمكن للباحث المزود بخريطة مفصلة لشبه الجزيرة العربية، وبالمعاجم المتوفرة عن أسماء الأماكن بالعربية كموجه مضاف، أن يعثر على الأكثرية العظمى من البلدان والقرى التي أوردها سفرا عزرا ونحميا كمواقع ما زالت موجودة، وتحمل الأسماء نفسها، أو بصيغ من هذه الأسماء يسهل التعرف اليها بشكل مباشر، وذلك في أجزاء من غرب شبه الجزيرة العربية تمتد بشكل تقريبي من جوار الطائف والليث شمالاً وحتى منطقة جيزان في الجنوب] (ص ١٥٥ - ١٥٧).

والحقيقة أن هذه الأطروحة لا تجد لها سنداً من نصوص التوراة. والكتاب لم يشر في أي موضع من أسفاره، تلميحاً أو تصريحاً إلى منطقة ما اسمها يهوذا كانت موطناً لبني اسرائيل. فأرض يهوذا التوراتية هي التخوم التي قسمت في أرض كنعان للسبط الذي ينتسب إلى جده الأعلى «يهوذا»، وقد حدد سفر يشوع بدقة وتفصيل المدن والقرى التي كانت نظرياً من نصيب يهوذا، وشكلت فيما بعد مع نصيب سبط بنيامين مملكة يهوذا. وهي حسب يشوع ١٥: [هذا نصيب سبط بني يهوذا حسب عشائرهم. وكانت المدن القصوى التي لسبط بني يهوذا إلى تخوم آدوم جنوباً. فيصيئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعده وقادش وحاصور ويثنان. وزيف وطالم وبعلوت. وحاصور وحدته وقريوم وحصرون، هي حاصور. وأمام وشماع ومولاده. وحصر جده وحشمون وبيت فالط. وحصر شوعال وبئر سبع وبزيوتيه. وبعله وعييم وعاصم. والتولد وكسيل وحرمه. وصقلع ومدمنة وسنسنة. ولباوت وشحليم وعين ورمون. كل المدن تسع وعشرون مع ضياعها. في السهل: أشتاول.. (يلي ذلك تعداد لتسع وثمانين موقعاً بين مدينة وبلدة وقرية)].

لم يلجأ الصليبي، كما يحتم عليه منهجه في مقابلة أسماء الأمكنة والمواقع، إلى البحث عن الأمكنة الواردة أعلاه في غرب العربية، والتي يبلغ تعدادها مائة وثلاثين موقعاً، بل لجأ إلى تحليل أسماء المجموعات العائدة من السبي البابلي، وافترض أن تلك الأسماء تشير إلى البلدان والقرى الأصلية التي تركها المنفيون. وانتهى من ذلك إلى لائحة طويلة باسماء مواقع موجودة في غرب العربية تتطابق، بعد عمليات معقدة من القلب والابدال، مع أسماء فئات العائدين. إلا أن المشكلة التي لم يشر الصليبي إلى طريقة لحلها، هي أن أسماء هذه المواقع التي عثر عليها لم ترد في التوراة بتاتاً، ولم تجر الاشارة إلى أي منها كموقع من مواقع يهوذا أو اسرائيل، أو حتى كموقع مرتبط بالروايات الأقدم الخاصة بالآباء. وبمعنى آخر، فان كمال الصليبي لم يقف عند حدود منهجه في مقابلة أسماء المواقع التوراتية مع أسماء مواقع قائمة في غرب العربية

اليوم، بل تعدى ذلك إلى ابتكار أسماء مواقع غير موجودة اصلاً في التوراة وطابقها على أسماء مواقع قائمة في غرب العربية.

ولنتابع بالتفصيل فيما يلي أسماء المجموعات العائدة، وكيف عثر الصليبي على أسماء مواطنها الأصلية في أرض يهوذا المفترضة. وإني لأحث القاريء غير المتخصص على الصبر والأناة في متابعة قائمة الأسماء الطويلة وتحليلنا لها، لما تلقيه من أضواء على منهج الصليبي وكيفية استخدامه له.

آ ـ الكهنة:

يرى الصليبي أن اسم هذه الفئة «كهنيم» بالعبرية يجب ألا يؤخذ على أنه صيغة الجمع لكلمة «كهن» أو «كاهن» بالعبرية، بل على أنه جمع لـ «كهني» منسوبة إلى «كهن» كاسم مكان يجده في «قهوان» بمنطقة جيزان. كما يرى أن تعداد هذه الفئة البالغ ٤٤٨٩، أي عشر عدد الاسرائيليين العائدين، يجعل من الصعب تصور أن واحداً من كل عشرة رجال كان كاهناً.

ولكن العجب من ارتفاع نسبة الكهنة بين العائدين يزول إذا عرفنا الدور الذي لعبه الكهنوت والكهان في الحياة الدينية والعامة كما رسمتها التوراة. فقد بدأ الكهنوت من أيام موسى عندما سن النظام الجديد له، وتعينت رتبة الكهنوت في عائلة هارون (الخروج ٢٨) وكرس هؤلاء للرب باحتفال عظيم. وفي أيام يشوع خصصت للكهنة ثلاث عشرة مدينة مع مسارحها في نصيب يهوذا وشمعون وبنيامين (يشوع ٢١ : ١٣ ـ ١٩)، مما يشير إلى عددهم الكبير بالنسبة إلى بقية الشعب. وفي أيام داود قسم الكهنة إلى ٢٤ فرقة وازداد عددهم وتعددت الأسر التي ينتمون اليها (الأيام الأول ٢٤ : ٤). فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن السبي البابلي قد طال علية القوم ونبلاءهم وترك فقراء الأرض، أدركنا السبب الكامن وراء زيادة نسبة الكهنة في سبي يهوذا. أما عن

«كهن» التي يجدهـا الصليبي في «قهـوان» بمنطقـة جيـزان، فلم ترد كاسم مكان في أي موضع من أسفار التوراة، ولم ترتبط بأية حادثة توراتية ضئيلة كانت أم كبيرة.

بعـد ذلـك ينتقل الصليبي إلى تحليل أسماء المجموعات المنضوية تحت الكهنة كما وردت في سفري عزرا ونحميا.

١ - بنو يدعيا (يدعية). يجد موطنهم في «وادعة» (ودع بلا تصويت) في وادي نجران.

وفي الحقيقـة، لم يرد في التـوراة اسم يدعيا أو يدعية باعتباره موقعاً، بل ورد مراراً كاسم علم. وأول يدعيا مر ذكره كان رئيساً لفرقة الكهنة الثانية أيام الملك داود (الأيام الأول ٢٤ : ٧)، واليه تنتسب مجموعة بنو يدعيا العائدة من السبي.

٢ - بنـو إمـير (ء مر). يجد موطنهم في واحة «الأمار» في منطقة اليمامة في وسط شبه الجزيرة العربية، شمال منطقة نجران.

بينـما لم يرد في التـوراة موقـع بهذا الاسم، بل ورد كاسم علم وهو رئيس فرقـة الكهنـة السـادسـة عشـر أيـام الملك داود (الأيام الثاني ٢٤ : ١٤)، واليه تنتسب مجموعة بنو إمير العائدة من السبي.

٣ - بنو فشحور، يجد موطنهم في «الحرشف» من قرى يام نجران. بينما لم يرد هذا الاسم في التوراة في غير هذا الموضع بتاتاً.

٤ - بنو حاريم (حرم). يجد موطنهم في «وادي حرم» عند الحد الغربي لمنطقة اليمامة.

لم يرد الاسم في التـوراة كمـوقـع، وانـما كاسم علم. وهـو رئيس فرقـة الكهنة الثالثة (الأيام الثاني ٢٤ : ٨)، واليه تنتسب مجموعة بنو حاريم العائدة. كما تسمى بالاسـم نفسـه رجـل من الجيل الثاني بعد السبي (نحميا ١٢ : ١٥) وآخرون غيره (نحميا ١٠ : ٥ وعزرا ٢ : ٣٢).

ب ـ اللاويون :

الزمرة الثانية من العائدين هي مجموعة اللاويين (هـ ـ لويم) ويرى الصليبي في «لويم» جمع «لوي» نسبة إلى «لو» أو «لوه» وأن هؤلاء لم يكنوا لاويين كهنوتياً، بل كانوا مجتمعاً يعود في أصله إلى ما هو اليوم قرية «لاوه» (لوه بلا تصويت) في وادي أضم.

وفي الحقيقة، لم يرد في التوراة أي موقع باسم «لوه». أما «لاوي» فاسم علم معروف، وهو لاوي ابن يعقوب، رأس سبط اللاويين. وقد أوكلت إلى هؤلاء منذ أيام موسى رعاية الشؤون المقدسة وخدمة تابوت العهد (الخروج ٣٢ : ٢٦ ـ ٢٩ والعدد ٣ : ٩ و ١١ ـ ١٣ و ٤١ و٤٥ و٨ : ١٦ ـ ١٨) وقد بلغ تعدادهم في ذلك الوقت ٢٢٠٠٠ (العدد ٣ : ٤٣ و ٤٦). وكانت هذه الخدمة وراثية في سلالتهم. فلماذا لا يكون اللاويون في عداد العائدين من السبي؟ ولماذا يفضل الصليبي ابتكار موطن لهم لم يرد ذكره في التوراة؟ أما المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة فهي :

١ ـ بنو يشوع. يجد الصليبي موطنهم في قرية «شعية» في منطقة الليث على مسافة ما إلى الأسفل من وادي أضم.

بينما لم يرد اسم الشعية في التوراة باعتباره موقعاً. . أما يشوع فهو من أشهر أسماء الأعلام التوراتية. فبالإضافة إلى يشوع بن نون هناك عدد كبير ممن تسمى بهذا الاسم من الأشخاص البارزين في الرواية التوراتية. ومنهم رأس عائلة لاوية عاد إلى أورشليم في قافلة الراجعين من السبي.

٢ ـ بنو قدميئيل (قدمي ءل)، يجد موطنهم في قرية «القدمة» في الجوار السابق (ء ل ـ قدم قارن مع قدميئيل).

لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل هو اسم علم تسمى به عديدون، ومنهم لاوي عاد مع عائلته من السبي، وكان من المشرفين على بناء الهيكل (عزرا ٢ : ٤ و ٣ : ٩).

٣ ـ بنو هوديا (هودويه). يجد موطنهم في قرية «الهَدْية» في وادي أضم.
لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل هو اسم علم تسمى به البعض ومنهم هودويا ابن هونأة من بني يامين (الأيام الأول ٩ :٧)، ورئيس عائلة من بني لاوي عاد مع عائلته من السبي (عزرا ٢ : ٤٠).

ج ـ المغنون :

المغنون «هـ ـ مشرريم» هم الزمرة الثالثة من العائدين، بما فيهم بنو آساف. ويجد الصليبي موطنهم في قرية «المسرة» في منطقة بارق غرب منطقة المجاردة بعسير. وإلى الشرق من المسرة توجد قرية «آل يوسف» (يسف بلا تصويت) التي يعتقد أنها آساف.
لم يرد ذكر موقعين بهذا الاسم في التوراة بأي صيغة كانت. أما «هـ ـ مشرريم» باعتبارهم المغنين أو الموسيقيين، فقد كانوا يؤلفون مجموعة هامة من اللاويين أفرزهم الملك داود لأداء التراتيل والأناشيد الدينية بمصاحبة العيدان والرباب والصنوج. وكان آساف الذي ينتمي إليه فريق المغنين العائدين من السبي أحد رؤساء هذه المجموعة: [وأفرز دواد ورؤساء الجيش للخدمة بني آساف وهيمان ويدثون، المتنبئين بالعيدان كل هؤلاء تحت يد أبيهم لأجل غناء بيت الرب بالصنوج والرباب والعيدان، لخدمة بيت الله تحت يد الملك] ـ الأيام الثاني ٢٥ : ١ ـ ٦. فلماذا لا يكون المغنون بما فيهم بنو آساف في عداد العائدين من السبي ؟

د ـ البوابون :

البوابون (هـ ـ شعريم) هم الزمرة الرابعة من العائدين. وعند الصليبي لم يكن هؤلاء من البوابين، بل جاءوا من المكان المسمى حالياً «الشعراية» (شعري بلا تصويت) في منطقة الطائف.

لم يرد في التوراة ذكر لمثل هذا الموقع. أما هـ ـ شعريم باعتبارهم البوابين، فقد كانوا جماعة مفرزة لحراسة باب المدينة والهيكل (صموئيل الثاني ١٨ : ٢٦، والملوك الثاني ٧ : ١٠). وقد بلغ عدد البوابين على أبواب هيكل اورشليم ٤٠٠٠ بواب (الأيام الأول ٢٣ : ٥). وكان لهم رؤساء يديرونهم حسب مراتبهم (الأيام الأول ٢٦ : ١ ـ ١٣ والأيام الثاني ٨ : ١٤). أما المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة فهي :

١ ـ بنو شلوم (شلوم)، ويجد موطنهم الأصلي في «الشمول» بمنطقة الشعراية الآنفة الذكر.

لم يرد في التوراة ذكر لمثل هذا الموقع، بينما ورد «شلوم» كاسم علم مراراً كثيرة. فهو شلوم بن نفتالي، مؤسس عشيرة المشليميين (العدد ٢٦ : ٤٩)، وشلوم رئيس بوابي قدس الأقداس (الأيام الأول ٩ : ١٧). وشلوم بن يابيش الذي قتل الملك زكريا (الملوك الثاني ١٥ : ٨ ـ ١٥)، وشلوم أحد أفراد أسرة رؤساء الكهنة التي من صادوق (الأيام الأول ٦ : ١٢ ـ ١٥)، وشلوم عم النبي إرميا (ارميا ٣٢ : ٧ ـ ٨)، وأخيراً هو بواب للهيكل وأحد أبناء باني بعد الرجوع من السبي (عزرا ١٠ : ٢٤ و٤٢).

٢ ـ بنو آطير (ء طر)، يجد موطنهم في «وترة» بالجوار نفسه.

لم يرد ذكر في التوراة لمثل هذا الموقع، بل هو اسم علم ويعني بالعبرية «المغلق» أو «الذي يغلق». ولذا يغلب أن اسم رأس المجموعة العائدة كان مسمى لوظيفة من وظائف البوابين.

٧ ـ بنو عقوب (عقوب). يجد موطنهم في «عقيب» بالجوار نفسه.

لم يرد ذكر هذا الموقع في التوراة، بل هو اسم علم لرأس عائلة من بوابي

الهيكل على بابه الشرقي (الأيام الأول ٩ : ١٧) واليه تنتسب المجموعة العائدة من البوابين.

٤ - بنو طلمون (طلمن). يجد موطنهم في «المنطلة».

لم يرد ذكر لمثل هذا الموقع في التوراة، بل هو اسم علم لبواب من بني لاوي: [والبوابون شلوم وعقوب وطلمون وأخيمان وأخوتهم، شلوم الرأس. وحتى الآن هم في باب الملك إلى الشرق. هم البوابون لفرق بني لاوي]. الأيام الأول ٩ : ١٧ - ١٨.

٥ - بنو حطيطا (حطيط). يجد موطنهم في الحويط.

ورد حطيطا كاسم علم مرة واحدة، وهو رأس أسرة رجع أفرادها من السبي البابلي (عزرا ٢ : ٤٢)

٦ - بنو شوباي (شبي). يجد موطنهم في «الثوابية» بالجوار نفسه.

وقد ورد شوباي كاسم علم مرة واحدة في الكتاب، وهو لاوي من عائلة البوابين عاد مع اسرته من السبي (عزرا ٢ : ٤٢).

هـ - خدم المعبد:

خدم المعبد (نتينيم) هم الزمرة الخامسة من العائدين. ويرى الصليبي أنهم لم يكونوا بالتأكيد خدم معبد، بل كانوا رجال قبيلة منتشرة في مواقع نفسة من مناطق جيزان ورجال ألمع وقنا والبحر. والمناطق الثلاث هذه ... لبعضها البعض في جنوب عسير. وربما كان موطن القبيلة الأصلي احدى قريتين تسميان الآن «طناطن» (طنطن).

وفي الحقيقة فان «نتينيم» تعني بالعبرية «المكرسون» وهم جماعة كرسها الملك داود لخدمة الهيكل وخدمة الكهنة اللاويين (عزرا ٨ : ٢٠). وكان موسى من قبل قد كرس لهذا العمل جماعة المديانيين (عدد ٣١ : ٤٧). ثم عين

يشوع لهذا العمل الجبعونيين وعهد اليهم باحتطاب الحطب وسقي الماء للعابدين وللمذبح الرب (يشوع ١٩ : ٢٢ ـ ٢٧) . ولما كان عدد المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة يبلغ الـ ٣٥ مجموعة، فاننا سنختار بضع عينات عشوائية منها :

١ ـ بنو لبانه (لبنه) وجد موطنهم في «اللبانه» في منطقة جيزان .

لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، ولم يرد أيضاً كاسم علم إلا في سفر عزرا ٢ : ٤٥ كاسم لرأس اسرة من خدم المعبد العائدين من الأسر. ويبدو أن الكلمة مشتقة من الوظيفة التي كان يمارسها هؤلاء في خدمة المعبد فـ «اللبونه» بالعبرية تعادل «اللبان» بالعربية، وهو صمغ عطر أبيض اللون أو مصفره، يشتعل فتنبعث منه رائحة عطرة. وكان احدى المواد التي يتركب منها دهن المسح المستعمل في تكريس الكهنة لوظيفتهم المقدسة . (الخروج ٣٠ : ٣٤) كما كان يضاف مع الزيت إلى التقدمة (سفر اللاويين ٢ : ١ ـ ٢ و١٥ و١٦) .

٢ ـ بنو رآيا . وجد موطنهم في «راية» بمنطقة حيزان .

لم يرد موقع بهذا الاسم في التوراة، بل هو اسم علم ورد مرتين في التوراة اضافة إلى سفري عزرا ونحميا. فهو رآيا بن شوبال، أحد أحفاد يهوذا من حصرون (الأيام الأول ٤ : ٢)، وهو رآيا بن ميخا من سبط رآوبين (الأيام الأول ٥ : ٥) .

٣ـ بنو رصين. وجد موطنهم في «رضوان» في منطقة جيزان، أو «الرازنة» في رجال ألمع .

لم يرد موقع بهذا الاسم في التوراة، بل هو اسم علم آرامي، تسمى به أحد ملوك دمشق (الملوك الثاني ١٥ : ٣٧ و١٦ : ٥ ـ ٩). ويغلب أنه كان معروفاً في كنعان أيضاً .

٤ ـ بنو نقودا . وجد موطنهم في «ناجد» في منطقة جيزان . إلا أن ما لم ينتبه إليه الصليبي قبل أن يحدد موطن بني نقودا، هو ان سفر عزرا قد وضعهم

مع الأسر التي لم تستطع اثبات انتمائها إلى بني اسرائيل (عزرا ٢ : ٥٩) فكيف نبحث في أرض يهوذا المفترضة عن موطن لجماعة لم يعترف النص التوراتي بصحة نسبهم؟

٥ ـ بنو سيسرا. رجح أن موطنهم «شرس» في شمال اليمن أو «شرسي» في منطقة الطائف.

بينما الكلمة اسم علم كنعاني قديم تسمى به قائد جيوش ملك حاصور (القضاة ٤ : ٩) ولا أثر لها في التوراة كاسم موقع.

و ـ عبيد سليمان:

عبيد سليمان (عبدي شلمة) هم الزمرة السادسة من العائدين، ويجد موطنهم في قرية «آل عبدان» في ناحية فيفا من منطقة جيزان، وقرية «آل سلمان يحيى»، حيث تميز «آل عبدان» عن غيرها من القرى التي تحمل نفس الاسم بتعريفها بـ «عبدان سلمان» (قارن مع عبيد سليمان).

هنا يبلغ منهج الصليبي أقصى درجات افتتانه بمقابلة أسماء المواقع، دون النظر إلى أية بينة منطقية اخرى. فالقريتان الحديثتان «آل عبدان» و «آل سلمان يحيى» والتي تعرّف الأولى بالثانية تمييزاً لها، يفترض أنهما كانتا قائمتين قبل ثلاثة آلاف عام، وان احداهما في تلك الأيام كانت تعرف بالأخرى تمييزاً لها عن «عبدانات» كانت قائمة أيضاً كما هو الحال اليوم.

وعلى كل فخلاصة القول في موضوع عبيد سليمان، كما نفهم من سفر عزرا ٢ : ٥٥ ـ ٥٨ ونحميا ٧ : ٥٧ ـ ٦٠، أنهم كانوا عبيداً عينوا لمساعدة النتينيم (خدم المعبد) منذ أيام سليمان، لأن عدد هؤلاء لم يكن كافياً لاداء المهام الموكلة اليهم. ولا يوجد في أسفار التوراة أي موقع مشتق اسمه من هذه الكلمة. ولما كانت قائمة المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة طويلة جداً،

فاننـا سنختـار أيضـاً بضع عينات عشوائية منها، اضافه إلى عينات أخرى من بقية أسماء الأسر التي لا تنتمي إلى احدى هذه الزمر الستة:

١ - بنو آرح. وجد موطنهم في «الرحا» أو «الورخة» في منطقة الطائف.

بينما الكلمة اسم علم تسمى به رئيس من أشير (الأيام الأول ٧ : ٣٩) وذلـك إضـافـة إلى آرح الوارد في نحميا ٦ : ١٨ الذي تزوجت حفيدته بطوبيا العموني (نحميا ٦ : ١٨ و٧ : ١٠).

٢ - بنو حاريم. وجد موطنهم في «عربات حارم» في منطقة محايل.

بينـما الكلمـة اسم علم تسمى به رجل من نسل هارون، كونت أسرته الفـرقـة الثـالثـة من الكهنة أيام داود (الأيام الأول ٢٤ : ٨)، ويغلب الظن ان هذه المجموعة العائدة تنتمي اليه. ولدينا اثنين يحملان الاسم نفسه وذلك في نحميا ١٢ : ١٥ و ١٠ : ٥.

٣ - بنو عناثوت، وجد موطنهم في «عنطوطة» في منطقة جيزان.

بينـما الكلمـة اسم علم تسمى به ابن باكـر البنياميين، ورئيس بيت في قبيلته (الأيام الأول ٧ : ٨). وهو أيضاً واحد من الذين ختموا العهد مع نحميا بعد العودة من السبي (نحميا ١٠ : ١٩). وهناك مدينة تحمل هذا الاسم أيضاً في نصيب بنيامين قرب أورشليم (إرميا ١ : ١)، وفي موقعها الآن قرية صغيرة ا سمها «عناتا».

٤ - بنـو برزلاي الجلعـادي. وجد موطنهم في «البرصة» المعرفة بالنسبة إلى موقع مجاور هو «الجعد»، تحوير عن «جلعد».

وبـرزلاي الجلعـادي، هورجل من جلعاد كان صديقاً لداود (صموئيل الثـاني ١٩ : ٣١). وقـد أوصى داود ابنه سليمان أن يحسن إلى أولاده ويجعلهم من الآكلين على مائـدتـه (الملوك الأول ٢ : ٧). وهنـاك برزلاي المحـولي حمو ميكـال ابنـة شاول (صمـوئيـل الثاني ٢١ : ٨)، وبرزلاي ثالث تزوج من ابنة برزلاي الجلعادي وتسمى باسمهم، وهو الذي عاد خلفاؤه من السبي (عزرا ٢ : ٦١ - ٦٢).

٥ - بنـو يوآب . يجد موطنهم في «البـاب» في بلاد غامـد ، أو «بـواء» في منطقة الطائف .

والكلمـة اسم علم تسمى به ابن سرايـا أبـو جماعـة من الصناع (الأيام الأول ٤ : ٤) وأيضـاً بكر أولاد صير ويه أخت داود ، ورئيس جيشه (الأيام الأول ٢ : ١٦ و ١١ : ٦) .

٦ - بنو باني . يجد موطنهم في قرية «البني» أو «البنياء» في منطقة الطائف .

والكلمة اسم علم ، تعني بالعبرية «بنَّاء» كما في العربية . وقد تسمى به خمسة أفراد على الأقل (راجع صموئيل الثاني ٢٧ : ٣٦ . والأيام الأول ٩ : ٤ و ٦ : ٤٦ ونحميا ١١ : ٢٢ و٣ : ١٧و ٩ : ٤) .

٧ - بنو طوبيا . يجد موطنهم في «بويط» بوادي «الجائزة» في منطقة الليث .

والكلمـة اسم علم . فإلى جانب أربعـة أشخـاص معروفين في التوراة بهذا الاسم ، هناك سفر معروف بين أسفار الابوكريفا باسم «سفر طوبيا» نسبة إلى الشخصية البارزة فيه واسمه طوبيا .

ان ما قدمناه أعلاه من تحليل لأسماء المجموعات العائدة من سبط يهوذا إلى أورشليم ، بعـد أن سمـح «قـورش» الفـارسي للمنفيـين بالعودة ، يكفي للدلالة على انه لم يكن هناك في أي وقت من الأوقات أرض في غرب العربية اسمها يهوذا . فالمجموعات العائدة جلها ينتسب إلى أعلام هم مؤسسوها ، أو هي زمر ذات وظائف دينية معروفة وقائمة منذ القدم ، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بأسماء أماكن موجودة في غرب العربية .

ماذا عن اسرائيل :

إذا كانت يهوذا هي أرض الشعاب والوهاد على امتداد الجانب البحري

لجنوب الحجاز وعسير، فان أرض اسرائيل، في رأي الصليبي، لا بد أن تكون في الأصـل مرتفعـات السـراة هناك. فالاسم بالعبرية «يسره ء ل» الذي نص سفـر التكـوين بوضوح على أن معناه «يجاهد مع الله» له في رأيه تفسير آخر، حيث «يسره» هي اسم قديم من الفعل نفسه بمعنى الكلمة العربية «سرو» أو «سـري». والسـرو هوما ارتفـع من الوادي وانحدر على غلظ الجبل. والسراة من سري هي أعلى كل شيء. وبذلك فالاسم «يسره ء ل» يعني «سراة ايل» أي «سـراة الله»، حيث الاشـارة هنا إلى مرتفعات السراة بين الطائف واليمن (ص ١٩٥ وما يلي من فصل اسرائيل والسامرة).

ونحن من حيث المبدأ مع كل اجتهاد يلقي ضوءاً على نص غامض أو حادث تاريخي ملتبس، ولكننـا في نفس الـوقت مع مبـدأ «لا اجتهـاد في مورد النص» عندما يكون النص واضحاً كل الوضوح مانعاً لأي اجتهاد أو تفسير، كما هي الحال في النص التوراتي حول أصل اسم اسرائيل أو يسره ء ل. ففي سفـر التكـوين، الاصحاح ٣٢، يظهر ليعقوب بعد عبوره مخاضة يبوق انسان اشتبـك معـه في صراع حتى طلوع الفجـر. ولم يكن خصم يعقـوب في هذا الصراع سوى الرب نفسه: [فبقي يعقوب وحده، وصارعه انسان حتى طلوع الفجـر. ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب من مصـارعتـه معـه، وقـال اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال لا أطلقك ان لم تبـاركني، فقـال له ما اسمـك فقـال يعقوب، فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقـوب بل اسـرائيـل لأنـك جاهـدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقـال أخبـر ني باسمـك، فقـال لماذا تسأل عن اسمي، وبـاركـه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فينيئيل قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي].

ونـحـن لا نستبعـد أن يكـون في النص التـوراتي أعـلاه، نوع من الايتيـولـوجيا Aetiology في تفسير اسم اسرائيل، لولا أن الصليبي قد أغلق هذا البـاب عنـدمـا وصف الاسـرائيليـين بأنهم [الـوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخيـاً وعـبر وا عن ذلك بطريقة واضحة منسجمة] (ص ٥٣). فكيف تسنى

لهم والحالة هذه نسيان موطنهم القديم في جبال السراة، وكيف غاب عنهم معنى اسم اسرائيل منسوباً إلى تلك الجبال، فوقفوا أمامه حائرين يبتكرون القصص لتفسيره؟

ولنتابع مع الصليبي. فشعب اسرائيل [لا بد أنه كان في الأصل مجموعة من قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربية. وقد اتحدت هذه القبائل في زمن ما وأصبحت شعباً استوطن أرض يهوذا وأقام لنفسه هناك مملكة في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن العاشر قبل الميلاد... ولكن مملكة «كل اسرائيل» لم تعمر طويلاً، وسرعان ما فقدت وحدتها السياسية، وبحلول النصف الثاني للقرن العاشر قبل الميلاد، كانت تسيطر على أراضيها سلالتان متنازعتان من الملوك، ملوك يهوذا وعاصمتهم في «آل شريم» (الموقع المقترح لأورشليم التوراتية). وملوك اسرائيل،.. والواقع هو أن الانقسام بين يهوذا واسرائيل لم يكن جغرافياً بقدر ما كان انقساماً في الولاء السياسي والديني بين أبناء الشعب الواحد والأرض الواحدة. ويبدو أن ملوك يهوذا واسرائيل كانوا يسيطرون في أحوال كثيرة على مواقع مختلفة في المنطقة ذاتها، وكثيراً ما كانت هذه المواقع قريبة من بعضها البعض] (ص ١٩٧ و١٩٨).

وكلام الصليبي يعني أن ملوك اسرائيل كانوا يحكمون في السامرة، ولمدة مائتي عام منذ تأسيس مملكتهم إلى دمارها وإلحاقها بآشور، مجموعة من المدن لا تربطها أرض واحدة، بل تتبعثر في غرب العربية من شمالها إلى جنوبها وتتداخل مع المدن التابعة لمملكة يهوذا، وأن مملكة يهوذا كانت في وضع مشابه إلى حين دمار اسرائيل والحاق مدنها بآشور، حيث اصبحت مدنها حينذاك متداخلة مع مدن وقطاعات يديرها حكام آشوريون. هذه الصورة المعقدة والفريدة من نوعها في التاريخ للخارطة السياسية لغرب العربية، تزداد تشويشاً إذا أخذنا في الحسبان مدن الفلستيين التي وزعها الصليبي بين مدن يهوذا واسرائيل، وكثيراً من المدن الآرامية التي حشرها بين هذه جميعاً. وسنوضح فيما

يلي ما نعنيه، بأمثلة قليلة تكفي بالغرض استمدت معلوماتها من طبوغرافية الصليبي.

ففي منطقة القنفذة الساحلية، تقع «شمران» التي يجد فيها الصليبي الموقع القديم لمدينة السامرة عاصمة اسرائيل (ص ٢٠١)، وهناك «جبعون» عاصمة الملك داود و«لخيش» و«عزيقه» و«بيت لحم» التابعة ليهوذا (ص ٢٠٣)، وهناك «مقدي» التي هي «مجدو» التابعة لاسرائيل (ص ١١٩)، وهناك «شقله» التي هي «اشقلون مدينة الفلستيين الشهيرة (ص ٢٥٣)، وهناك «قرقرة» الآرامية التابعة لمملكة «حماة» أو «أمط» بمنطقة الطائف (ص ٣٧)، وهناك «شكيم» التابعة لاسرائيل (ص ٢٠٠).

وفي منطقة الليث في أقصى شمال عسير، نجد «غزة» التابعة للفلستيين (ص ٢٥٢)، و«عيطام» التابعة ليهوذا (ص ٢٠٢، ٢٠٣)، و«دان» التابعة لمملكة اسرائيل (ص ٣٠٢).

وفي منطقة رجال ألمع الواقعة في وسط عسير، نجد «أشدود» مدينة الفلستيين (ص ٢٥٢)، و«صهيون» مدينة داود المختلفة عن أورشليم والتابعة حكماً ليهوذا، و«بيت رحوب» و«آرام صوبة» التابعتين للآراميين التوراتيين (ص ٣٠).

وفي منطقة جيران بأقصى الجنوب، نجد «جت» مدينة الفلستيين (ص ٢٥٣)، و«دمشق» الآرامية (ص٣٠ و٢٩١)، و«يافا» الكنعانية (ص ١٢٠)، و«جازر» التابعة ليهوذا (ص ١١٨).

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل نحن أمام جغرافيا بشرية وسياسية، أم أمام عدة تمرينات في مقابلة أسماء المواقع.

١٣ - بلاد آرام

لقد غير إعصار شعوب البحر، الذي داهم منطقة الشرق الأدنى القديم حوالي عام ١٢٠٠ ق.م، الخارطة البشرية والسياسية لبلاد الشام. فتدمير المدن الكنعانية في فلسطين قد سهل تسرب بعض الجماعات الهامشية التي كانت تتنقل دون هدى باحثة عن مأوى في منطقة شرقي الأردن. وتدمير الممالك الكنعانية في سورية الداخلية من كركميش إلى مشارق فلسطين، خلق فراغاً أخذت تملؤه تدريجياً القبائل الآرامية التي كانت جوالة في المنطقة منذ زمن بعيد، فاستقرت وشكلت ممالك قوية رسمت تاريخ بلاد الشام خلال الألف الأول قبل الميلاد.

ونحن لا نعرف على وجه التحديد تاريخ الهجرة المفترضة لهؤلاء الآراميين إلى منطق الهلال الخصيب، ولا عن البدايات الأولى لتواجدهم فيها. ولعلهم كانوا هنا منذ أقدم الأزمنة يعيشون حياة البداوة والتنقل.

ولعل أقدم وثيقة ورد فيها ذكر آرام، هي نقش أكادي يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، يتحدث عن انتصار الملك «نارام سن» على «خرشا متكي» شيخ «آرامي». وبعد ذلك ورد اسم آرام في وثيقة من فترة أور الثالثة (٢٠٥٠ - ١٩٥٠ ق.م)، دون عليها اسم «آرامي» اشارة إلى مدينة أو اقليم*،

←

* - هذا الشاهد إلى نهاية المقطع يستند إلى الدكتور علي أبو عساف في كتابه «الآراميون»

ووثيقـة أخـرى من الفـترة نفسهـا ورد فيها «آرام» كاسم علم لشخص يدعى «آرامـو». وفي السجـلات الملكيـة لمدينـة ماري ، ورد ذكـر «آرام» و «أحلامو» باعتبارهما قبائل يرد أفرادها إلى ماري للمتاجرة .

ومنـذ القـرن الـرابـع عشر قبل الميلاد ، كثرت الوثائق التي تتحدث عن الأحـلامـو والآراميـين . فلدينا رسالة موجهة من حاكم «دلمون» إلى والي «نفر» المعـروفـة في منطقـة سومـر ، يشتكي فيها من الأحلامو الذين نهبوا تمور بلاده . وبـابـل نفسهـا لم تكن في مأمن من خطـرهـم إذ كانوا يسببون المتاعب للحكام المحليـين ويهـددون المـواصلات بين مدنهم . كما ورد ذكر الآراميين في نصوص أوغاريت من القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، حيث ورد ذكر اسم العلم «ابن آرامي» ، وذكـر «حقـول الآراميـين» الأمـر الـذي يدل على أن جماعـات من الآراميين قد بدأت في تلك الفترة هجر حياة التنقل ، والاستقرار في الأرض . ولم تخل المصـادر المصـريـة أيضـاً من ذكـر الآراميين منذ بدايات القرن الثالث عشر ، وكذلك المصادر الحثية[٢٠] .

وعنـدمـا بدأ الآشـوريـون بالتـوسـع غربـاً ، كان الآراميون والأحلامو المـرتبطـين بهم مصدر ازعاج للآشوريين . وقد ورد في سجلات الملك «تغلات فلاصـر الأول» خبر قضـائـه عليهم : [حـاربت الأحـلامـو والآراميـين ثماني وعشـرين مرة ، حتى أني عبرت الفـرات في سنـة واحـدة مرتـين . لقد قضيت

←

الصفحات من ١١ إلى ١٢ . ولكننا لا نرى فيما تحصل لدينا من معلومات عن الآراميين في تلك الفـترة ، ما يشـير إلى احتـمال تشكيلهم لمدينـة في ذلـك الـوقت المبكـر . والأرجح أن «ارامي» هنا انما تشير إلى مناطق التواجد الآرامي .

20- الـدكتـور علي أبو عسـاف ، الآراميون ، دار أماني ، الجمهورية العربية السورية ١٩٨٨ ، الصفحات ١٢ ، ١٣ ، ١٧ .

عليهم من «تـدمـر» الـواقعـة في بلاد «آمـورو» و«عـانة» في بلاد «سوحو» إلى «ريبيقو» في «كار ـ دونياش»][21].

ومـع انتهـاء الألف الثـاني قبـل الميـلاد، بدأت هذه الجماعات البدوية القلقـة بالتـوطن في منـاطق الجـزيرة السورية وبلاد الشام الداخلية، وأسست إمارات ودويلات مدن قوية. ثم استطاع الفرع الكلداني منها تثبيت اقدامه في الجـزء الجنـوبي من بلاد بابل، وأسس المملكة البابلية الجديدة. ونستطيع من تتبـع أسـماء الـدويلات الآرامية الأولى، أن نستنتج أن التنظيم القبلي قد بقي سائـداً بين الآراميـين فترة طويلة من الـوقت بعـد تكـوين إماراتهم المستقرة. فأسـماء الامـارات كانت مستمـدة من أسماء الأسر الحاكمة، وذلك مثل «بيت زماني» في حوض دجلة وعـاصمتهـا «اميـدي» في موقـع «ديار بكر» الحالية، و «بيت بحيـاني» في حوضْ الخـابـور وعـاصمتهـا «جوزان» في موقع «تل حلف» الحـاليـة، وبعـدهـا إلى الشرق «بيت عديني» بين كركميش على الفرات ونهر بليـخ وعـاصمتها «تل برسيب» في موقـع «تل أحمر» اليوم، و«بيت أجوشي» في منطقـة حلب وعـاصمتهـا «أرفاد»، وإذا أردنا استعراض بقية الممالك الآرامية نذكـر مملكـة «يأدي» التي سيطـرت على منطقـة جبـال الأمـانوس وعاصمتها «شمأل» في موقـع بلدة «زنجـرلي» الحـاليـة، ومملكـة «حماة» نحو الجنوب تليها مملكة «دمشق». وهناك بضع ممالك آرامية لا يتوفر حولها الكثير من المعلومات التـاريخيـة والأثـارية، وردت أخبارها مفصلة في التوراة هي «آرام صوبة» إلى الشمال الغربي من دمشق، و«آرام معكة» على سفوح جبل الشيخ الغربية، و «جيشور» من جنوب جبل الشيخ إلى نهر اليرموك، و «بيت رحوب» في منطقة شرقي الأردن، و «طوب» على المناطق الحدودية اليوم بين سورية والأردن[22].

وكـما عاشت المـمالـك الكنعـانيـة الســابقـة تحت التهديد المستمر للقوة

21- Leo Openheim, op. cit, P.275

22- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق، الصفحات من ١١ ـ ٧٤.

المصرية والقوة الحثية، فقد عاشت الممالك الآرامية الجديد، تحت التهديد المستمر للقوة الآشورية. فالممالك الآرامية قد بدأت بالتشكل مع البدايات الأولى للتوسع العسكري الآشوري الذي ما انفك يوجه الضربة تلو الأخرى لدويلات بلاد الشام، التي كانت تواجهه إما منفردة أو من خلال أحلاف مؤقتة، وعندما انهارت آشور، لم تتأخر كثيراً الدولة البابلية الجديدة في ملء الفراغ الناجم عن غيابها في بلاد الشام، ثم حل قورش الفارسي وخلفاؤه محل هؤلاء. غير أن الثقافة الآرامية، رغم كل الظروف المحبطة التي حاقت بها، قد أدت دورها الكبير وطبعت المنطقة بطابعها، وتمكنت أخيراً من غزاتها جميعاً من خلال اللغة الآرامية التي وحدت أقطار الشرق القديم من حدود الهند إلى البحر المتوسط في بوتقة واحدة، أطلق عليها المؤرخ المعروف أرنولد توينبي اسم «العالم السوري»، مثبتة أن الروح العسكرية أمر زائل في تاريخ الحضارات، وان ما يبقى هو النتاج الثقافي الانساني الأصيل.

هذا العالم الآرامي الزاخر، هو الذي تروي بعض أخباره أسفار التوراة، منذ البدايات الأولى لقصص الآباء التي يمكن وضعها في الإطار العام لمطلع الألف الثاني قبل الميلاد، عندما كان الآراميون قوماً رحلاً يتنقلون بين العراق والشام. فالآباء في سفر التكوين ينتمون إلى احدى هذه الجماعات الآرامية التي كانت تعيش على شاطىء الفرات الأعلى في منطقة «آرام النهرين» بين نهر بليخ ونهر الفرات، ومنطقة «فدان آرام» أي سهل آرام في الجوار نفسه، كما هو واضح من سفر التكوين ٢٤ و٢٨، حيث يرسل ابراهيم عبده إلى أرضه وعشيرته بآرام النهرين ليخطب من هناك امرأة لابنه اسحاق، لأنه لا يريد له زوجة من بنات كنعان. ومثله يفعل اسحاق عندما يوصي ابنه يعقوب أن يذهب إلى فدان آرام ليخطب لنفسه امرأة من عشيرة أمه. وفي سفر التثنية ٢٦ : ٥ نقرأ في تعليمات أداء الطقوس [فيأخذ الكاهن السلة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب الهك، ثم تصرخ وتقول أمام الرب: آرامياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك].

وهنا نود التنبيه إلى مسألة عالجها بالتفصيل نقاد التوراة، ولسنا أول من يشيرها هنا، وهي وجود عدة تقاليد في قصص الآباء جمعها محررو التوراة في تقليد واحد، وأكثر من سلسلة نسب ضموها إلى واحدة. فهناك «إبرام» الذي خرج من أور الكلدان (التكوين ١١ : ٣١ - ٣٣، وهناك «ابرام العبراني» (التكوين ١٤ : ١٣)، وهناك «ابراهيم» الذي قرنه فيها بعد سفر التكوين بهذين الابرامين [فلا يدعى اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهيم] (التكوين ١٧ : ٥). ومن ناحية اخرى هناك اسحاق، ابن ابراهيم، وولده يعقوب، اللذان ضمهما سفر التكوين إلى سلسلة أخرى تنتهي بالمدعو «اسرائيل» حيث تمت المطابقة بين يعقوب حفيد ابراهيم واسرائيل: [فقال لا يدعى اسمك فيها بعد يعقوب بل اسرائيل] التكوين ٣٢ : ٢٨. والتفصيل في هذا الأمر خارج عن مسار موضوعنا، ولكننا أمام هذه التقاليد المغرقة في القدم والمختلط بعضها ببعض، وانطلاقاً من موقفنا في النظر إلى احداث سفر التكوين كمجموعة من القصص الملحمي التي يصعب أمامها فرز الوقائع الأصلية، نقول ان آباء سفر التكوين ممن ينتسب بعضهم إلى آرام، هم غير اباء مجموعات سفر الخروج، وهؤلاء بدورهم ليسوا الممثلين الرئيسيين والوحيدين لأحداث مملكتي اسرائيل ويهوذا فيما بعد. وهذا في حد ذاته موضوع مستقل للبحث، نتركه الأن لننتقل إلى المراحل شبه التاريخية، والتاريخية في أحداث التوراة.

يتزامن تشكيل المملكة الموحدة في فلسطين في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد، مع تكوين الممالك الآرامية في بلاد الشام. ومن المنطقي أن يحدث الصدام بينهما، وكانت بدايته على ما تذكره الرواية التوراتية بين داود وحدد عزر ملك صوبة: [وضرب داود هدر عزر بن رحوب ملك صوبة، حين هب ليرد سلطته عند نهر الفرات. فأخذ داود منه ألفاً وسبع مئة فارس وعشرين ألف رجل. . فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة، فضرب داود من

آرام اثنين وعشرين ألف رجل ... وسمع توعي ملك حماة أن داود قد ضرب كل جيش هدد عزر، فأرسل توعي يورام ابنه إلى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه لأنه حارب هدد عزر وضربه، لأن هدد عزر كان له حروب مع توعي] صموئيل الثاني ٨ : ٣ - ١٠ .

ويبدو من عدم ذكر اسم ملك دمشق في هذا النص، أن آرام دمشق كانت في ذلك الحين تابعة لملك صوبة. ولكنها لن تلبث حتى تنفصل بعد فترة، وتقوم فيها أسرة حاكمة مستقلة. فعن أخبار الاحتكاك الثاني بين المملكة الموحدة والآراميين، في النصف الثاني من القرن العاشر أيام الملك سليمان نقرأ في سفر الملوك الأول ١١ : ٢٢ - ٢٥ [وأقام الله له خصماً آخر، رزون بن اليداع، الذي هرب من عند سيده هدد عزر ملك صوبة، فجمع اليه رجالاً فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم، وانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق. وكان خصماً لاسرائيل كل أيام سليمان].

ولكن هذه الأحداث، عند كمال الصليبي، وما تلاها في الروايات التوراتية عن آرام، لا تجري في بلاد الشام بل في غرب العربية. وقد [افترض الباحثون الذين استندوا أكثر ما يكون إلى الدليل التوراتي المؤول تأويلاً خاطئاً أن الآراميين كانوا أصلاً من سكان منطقة من شمال الشام تقع غرب الفرات. ولكن العودة إلى تمحيص الدليل التوراتي المذكور، تدل على أن ما تشير اليه التوراة العبرية باعتباره آرام (ء ر م) كان موجوداً في الواقع في غرب شبه الجزيرة العربية. وآرام النهرين (ء ر م نهريم) لم تكن بلاد ما بين النهرين بل قرية «النهارين»، وهي اليوم من منطق الطائف في جنوب الحجاز. ويتبع ذلك أن فدان آرام (فدن ء ر م) كانت قرية «الدفينة» (دفن بلا تصويت) في جنوب الحجاز. وكذلك فإن أسماء أخرى تربطها التوراة العبرية بآرام، مثل بيت رحوب وآرام صوبة، وحتى دمشق «ذا مسك» في منطقة جيزان، يمكن أن تكون موجودة بالاسم نفسه في الحجاز وعسير. ووادي «ورم» أيضاً يحمل اسم آرام هناك. . و«أمت» التي اعتبرت حتى اليوم إشارة إلى حماة في وادي

العاصي في شمال الشام، هي عملياً قرية «أمط» الحالية في منطقة الطائف . .] (ص٣٠ و٣٧).

ولكن تقاطعات أخبار آرام في التوراة مع النصوص الآرامية في بلاد الشام والسجلات الآشورية، تثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك بأن آرام المذكورة في التوراة هي آرام بلاد الشام. وأول تقاطع نحصل عليه بين هذه المصادر يتعلق بملك دمشق المدعو «بن حدد»، والمعروف تاريخياً ببن حدد الأول، وفي التوراة ببن حدد بن طبريمون. فالملك «آسا» ثالث ملوك يهوذا بعد الانقسام، يستنجد بملك دمشق ليعينه على «بعشا» ملك اسرائيل الذي كان يغزو أرضه: [وكانت حرب بين آسا وبعشا كل أيامهما. وصعد بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكي لا يدع أحداً يخرج أويدخل إلى آسا ملك يهوذا. وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده، وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حزيون، ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً: إن بيني وبينك وبين أبي وأبيك عهداً. هوذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عني. فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن اسرائيل]. الملوك الأول ١٥ : ١٦ - ٢٠.

وقد تم العثور في أرض آرام، قرب مدينة حلب، على نصب بازلتي ارتفاعه حوالي المتر، نذره الملك بن حدد بن طبريمون، ملك آرام دمشق الوارد ذكره في النص التوراتي، للإله «ملقارت» والنصب يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ٨٦٠ق.م، أي إلى السنوات الأخيرة من حكم هذا الملك. وقد نقش على النصب: [النصب الذي أقامه بن حدد بن ط (بريمون بن

حزيـون) ملك آرام لسيـده ملقـارت الذي نذر له فسمع لقوله][23]. والنصب الآن محفوظ في متحف حلب بسورية، ويمكن لأي قارىء للآرامية الاطلاع عليه.

يلي عرش دمـشق بعـد بن حدد الأول، بن حدد الثـاني المعـروف في النصـوص الآشـوريـة بحـدد عدري، وهو الذي قام بأجراء محاولة للوقوف في وجـه التـوسع الآشوري، إذ جمع حوله أحد عشر ملكاً من ملوك دويلات بلاد الشام، وهب إلى «قرقرة» على نهر العاصي جنوب مدينة جسر الشغور الحالية لنجـدة «إرخـوليني» ملك حماة الـذي كان يتعرض لهجوم كاسح من قبل قوات شلمنصر الثالث. وقد خـلّد الآشوريون ذكرى انتصارهم في هذه المعركة في العـديـد من النصـوص، ودونوها على الرقم والتماثيل. وقد قدمنا سابقاً ترجمة لنص شلمنصر الثالث حول معركة قرقرة (انظر الصفحات من ٩٤ الى ٩٩).

وعنـد معـركـة قرقـرة، نستطيع القيام بعدد من التقاطعات بين المصادر الآشـوريـة والآراميـة والتـوراتية. فإرخوليني ملك حماة والرجل الثاني في حلف قرقـرة بعـد حدد ادري (بن حدد الثـاني)، مذكور في عدد من النقوش التي تم العثـور عليهـا في منـاطق حماة، مثل الرستن وقلعة المضيق ومحردة، والتي يقول عن نفسه فيها أنه ارخوليني ابن بارتاس وأنه بنى معبداً للربة بعلاتي. كما عثر على نقوش أخرى في مدينة حماة نفسها، تذكر «اورتاميس» ابن إرخوليني الذي بنى سوراً جديداً للمدينة[24].

23- Franz Rosenthal, Canaanite And Aramaic Inscriptions (In Ancient Near Eastern Texts) op. cit, P.655

انظر أيضاً:

الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ١٣٣.

24- H.Sader, op. cit, PP. 222-223

انظر ايضاً:

الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٥٦.

ولم تكن معركة قرقرة بالمعركة الفاصلة بين دمشق وآشور، لأن الملك الآشوري لم يستطع فتح المدينة رغم هزيمة المتحالفين. وقد مات بعدها بن حدد الثاني غيلة وهو على فراش المرضى بيد أحد قواده المدعو «حزائيل». وهنا تتفق الرواية الآشورية والرواية التوراتية في التفاصيل العامة لموت ملك دمشق واسم قاتله الذي ملك مكانه. نقرأ في النص الآشوري: [لقد هزمت حدد عدري ملك إمير يشو مع اثني عشر أميراً من حلفائه. وجندلت ٩٠٠, ٢٠ من محاربيه الأقوياء، ودفعت بمن تبقى من قواته إلى نهر العاصي فتفرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم. أما حدد عدري نفسه فقد انتهى، واغتصب العرش مكانه حزائيل، ابن لا أحد، الذي دعا اليه الجيوش الكثيرة وثار في وجهي، فتعقبته إلى دمشق، مقره الملكي حيث قطعت أشجار بساتينه] (انظر الصفحة ٩٩ سابقاً).

وتعبير «إبن لا أحد» الذي استخدمه النص الآشوري، هو تعبير معروف في النصوص القديمة لوصف الملوك المتحدرين من أصل عامي. وكان مثل هؤلاء الملوك لا يذكرون في نصوصهم أيضاً أسماء آبائهم، لأنهم من سلالة غير ملكية.

وفي الرواية التوراتية يأتي «اليشع» النبي إلى دمشق، وكان [بنهدد مريضاً، فأُخبر وقيل له قد جاء رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل خذ بيدك هدية واذهب لاستقبال رجل الله، واسأل الرب به قائلاً هل أشفى من مرضي. فذهب حزائيل لاستقباله وأخذ هدية في يده] وعندما يجتمع حزائيل باليشع، يتنبأ اليشع بموت بن حدد واعتلاء حزائيل العرش مكانه: [فانطلق من عند اليشع ودخل إلى سيده. فقال له: ماذا قال لك أليشع؟ فقال: قال لي إنك تحيا. وفي الغد أخذ اللبدة وغمسها بالماء ونشرها على وجهه فمات، وملك حزائيل عوضاً عنه] الملوك الثاني ٨: ٧ - ١٥.

ملك حزائيل في دمشق وأطلق على ابنه اسم بن حدد تيمنا بأسماء ملوك دمشق من السلالة السابقة، وهو المعروف تاريخياً ببن حدد الثالث. وفي عهد

هذين الملكين استعرت نيران حرب دائمة بين مملكة دمشق ومملكتي اسرائيل ويهوذا. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٢ : ١٧ ـ ١٨ [حينئذ صعد حزائيل ملك آرام وحارب جت وأخذها، ثم حول وجهه ليصعد إلى أورشليم. فأخذ يوآش ملك يهوذا جميع الأقداس التي قدسها يهوشافاط ويهورام وأخزيا آباؤه ملوك يهوذا، وأقداسه وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام فصعد عن أورشليم]. وفي الملوك الثاني ١٣ : ٢٢ ـ ٢٥ [وأما حزائيل ملك آرام فضايق اسرائيل كل أيام يهوآحاز... ثم مات حزائيل ملك آرام وملك بنهدد ابنه عوضاً عنه. فعاد يهوآش بن يهوآحاز وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهوآحاز أبيه بالحرب. ضربه يوآش ثلاث مرات واسترد مدن اسرائيل].

وقد أوردت المصادر السورية ذكر حزائيل ملك دمشق. فلدينا نقوش على قطع عاجية من حداتو (أرسلان طاش الحديثة عند الحدود التركية) عليها اسم حزائيل (انظر الصفحة ٩٩ سابقاً) مما يشير إلى توسع نفوذه شرقاً حتى الفرات. ولدينا نص آرامي تركه ملك حماة المدعو «زاكير» يتحدث عن حروبه مع بن حدد بن حزائيل ملك دمشق. ويرجع النص في تاريخه إلى مطلع القرن الثامن قبل الميلاد، وقد عثر عليه في تل «آفس» قرب بلدة سراقب بين حماة وحلب منقوشاً على نصب كبير من الحجر البازلتي. وفيه يقول زاكير أن ملك دمشق بن حدد بن حزائيل قد تحالف ضده مع عشرة ملوك آخرين وحاصره في مدينة «حاتريكا» إلا أنه هزم التحالف بعون الآلهة (انظر الصفحة ١٠٠ سابقاً). وحاتريكا المذكورة في النص معروفة أيضاً في النصوص الآرامية باسم «حزرك» وكانت عاصمة مملكة «نوخشي» التي قامت في السابق بين حماة وحلب، ثم حلت محلها مملكة «لوعاش». وبما أن زاكير يصف نفسه في النص بأنه ملك حماة ولوعاش، فمن الأرجح أنه قد ضم لوعاش اليه وأقام في حزرك (حاتريكا). ويرد ذكر هذه المدينة في التوراة باسم «حدراخ» بالترافق مع دمشق وحماة. نقرأ في سفر زكريا ٩ : ١ ـ ٢ [وحي كلمة الرب في أرض

حدراخ، ودمشق محله. لأن للرب عين الانسان وكل أسباط اسرائيل، وحماة أيضاً تتاخمها].

بعد هذا الفيض من البينات النصية المتقاطعة مع البينات التاريخية والآثارية، أي سند يبقى لآرام الصليبي القائمة في غرب العربية؟.

١٤ ـ بلاد العرب

كان العرب يتحكون بالطرق التجارية الكبرى التي تصل تجارة الهند وجنوب العربية واليمن وافريقيا بمناطق بلاد الشام الداخلية وثغورها الساحلية، كما كانوا يسيطرون على الطرق الواصلة بين بلاد الرافدين وسورية من جهة، ومصر وشمال أفريقيا من جهة أخرى. وكان النزاع على هذه الخطوط التجارية هو الدافع إلى الحروب العربية الآشورية التي ابتدأت منذ الغزوات الآشورية المنظمة للمنطقة. ولهذا، كان من الطبيعي أن نعثر على أول ذكر للعرب في السجلات التاريخية، في أخبار القرن التاسع قبل الميلاد وعلى وجه التحديد في سجل شلمنصر الثالث عن معركة قرقرة، التي قررت مصير السياسة الآشورية في بلاد الشام. فلقد شاركت القبائل العربية في حلف قرقرة ضد شلمنصر الثالث، وقدم زعيمها «جنديبو العربي» إلى المعركة فرقة من الهجانة كاملة العتاد والتسليح (انظر النص في الصفحة ٩٤ سابقاً).

غير أن كمال الصليبي ينفي أن تكون الكلمة الآشورية «أريبي» التي وصف بها جنديبو في النص، هي النسبة إلى «عرب»، ويرجح أن تكون نسبة إلى موقع في عسير يدعى اليوم «عربة» أو «عرابة». ثم يجد لجنديبو نفسه أثراً إسمياً ما زال قائماً اليوم في قبيلة اسمها «بنوجندب» تعيش في أواسط عسير

(ص ٣٧). ولكن النصوص الأشورية اللاحقة، التي ورد فيها ذكر العرب وبلاد العرب، والتي لم يشر إليها الصليبي، توضح بما لا يدع مجالاً للشك بأن الكلمة الأشورية «أريبي» هي نسبة إلى العرب، وأن هؤلاء هم شعب كبير متنوع في تقسيماته القبلية ومتوزع في مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

يرد ذكر العرب مرة ثانية في سجلات «تغلات فلاصر الثالث» (٧٤٤ - ٧٢٧ق. م)، حيث نعلم عن استلامه الجزية من ملكة عربية اسمها «زبيبة»، وقهره لملكة أخرى اسمها «شمسة». ونعرف من المناطق التي ارسلت له الجزية بعد استسلام الملكة شمسة، «تيماء» و«سبأ» (انظر الصفحة ١٢٥ سابقاً). وفي نص لـ «صارغون الثاني» (٧٢١ - ٧٠٥ق. م) نقرأ عن القبائل العربية التي قهرها هذا الملك وبينها قبيلة «ثمود»: [بناء على نبوءة صادقة من الهي آشور، سرت وقهرت قبائل ثمود وإباديدي ومارسيمانو وحايبا، العرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء، الذين لا يعرفون البحار ولا الرؤساء، ولم يأتوا بجزيتهم لأي ملك. لقد أبعدت من بقي منهم حياً وأسكنتهم في السامرة][٢٥].

وفي نص لـ «أسرحادون» (٦٨٠ - ٦٦٩ق. م)، نقرأ معلومات وافية عن العرب: [من «أدوماتو»، معقل العرب الذي فتحه أبي سنحاريب وأخذ منه الجزية والأسلاب وصور الآلهة وساق إلى آشور ملكة العرب «إشكالاتو»، أتى حزائيل ملك العرب بهدايا كثيرة إلى نينوى حاضرة ملكي، وقبل قدمي وتوسل من أجل إعادة صور آلهته. عطفت عليه، وأصلحت العطب الذي لحق بصور «عتر - شمين» و «داي» و «نوحاي» و «رولداو» و «ابير يللو» و «عتر - قورما» آلهة العرب، وأعدتها إليه بعد أن نقشت عليها كتابة تعلن عظمة «آشور» مولاي، وتذكر اسمي. ثم جعلت عليهم ملكة، «طاربو» التي ترعرعت في قصر أبي، فأعدتها إلى بلادها مع آلهتها. وعندما وافت المنية

25- Leo Oppenhiem op. cit, P.286

حزائيل، وضعت على عرشه ابنه «ياطع» ـ Iata، وفرضت عليه جزية إضافية... بعد ذلك أهاج «أوابو» ـ Uabu (ربما وهب بالعربية) كل العرب ضد ياطع ليستأثر بالملك، ولكني ـ أنا أسرحادون، ملك آشور ملك الجهات الأربعة، المحب للعدالة والمبغض للخديعة ـ أرسلت جيشي لنجدة ياطع، فأخضع كل العرب وهزم أوابو ومقاتليه، وأتى بهم إلي مكبلين بالأصفاد، فوضعت أطواقاً في أعناقهم وقيدتهم إلى أعمدة بوابتي](٢٦).

وفي نص لـ «آشور بانيبال» (٦٦٨ ـ ٦٣٣ق.م) نقرأ: [في حملتي التاسعة، جمعت قواتي وسرت ضد «يواطي» ـ Uate ملك بلاد العرب (أريبو)، لأنه حنث بالعهد ونسي معاملتي الحسنة له، فرفع عنه نير حكمي الذي فرضه عليه مولاي آشور. لقد امتنع عن المجيء والسؤال عن صحتي، ومنع الجزية والهدايا، واستمع إلى تحريضات «أكاد» على الثورة، كما فعلت عيلام، ولم يأبه لعهوده معي وقسمه... بعد أمرٍ أوحي إلى من آشور وعشتار، أهبت بجيشي وهزمته في معركة دموية... قهرت كل أهل بلاد العرب ممن ثاروا معه.. وقام جيشي باحراق الخيام التي يعيشون فيها. أما يواطي، فقد هرب وحيداً إلى بلاد الأنباط ـ Nabati](٢٧).

وفي نص آخر لآشور بانيبال، نعرف عن القبائل العربية التي أطلقت عليها التوراة اسم «قيدار»: [«أمولادي» ملك «قيدار» ـ Qi-da-ri، هب لقتال ملوك بلاد العرب التي وهبها لي آشور وعشتار وبقية الآلهة العظام. ولكني بناء على وحي صادق من آشور وسن وحدد ونينو وعشتار ونورتا ونرجال ونسكو، قمت إليه وهزمته وقبض عليه رجالي حياً، ومعه أيضاً «عادية» ـ Adia زوجة يواطي ملك بلاد العرب، وأتوا بهما إلي].. وفي نص آخر: [.. وأما

26- Ibid, P. 292

27- Ibid, P.298

عادية ملكة بلاد العرب، فقد هزمتها هزيمة منكرة، وأحرقت خيامها وقبضت عليهـا حيـة، وأتيت بها مع الأسـرى الآخـرين إلى آشـور](٢٨). ولكن الملك يواطي الذي توارى عن الأنظار في بلاد الأنباط، يعود إلى الظهور وإثارة الفتن في وجـه الآشـوريـين بالتعـاون مع الأنبـاط تارة والقيـداريـين تارة أخرى، مما نستطيـع تتبعـه في عدة نصـوص آشـوريـة أخـرى، يوصف في بعضها بملك الإسماعيليين ـ Su-mu-il، حتى يقبض عليه آشور بانيبال حياً(٢٩).

هذه الصـورة الـواضحـة للعرب وبلادهم، التي ترسمها لنا السجلات الآشورية، هي التي نراها أيضاً في أسفار التوراة. فبلاد العرب ليست مجاورة لمملكتي يهوذا واسرائيل، وأهلها لا يمتون بصلة لأهل التوراة، بل هم شعب مغاير لهم في كل شيء، ولا تربطه بهم رابطة قريبة كانت أم بعيدة.

نسمـع بأخبـار العـرب في التـوراة، منـذ أيام الملك سليمان. ففي سفر الملوك الأول وأخبار الأيام الثاني، نجدهم تجاراً يؤمون أورشليم: [وكان وزن الـذهب الـذي جاء سليمان في سنـة واحدة ست مئة وستاً وستين وزنة ذهب، فضلاً عن الذي جاء به التجار والمستبضعون. وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانـوا يأتـون بذهب وفضـة إلى سليمان] الأيام الثاني ٩: ١٣ ـ ١٤. ثم نراهم بعـد ذلـك غزاة متحـالفين مع خصوم مملكة يهوذا: [وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيـين والعـرب الـذين بجـانب الكـوشيـين، فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضاً] الأيام الثـاني ٢١: ١٦ ـ ١٧. . [ولمـا سمـع سنبلط وطـوبيـا والعـرب والعمـونيـون والأشـدوديـون أن أسـوار أورشليم قد رممت والثُغر ابتدأت تسد، غضبوا جداً وتآمروا جميعاً أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضرراً] نحميا ٤: ٧ ـ ٨.

والعـرب يسكنـون في بلاد الوعر وفيافي العطش. ونعرف من قبائلهم في

28- Ibid, P. 298

29- Ibid, P.300

أخبــار التـوراة «تيـماء» و«قيـدار» و«ددان» وجميعهـا واردة في سجـلات بابـل وآشـور. نقـرأ في سفـر أشعيـا ٢١ : ١٢ ـ ١٧ [وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان، يا سكـان أرض تيـماء وافـوا الهـارب بخبزة، فانهم من أمام السيوف قد هربوا... فإنه هكذا قال لي السيد، في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل، لأن الرب إله اسرائيل قد تكلم].

وتنسب الـروايـة التـوراتيـة أهل تيماء إلى «تيما» ابن اسماعيل (التكوين ٢٥ : ١٥ والأيـام الأول ٢٢ : ١ ـ ٣٠ .وتذكر بالترافق مع سبأ (أيوب ٦ : ١٩) وحـزقيـال ٢٧ : ٢١ ـ ٢٢)، ومـع ددان (أشـعيـا ٢١ : ١٣ و ١٤ وارميـا ٢٥ : ٢٣). وهي تقع اليوم في القسم الأعلى من جزيرة العرب، في منتصف المسافة بين مكة ودمشق. أما ددان فكانت محطاً للقوافل ومركزاً للتجارة الآتية من اليمن والهنـد، وتقـع إلى الجنـوب الغـربي من تيـماء، واسمهـا الحـديث «العـلا». وكـان الـددانيون من التجار المرموقين في العالم القديم، نقرأ في سفر حزقيـال في معـرض حديثـه عن صور: [ددان تاجـرتـك بطنـافيس للركوب. العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك، بالخرفان والكباش والأعتدة، في هذه كانـوا تجارك. تجار شبا ورعمة هم تجارك، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك] حزقيال: ٢٠ ـ ٢٢.

أمـا بنـو قيـدار فينسبهم سفـر التكـوين ٢٥ : ١٣ إلى «قيـدار» وهو ابن اسـماعيـل الثاني. وهـم كما يخبرنا سفر ارميا يعيشون تحت الخيام ويربون الغنم والجمال: [عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ راصر ملك بابل، هكـذا قال الـرب، قومـوا اصعـدوا إلى قيـدار واخربوا بني المشرق. يأخذون خيـامهم وغنمهـم ويأخـذون لأنفسهم شققهم وكـل آنيتهم وجمـالهم وينـادون اليهم الخوف من كل جانب] ارميا ٤٩ : ٢٨ ـ ٢٩. ويطلعنا سفر نحميا على اسم أحـد ملوكهم المـدعـو «جشم»، الـذي استطعنـا أن نحصـل عنده على تقـاطـع تاريخي يثبت وجـوده وتـاريـخ حكمـه. فعنـدما كان نحميا يبني سور

أورشليم الجديد حوالي عام ٤٥٠ق.م، أثار عمله توجس القبائل التي كانت تستفيد من طريق التجارة المفتوح إلى فينيقيا: [فلما سمع سنبلط وطوبيا وجشم العربي وبقية أعدائنا أنني قد بنيت السور ولم تبق فيه ثغرة، أرسل سنبلط وجشم إلي قائلين هلم نجتمع معاً في القرى في بقعة أونو، وكانا يفكران أن يعملا بي شراً] نحميا ٦: ١ ـ ٢. وقد تم العثور في «تل المسخوطة» عند قناة السويس قرب الاسماعيلية (وهي المنطقة الحدودية مع سيناء قديماً) على بضع طاسات فضية عليها نقوش آرامية قصيرة، كتب على احداها: [نذرٌ إلى «هان ـ إيلات» من «قينو» ابن «جشم» ملك قيدار..]. ويرجع هذا الأثر بتاريخه إلى بحر القرن الخامس قبل الميلاد[30]، أي إلى فترة نحميا كاتب السفر المعروف.

ويرد في سفر أشعيا خبر ذو دلالة عن قيدار ومدينتهم «سالع» التي نرجح أنها «بيترا» المدينة النبطية المعروفة: [لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا] أشعيا ٤٢: ١١. ومدينة سالع الواردة هنا كانت تابعة للإيدوميين الذين امتدت مناطقهم من جنوب البحر الميت إلى خليج العقبة وصحراء سيناء، وكانت على ما يذكره سفر عوبديا: ٣ قلعة حصينة يهرع اليها الايدوميون وقت الحصار، ويقيمون في الأعالي في شقوق الصخر. ولكن يبدو، وفق رواية أشعيا أعلاه، أن القيداريين قد استولوا عليها فيما استولوا من أراضي الايدوميين، وأن الأنباط الذين تلوهم لم يكونوا سوى فريق قيداري أقام في سالع بصورة دائمة، وتحول اسمها إلى بترا فيما بعد. واسم بترا يعني باليونانية الصخر، وكذلك اسم سالع بالكنعانية.

من هذه الشواهد النصية من كتاب التوراة وتقاطعاتها المتنوعة، نستنتج أن العرب الواردين في التوراة بشتى قبائلهم وفروعهم، لا علاقة لهم بموقع

30- Franz Rosenthal, op. cit, p.657

«العربة» في منطقة عسير (على حد قول الصليبي). وبلاد العرب المقصودة في التوراة، هي جزيرة العرب بما فيها عسير واليمن، حيث تذكر سبأ والسبئيون إلى جانب بقية الجماعات العربية. وهذه الأرض لاعلاقة لها بمملكة يهوذا واسرائيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إذا كانت ذكرى غرب العربية قد انمحت من ذاكرة اليهود تدريجياً، وذلك اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد، وأخذوا ينظرون إلى فلسطين باعتبارها المسرح المركزي للحدث التوراتي (ص ٤٢ ـ ٤٩)، فكيف تنمحي هذه الذكرى من كل مصادر التاريخ القديم؟. لقد عاصر المؤرخون الاغريق أواخر عهد دولة يهوذا إبان القرن الخامس قبل الميلاد، وكتبوا بدقة وتفصيل عن شعوب وأحوال جزيرة العرب، فلماذا لم يتطرقوا إلى دولة اسمها يهوذا موجودة في عسير، ولماذا لم يحكوا عن تاريخها القديم وأخبارها؟ لماذا صمت عنها «هيرودوتس» الملقب بأبي التاريخ والذي عاش بين ٤٨٠ و٤٢٥ق. م. وزار معظم مناطق الشرق القديم فأسهب في الرواية عن تاريخها، ووصف بلدانها وعادات أهلها ودينهم وطقوسهم، مما رآه بأم عينه أوسمع مباشرة أخباره من أصحابها. ومثله «ثيوفراست» الذي عاش في القرن الرابع بين عامي ٣٧٢ و٣١٢ق. م، وبعده «إيراتوسيتن» و«ديودور الصقلي» و«سترابو» و«بليني» وغيرهم. كيف حيكت مؤامرة الصمت على هذا النطاق العالمي، لتهتك أسرارها في أواخر القرن العشرين بعد الميلاد؟

إن من يقرأ الوصف الدقيق لأحوال بلاد العرب في تاريخ هيرودوتس، يدرك مدى الدقة في أعمال المؤلفين الكلاسيكيين، وجهدهم الكبير في تحري الحقائق. يقول هيرودوتس في بعض المقاطع التي تصف بلاد العرب:

[ومن جهة الجنوب، آخر المعمور، بلاد العرب. وفيها وحدها يوجد البخور والمر والقرفة والدارصيني واللاذن. والعرب يجنون كل هذه الأشياء بتعب جزيل إلا المر. ولكي يجنوا البخور، يحرقون تحت الأشجار التي تولده صمغاً

يسمى ميعة يأتي به الفينيقيون إلى الأغارقة... وعلى هذه الطريقة يجني العرب البخور. ولكن طريقة جني القرفة هي هذه: حينما يذهبون في طلبها يغطون أبدانهم ووجوههم أيضاً إلا العيون، بجلود الثيران والماعز. والقرفة تنبت في بحيرة قليلة العمق، وعلى هذه البحيرة وحولها توجد حيوانات من جنس الطير تشبه الخفافيش، فتصيح صياحاً شديداً، وهي قوية جداً فيجتهد العرب بدفعها ويقون عيونهم، وبهذا التحفظ يجنون القرفة... وتستنشق في بلاد العرب رائحة ذكية جداً، والعرب عندهم نوعان من الغنم يستحقان الاعتبار... وبلاد الحبشة تمتد غربي بلاد العرب باتجاه الجنوب، وهذه آخر البلاد المعمورة، ويحصل منها كثير من الذهب وفيلة ضخمة جداً. وكل أنواع الأشجار البرية والأبنوس. والرجال فيها كبار الأبدان حسان الصور كاملو البنية ويعمرون طويلاً..][31].

ويقول ديودور الصقلي في أحوال الأنباط في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، نقلاً عن شاهد عيان معاصر لتلك الفترة اسمه «هير ونيموس القرديائي»: [لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حباً ولا يغرسوا شجراً يؤتي ثمراً، ولايعاقروا الخمرة ولايشيدوا بيتاً، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت وهم ملتزمون بهذه المبادىء، لأنهم يعتقدون أن من تملك شيئاً استمرأ ما ملك، واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت... وثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعي لقطعانها، ولكن الأنباط يفوقون الجميع بثرائهم][32].

ومن ناحية أخرى، فلو أن مملكتي يهوذا واسرائيل قد قامتا في عسير لجاورتا طيلة حياتهما حضارات اليمن من سبأ ومعين وقتبان، فلماذا تحدث المؤلفون الكلاسيكيون عن دول اليمن وشعوبها، ولم يتحدثوا عن الدول

31- تاريخ هيرودوتس، المرجع السابق، الكتاب الثالث من الفقرة ١٠٧ إلى ١١٤.
32- احسان عباس، تاريخ دولة الأنباط، دار شروق، عمان ١٩٨٧، ص ١١ و ٢٩.

والشعوب المفترضة في عسير؟ . يقول «ثيوفراست» عن بلاد اليمن : [هناك تنبت أشجار البان والمر والدار صيني في بلاد سبأ وحضرموت وقتبان ومالي . والجبال هناك مرتفعة ومغطاة بالثلوج والنباتات وتتفجر منها أنهار تجري إلى الاودية والسهول . . وكان من عادة الذين يجنون اللبان والمر أن يحملوه من كل ناحية إلى هيكل إله الشمس الذي لم يكن لهم بيت تبلغ عظمته من نفوسهم مبلغه ، والذي كان له حراس مدججون بالسلاح أشداء من العرب ، فإذا ما وصلوا إلى هذا الهيكل بما جنوه من اللبان والمر، قدموا منه مقداراً إلى الحرس ، ثم يضع كل واحد منهم ما جناه في مكان وعليه لوح كتب عليه مقدار الوزن والثمن . فإذا جاء التجار نظروا الألواح وأخذوا ما وقع عليه اختيارهم ، وتركوا في مكانه الثمن المعين في اللوح][٣٣] .

ويقول «سترابو» نقلاً عن مصادر أقدم ، في دول اليمن : [ويقطن في تلك البلاد شعوب أربعة . أهل معين على شاطيء البحر وتعرف عاصمتهم باسم قرنا ، ثم أهل سبأ وعاصمتهم مأرب ، ثم أهل قتبان ومنطقتهم تمتد إلى الخليج وفيها مدينة ملوكهم المسماة تمنة ، ثم أهل حضرموت وعاصمتها سبتة . وأهل هذه المنطقة ذوو غنى وجاه عظيم وأبنيتها فخمة ، خصوصاً الهياكل والقصور، وعماراتها تشبه عمارات المصريين][٣٤] .

فلماذا فات على هؤلاء جميعاً الالتفات إلى يهوذا واسرائيل المتلاصقة حدودها ، وفق طبوغرافية الصليبي ، مع حدود ممالك اليمن؟ ثم ماذا عن النقوش اليمنية نفسها ، التي حُلت نصوصها بالمئات حتى الآن ، لماذا لم ترد فيها اشارة ولو عابرة إلى جيرانها الشماليين . وأين أخبار دويلات اليمن في التوراة؟ ففيما عدا زيارة ملكة سبأ لسليمان (الملوك الأول : ١٠) ، هل يعقل أن تنقضي حياة مملكتي يهوذا واسرائيل المفترضة في غرب العربية دون احتكاك مع دول

33- ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، دار القلم ، بيروت ١٩٨ ، ص ٢٣٥ .

34- المرجع نفسه ص ٢٣٦ .

اليمن القـريبـة ، وهما اللتـان دخلتـا في حروب لم تنقطـع مع كل الـدويـلات المحيطة بهما. وأخيراً ، ماذا عن المصادر العربية ذاتها ، وعن الاخباريين الذين رووا لنا كل ما وصلهم عن ممالك اليمن القديمة وعن شعوب العرب البائدة ، لماذا لم تتسلل إليهم ولو معلومة واحدة تشير ولو من بعيد إلى قيام دولة سليمان ودولتي اسرائيل ويهوذا في عقر دارهم؟

إن نظـريـة كمال الصليبي ، إضافة إلى بيناتها اللغوية ، مطالبة بالإجابة المقنعة عن كل هذه الأسئلة المشروعة .

١٥ - بلاد موآب ونقش ميشع

إلى جانب الممالك الآرامية المعادية، التي جاورت اسرائيل ويهوذا من الشمال والشمال الشرقي، فقد جاورهما إلى الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، شعبان هما العمونيون والموآبيون، وإلى الجنوب فيما يلي البحر الميت سكن الايدوميون. وكانت هذه الشعوب الثلاثة في خصام دائم مع يهوذا واسرائيل منذ أيام المملكة الموحدة، وغالباً ما ذكرت في التوراة بالترافق مع بعضها بعضاً، مما يشير إلى تجاورها وتداخل حدودها. وهي الصورة نفسها التي رسمتها لهذه الشعوب الثلاثة السجلات الآشورية التي تورد ذكرها معاً وبالترافق مع الدويلات المجاورة لها.

نقرأ في نص للملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث قائمة بالملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية في فلسطين وشرقي الأردن: [سانيبو ملك بيت عمون، سلامانو ملك موآب، ميتيني ملك أشقلون، يهو آحاز ملك يهوذا، كوش ملاكو ملك إيدوم..](٣٥).. وكذلك في نص لسنحاريب: [توبعلو ملك صيدون، عبد ليتي (أي عبد اللات) ملك ارواد، أورو ملك جبيل، ميتيني ملك أشدود، بودو إيلي ملك بيت عمون، كاموسن أديبي ملك موآب، عيرامو ملك إيدوم. كلهم جاءوا إلي بالهدايا](٣٦) وفي نص لأسرحادون:

35- Leo Oppenhiem op. cit, p.282

36- Ibid, p. 287

[دعـوت إلى ملوك بلاد حاتي على الضفـة الأخـرى من النهـر. بعلو ملك صور، منسي ملك يهوذا، قوش جبري ملك إيدوم، موسوري ملك موآب . . .] . (٣٧)

وتنسـج الـرواية التـوراتيـة على المنـوال نفسـه : [يسمـع الشعـوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حينئذٍ يندهش أمراء آدوم، أقوياء موآب تأخـذهم الـرجفـة] ـ الخروج١٥ : ١٥ . [أنت مارٌ اليوم بتخم مـوآب، فمتى قربت إلى تجاه بني عمـون لا تعـادهم لا تهجمـوا عليهم، لأني أعطيك من أرض بني عمـون ميراثـاً] ـ التثنيـة ٢ : ١٩ . [. . وأخذ شاول الملك على اسـرائيـل وحـارب جميع أعدائه حواليه، موآب وبني عمون وآدوم] ـ صموئيل الأول ١٤ : ٤٧ . [وكان بيده (داود) آنية فضة وآنية ذهب وآنية نحاس ... من آرام ومن موآب ومن عمـون] ـ صمـوئيـل الثاني ٨ : ١٢ . [لأنهم تآمروا عليك بالقلب معـاً، عليـك تعـاهـدوا عهـداً. خيـام آدوم والإسـماعيليـين، موآب والهاجريون، جبال عمون وعماليق . .] ـ المزمور ٨٣ . [. . وكذلك كل اليهود الـذين في موآب وبـين بني عمـون وفي آدوم، والذين في كل الأرض سمعوا أن ملك بابـل قد جعـل بقيـة ليهوذا وقد أقام علهم «جدليا»] ـ ارميا ٤٠ : ١١ . [ويـدخـل إلى الأرض البهيـة فيعثـر كثير ون . وهؤلاء يفلتـون من يده آدوم وموآب ورؤساء بني عمون] ـ دانيال ١١ : ٤١ .

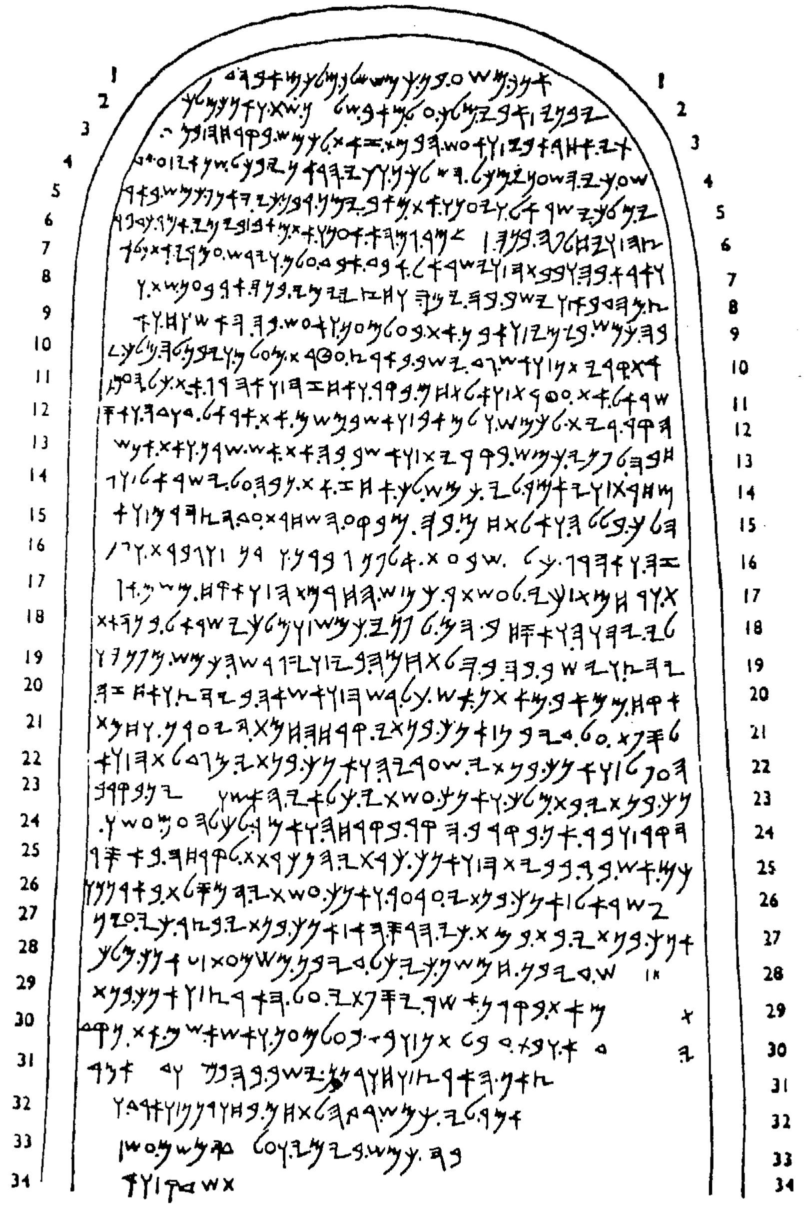
ونعـرف من مدن المـوآبيـين في التـوراة «ديبـون» العاصمة و«قريوت» و «ميـدبـا» . وموقع ديبان القديم هو المكان المعروف اليوم بخربة ذيبان على بعد ثلاثة أميال شمال غرب عرعير، وقد اكتشفت فيها آثار عديدة للموآبيين أهمها «الحجر الموآبي» وهو نصب حجري نقش عليه «ميشع» ملك موآب نصاً طويلاً يتحـدث عن حروبـه مع اسـرائيل. أما مركز العمونيين الرئيسي فقد صار فيها

37- Ibid, P.291

بعد مدينة «عمان» الحالية . وقد تحدثنا سابقا عن سالع عاصمة الايدوميين وعلاقتها ببترا .

لم يأبه كمال الصليبي كثيراً لأمر إيدوم فذكرها عرضاً في احدى حواشي الكتاب وطابقها مع «وادي إدام» في جنوب مكة ، أما العمونيون فلم يتعرض لهم بتاتاً ولم يحدد لهم مكاناً في غرب العربية . ولكنه توقف طويلاً عند موآب بسبب وثيقة ميشع ملك موآب ، وهي أطول وأهم وثيقة كتابية تم العثور عليها حتى الآن في فلسطين وشرقي الأردن ، ولغة النقش وكتابته تنتمي إلى كنعانية فلسطين المدعوة خطأ بالعبرية المبكرة ، والتي تطورت فيها بعد إلى اللغة التوراتية المدعوة بالعبرية ، والتي تبنت الخط الآرامي المربع الذي يدعى الآن بالخط العبري .

ولسوف نتوقف طويلاً ، فيما يلي من هذا الفصل ، عند نقش ميشع ملك موآب ، لأنه يقدم بينة آثارية وتاريخية واضحة عن مسرح الحدث التوراتي ، ولكي نعرف كيف تعامل كمال الصليبي مع هذه البينة وأمثالها . وبما أن الصليبي قد شكك في كل الترجمات التي تمت لهذا النص حتى الآن ، وقدم تصحيحات لها هنا وهناك ، ودعا إلى اعادة قراءة النقش بنصه الأصلي ، فاننا سنقدم أولاً صورة للنقش بكتابته الأصلية ، ثم نحل رموز النقش بحروف عربية ، ثم نقدم ترجمة له اعتماداً على أكثر من ترجمة عالمية ، ونزود القاريء المهتم بتتبع تعليقنا على الترجمة ، بقائمة بأحرف كتابة النقش وما يقابلها من أحرف عربية ، واضعين كل هذه الأدوات أمام من يشاء ، للحكم في هذه المسألة التي نعتبرها من أدق المسائل المتعلقة بموضوع هذا الكتاب .



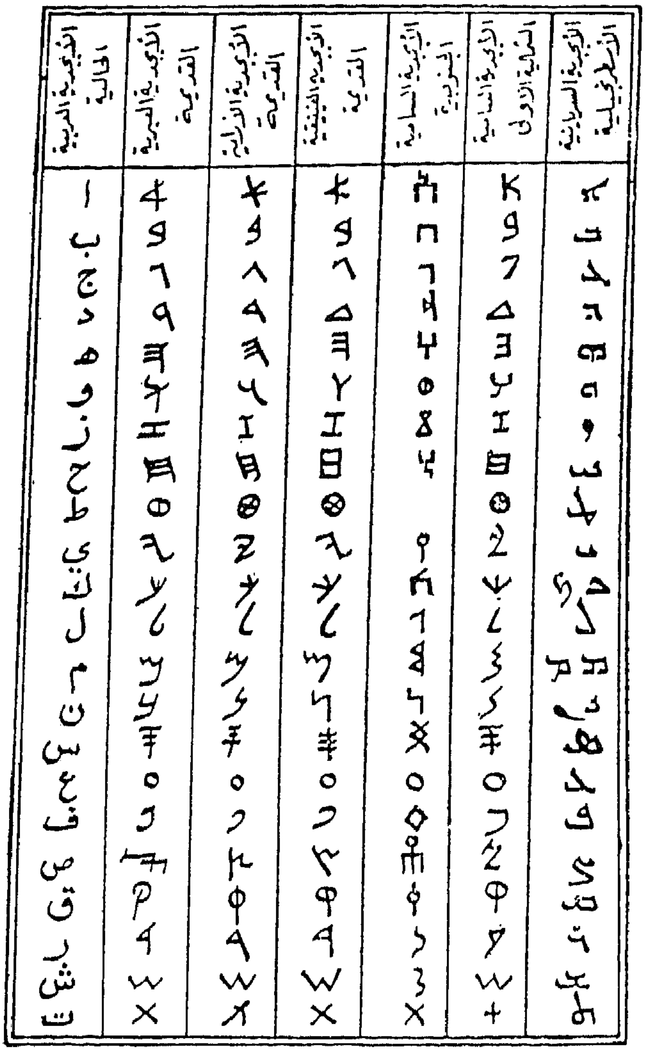
نقش ميشع ملك موآب

حل رموز نقش ميشع ملك مواب بحروف عربية(٣٨)

١ ـ انك مشع بن كمش ملك مأب هد
٢ ـ يبني أبي ملك على مأب شلشن شت وأنك ملك
٣ ـ تي احر أبي واعس هيمت زات لكمش بقرحه بن (ى)
٤ ـ شع كي هشعني مكل هـ لكن وكى هراني بكل سناي عمر
٥ ـ ي ملك يسرال ويعنوات مأب يمن ربن كى يانف كمش
٦ ـ بأرصه ويحلفه بنه ويأمر جم ها اعنو ات ماب بيمي أمر
٧ ـ وأرا به وبيته ويسرال ابد ابد علم ويرش عمري ات كل (ار)
٨ ـ ص مهدبا ويشب به يمه وحصي يمي بنه أربعن شت ويش
٩ ـ به كمش بيمي وابن ات يعلمعن وأعس به هأشوح وابن
١٠ ـ ات قريتن واش جد يشب بارص عطرت معلم ويبن له ملك ي
١١ ـ سرال ات عطرت والتحم بقر واحزه واهرج لت كل هعم
١٢ ـ هقريت لكمش ولماب وشاب مشم ات ارال دوده وا (س)
١٣ ـ حبه لفني كمش بقريت واشب به ات اش شرن وات اش
١٤ ـ محرت ويامرلي كمش لك احذات نبه عل يسرال وا
١٥ ـ هلك بلله والتحم به مبقع هشحرت عد هصهرم واح
١٦ ـ زه واهرج كل شبعت الف ج (ب) رن و. . ن وجبرت و
١٧ ـ ت ورحمت كي لعشتر كمش هحرمته (واقح مشم ا)
١٨ ـ لي يهوه واسحب هم لفنى كمش وملك يسرال بنه ات

38- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

١٩ ـ يهص ويشب به بهلتحمه بى ويجرشه كمش ميني (و)
٢٠ ـ اقح مماب ماتن اش كل رشه واسأه بيهص واحزه
٢١ ـ لسفت عل ديبن انك بنتي قرحه حمت هيعرن وحمت
٢٢ ـ هعفل وانك بنتى شعريه وانك بنتي مجدلته وا
٢٣ ـ أنك بنتي بت ملك وانك عستى كلأي هاشو (ح) لم (بن) بقر (ب)
٢٤ ـ هقر وبران بقرب هقر بقرحه وامر لكل هعم عسول
٢٥ ـ كم اش بر ببته وانك كرتي همكرتت لقرحه بأسر
٢٦ ـ ي يسرال انك بنتي عرعر وانك عستى همسلة بأرنن
٢٧ ـ انك بنتي بت بمت كي هرس ها انك بنتي بصركي عين
٢٨ ـ ش ديبن حمشن كي كل ديبن مشمعت وانك ملك
٢٩ ـ ت . . . مات بقرن اشر يسفتي عل هأرص وانخ بنت
٣٠ ـ ي (مهد) با وبت دبلتن وبت بعلمعن واساشم ات ن . . . .
٣١ ـ . . . . . صان هارص وحورنن يشب به . ب وق اش
٣٢ ـ . . . . . . أمر لي كمش رد هلتحم بحو رنن وارد . . .
٣٣ ـ به كمش بيمي وعل ده مشم عش . . . .
٣٤ ـ . . . . . شت شدق وان . . . .



جدول الأبجديات القديمة

لاحظ أن أبجدية النص هي الرابعة من اليمين.

ترجمة النص[٣٩]

١ ـ أنا ميشع ملك موآب الديباني (نسبة إلى ديبان العاصمة).

٢ ـ أبي مَلَكَ على موآب ثلاثين سنة، وأنا ملكت.

٣ ـ بعد أبي، وبنيت هذا المرتفع لـ «كموش» (الإله) بـ «قرحه».

٤ ـ لأنــه أعـانني على كل الملوك، ولأنـه نصـرني على أعـدائي، (في النص: كي هراني بكـل سنـاي. أي أراني في أعـدائي. وهـو تعبـير ما زال مستخدماً في العامية)، أما عُمري.

٥ ـ ملك اسرائيل، فانه أذل موآب أياماً كثيرة، لأن كموش كان غاضباً على أرضه.

٦ ـ فخلفه ابنه وقال سأذل موآب في أيامي. قال (هذا).

٧ ـ فنظرت اليه وإلى بيته، واسرائيل باد، باد إلى الأبد وعمري احتل كل أرض.

٨ ـ «مهـدبـا» وأقـام عليهـا في أيـامـه، ونصف أيام ابنه اربعين سنة. (ولكن) أرجعها.

39- W. F. Albright, Palestinian Inscriptions (in:Ancient Near Eastern Texts, op.cit) PP. 320-21

ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، المرجع السابق، ص ص ١٠٨ ـ ١١٠.

٩ ـ كمـوش في أيـامي . فبنيت «بعـل معان» وجعلت فيها بركة لخزن
الماء) وبنيت .
١٠ ـ «قَرْيتان» (اسم مدينة). وكان أهل «جاد» (من أسباط اسرائيل)
يسكنون في أرض «عَطَرُتْ» (اسم مدينة) من زمن بعيد. وعمّر ملك.
١١ ـ اسرائيل «عَطَرُتْ»فحاربت المدينة وأخذتها وقتلت كل أهل
١٢ ـ المـدينـة ، فهنيء كمـوش ومـوآب . وجئت من هنـاك برئيسهم
«أرئيل»، وسحبته
١٣ ـ أمـام كمـوش بـ «قـريـوت» (اسم مدينـة)، واسكنت بها أهـل
«شران» وأهل
١٤ ـ «محرت». فقال لي كموش إذهب وخذ «نبه» (اسم مكان) من بني
اسرائيل
١٥ ـ فسرت بالليل وحاربت من مطلع الفجر إلى الظهيرة، وأخذتها
١٦ ـ وقتلتهم جميعا، سبعة آلاف رجل وامرأة
١٧ ـ وجـاريـة ، لأني وهبتهم قربـانـاً لعشـتر كمـوش . وأخـذت من
هناك . . (نقص في السطر).
١٨ ـ يهوه، وسحبتهم أمام كموش. ثم بنى ملك اسرائيل
١٩ ـ «يهص» (اسم مدينـة)، وسكن بها وهـو يحاربني. فطـرده كموش
من أمامي .
٢٠ ـ وأخذت من موآب مائتي رجل من أفضلهم، وسيرتهم إلى يهص
وأخذتها .
٢١ـ فضممتها إلى ديبون . أنا بنيت قرحة ، وحمت هيعرن ،
٢٢ ـ وحمت هعوفل (أسماء مدن)، فبنيت أبوابها وبنيت أبراجها
٢٣ ـ وأنا بنيت بيت الملك، وجعلت بركتين بقرب
٢٤ ـ المدينة. ولم توجد بئر في داخل بلدة القرحة، فقلت للشعب
إجعلوا

٢٥ ـ لكم آبـاراً في بيــوتكم. وأنـا قطعت الأشجـار لقـرحـة على يد الأسري من بني

٢٦ ـ اسـرائيـل. أنا بنيت «عَرُعِرْ» (اسم مدينة)، وأنا مهدت الطريق إلى «أرنن» (نهر يصب في بحيرة لوط).

٢٧ ـ أنـا بنيت «بيت بامـوث» (معبـد) لأنـه كان قد تخرب، وبنيت «بَصَرْ» (اسم مدينة) لأنها كانت خراباً.

٢٨ ـ . . . ديبون خمسين، لأن كل ديبون خضعت لي وأنا

٢٩ ـ حكمت... مائة المدن التي ضممتها إلى المملكة، وأنا بنيت

٣٠ ـ «مهـدبـا» و«بيت دبلتـان» و«بيت بعـل معـان» (أسماء مدن) وسيرت اليها.

٣١ ـ غنم البلاد. و«حورنان» (اسم مدينة) أقام بها. . .

٣٢ ـ . . . فقال لي كموش انزل لقتال حورنان فنزلت

٣٣ ـ . . . (لقتال المدينة وأخذتها) وكموش سكن بها في أيامي.

٣٤ ـ . . وأنا. . .

هذا النصب التذكاري أقامه ميشع ملك موآب لتخليد انتصاراته على الاسرائيليين، والإشادة بأعماله العمرانية والاصلاحية في موآب. فبعد خضوع موآب لاسرائيل سنيناً عديدة أيام الملك عمري وابنه آخاب، قام ميشع بتحرير البلاد وطرد الاسرائيليين من كل مكان أقاموا فيه بأرض موآب، ثم تفرغ بعد ذلـك للإصـلاحات الداخلية. وتأتي الرواية التوراتية على ذكر هذه الحروب بين ميشـع واسـرائيـل في سفـر الملوك: ٣، فتقـول إن ميشـع قد عصى على اسـرائيـل بعـد وفـاة آخاب بن عمري، فسـار اليـه يهورام بن آخاب مستعيناً بيهوشافاط ملك يهوذا، وحاصرته الجيوش في عاصمته ثم ارتدت عنه بعد أن قدم ابنه البكر قرباناً على سور المدينة. ورغم هذا الاختلاف بين الروايتين، إلا أنهما تتفقان على تمرد ميشع واستقلاله عن اسرائيل، وفشل هؤلاء في اخماد ثورته والانسحاب من بلاده.

ولكن كمال الصليبي، الذي لم يقدم لنا فكرة عن مضمون نقش ميشع، ولم يشر إلى الرواية التوراتية المتعلقة بقتال ملك اسرائيل لميشع، يتقدم بتفسير غاية في الغرابة لوجود الحجر الموآبي في منطقة شرقي الأردن، على مسافة شاسعة من «أم الباب»، المكان الذي يفترضه كموطن للموآبيين التوراتيين في مرتفعات الطائف، فيقول في تقديمه لمسألة نقش ميشع: [في هذا النقش الموآبي، يتحدث ميشع ملك موآب (مسع ملك م ء ب) عن حروبه مع عمري ملك اسرائيل، وابنه من بعده (وهو آخاب بن عمري الذي لا يذكره النقش بالاسم). وبسبب الغزوات المتتالية التي تعرضت لها أرض موآب في هذه الحروب، اضطر ميشع إلى الجلاء عنها، فانتقل مع أتباعه من موآب إلى «قرحة» (لعلها اليوم جحرا من قرى الكرك)، حيث أقام لنفسه عاصمة جديدة. وبهذه المناسبة، أقام ميشع الحجر الذي كتب عليه هذا النقش] (ص ١١٢).

وهذا التفسير، يضرب عرض الحائط بمضمون النقش وبالرواية التوراتية الموازية له. فميشع لم يحارب الملك عمري وابنه آخاب من بعده، ولم يضطر بسبب هزائمه المتتالية إلى الجلاء عن أرضه، بل انتزع استقلاله بعد فترة طويلة من خضوع موآب لعمري وابنه من بعده، وأجبر الاسرائيليين على الانسحاب، وهذا ما تؤيده الرواية التوراتية نفسها. ومن ناحية أخرى، كيف نفسر قيام ملك مهزوم من وجه أعدائه، تاركاً لهم موطن آبائه وأجداده، باقامة نصب في أرض مهجره الجديد، يتحدث فيه عن انتصاراته وانجازاته واصلاحاته في بلده!!. وإذا كانت هذه الهزيمة والهجرة الجماعية لشعب موآب قد حدثت فعلاً، فكيف غفلت الرواية التوراتية عن ذكرها، وعن تخليد هذا النصر المبين على شعب اعتبر دوماً من الاعداء التقليديين لبني اسرائيل؟ وكيف نفسر استمرار وجود موآب كجارة لاسرائيل ويهوذا في الأخبار التوراتية اللاحقة حتى دمار أورشليم، وتبشير الأنبياء المتأخرين بزوالها، مما نجده في نبوءات ارميا وعاموس ودانيال؟

ثم يتابع الصليبي : [وليس هناك في الحجر الموآبي ما يشير إلى أن موآب كان اسماً قديماً لمرتفعات الكرك شرق البحر الميت ، أو إلى أن مملكة اسرائيل كانت تقع في فلسطين ، ونحن إذا أعدنا قراءة النقش بنصه الأصلي ، وليس من خلال الترجمات التي أجريت له حتى الآن ، يصبح من الواضح تماماً أن الحروب التي جرت بين اسرائيل وموآب ، والتي يتحدث عنها النقش انما جرت في الحجاز وليس في شرق الأردن ، وان مملكتي اسرائيل وموآب ، بالتالي ، كانتا متجاورتين في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في جنوب الشام] (ص ١١٢) .

ونحن لا ندري أي شيء آخر يجب أن يحتويه النقش ، أكثر مما احتوى ، للدلالة على أن موآب التوراتية كانت في شرقي الأردن . فالحجر الموآبي قد عثر عليه بين خرائب مدينة ديبان في الموقع المعروف منذ زمن طويل بخربة ذيبان بشرقي الأردن ، بين عدد كبير من الآثار الموآبية ، وصاحب النصب يذكر بلسانه أنه ميشع ملك موآب الديباني ، وأنه قد هزم الاسرائيليين وعمر ما خربوه إبان سيطرتهم على بلاده ، ثم يأتي على ذكر عدد كبير من المدن الموآبية وكلها مذكورة في التوراة ، ورواية ميشع على نصبه التذكاري تتفق مع الرواية التوراتية في الخطوط العريضة ولا تتناقض معها .

ورغم دعوته إلى اعادة قراءة النقش بنصه الأصلي ، فان الصليبي لا يفعل سوى تقديم أسطرٍ قليلة من النص الكامل ، معزولة عن سياقها العام ليعيد قراءتها على طريقته . وحتى هذه الأسطر المختارة نفسها ، لا تقدم الينا بنصها الكامل ، بل كأجزاء أسطر معزولة عن سطورها ولسوف نتابع فيما يلي هذه الشواهد القليلة من نقش ميشع الطويل .

[في الكلام عن الهجوم الأول على موآب الذي قام به أتباع الملك عمري ... يصف النقش موآب بأنها «يمن ربن» . وبقراءة «يمن» كجمع لـ «يُم» بمعنى يوم ، وقراءة «ربن» كجمع للصفة «رب» بمعنى عديد ، أخذ المترجمون حتى الآن تعبير «يمن ربن» على أنه أياماً عديدة . وهي ترجمة لا

تتفق تماماً مع المعنى العام للنص، والواقع هو أن التعبير يشير ببساطة إلى أن موآب كانت تقع «جنوب ربن». والمكان الوحيد في الشرق الأدنى الذي ما زال يحمل الاسم «ربن» هو قرية «رابن» في الحجاز. وعلى ذلك فان موآب التوراتية قابلة للتعريف اليوم بكونها قرية «أم الياب» في وادي أضم. وأم الياب هذه، تقع عملياً إلى الجنوب من رابن أي يمن ربن] (ص ١١٢).

الجملة القصيرة المؤلفة من كلمتين، التي يشير اليها الصليبي في المقطع أعلاه، هي جزء من السطر الخامس في النقش:

٤ ـ لأنه أعانني على كل الملوك ولأنه نصرني على أعدائي. أما عمري

٥ ـ ملك اسرائيل، فانه أذل موآب أياماً طويلة (يمن ربن) لأن كموش كان غاضباً على أرضه (أي على أرض موآب).

فإذا أخذنا بوجهة نظر الصليبي في كون «يمن ربن» لا تعني أياماً كثيرة، بل «جنوب موقع رابن» ستكون ترجمة السطر الخامس على الوجه التالي:

٥ ـ (أما عمري) ملك اسرائيل، فانه أذل موآب الواقعة إلى الجنوب من رابن. .

ونحن نحتكم إلى المنطق ونتساءل، أي الترجمتين تتفق مع السياق العام للنص؟ ولماذا يحتاج ملك موآب إلى تحديد موقع بلاده على أنها تقع إلى الجنوب من قرية لم تعرف قط كموقع من مواقع الموآبيين، سواء في نقش ميشع نـ ـه الذي عدد كل مدنهم وقراهم تقريباً، أم في التوراة التي لم تترك موقعاً من مواقع الموآبيين إلا وأتت على ذكره. وإذا لم تكن «رابن» هذه موقعاً من مواقع الموآبيين، فلا بد أنها كانت في الماضي مملكة قوية معروفة من ممالك الشرق القديم حتى يقوم ملك موآب بتعريف مملكته بأنها تقع إلى الجنوب منها. فأين ذكر رابن هذه في سجلات الشرق القديم التي لم تترك موقعاً مهماً إلا وأتت على ذكره؟

ثم يتابع الصليبي: [هناك جملة في النقش تقرأ: «ويرس عمري

كـ ... ص (كل هـ ـ ء رص) مهدب». وقد أخذت الجملة حتى الآن على أنها تشير إلى احتلال عمري ملك اسرائيل لبلدة «مادبا» في شرقي الأردن. ولو كانت مادبا (مـدب ء) هي المعنية حقاً هنا، لما كتبت «مهدب ء» نظراً لأن حرف الهاء الذي يتوسط الكلمة لا يسقط عادة في اللفظ في اللغات السامية. وما تقوله الجملة فعلاً هو: «وعمري احتل كل الأرض من هدب ء» وهدب ء هذه، هي اليوم قرية «الهدبة» شمال «أم الياب» في مرتفعات الطائف المشرفة على وادي أضم] (ص ١١٣).

في المقطع أعلاه، اشارة إلى جملة قصيرة تؤلف الجزء الأخير من السطر السابع والكلمة الأولى من السطر الثامن (انظر النص). وهويوردها بالكنعانية كما يلي: [ويرس عمري كـ ... ص مهدب ء] مفترضاً وجود تشوه بسيط في نهاية السطر السابع، يقترح في مكانه «كل هـ ـ أرص» أي «كل الأرض»، حيث الهاء هنا هي «أل» التعريف الكنعانية. ثم يعمد بعد ذلك إلى تفكيك كلمة «مهدب ء» إلى شطرين هما «الميم» وهي حرف الجر بالكنعانية، و «هدب ء» التي يرى فيها اسم مكان هو «الهدبة» في مرتفعات الطائف، إلى الشمال من «أم الياب» التي رأى فيها سابقاً موآب التوراتية (ص ١١٣ أيضاً). فتغدو الجملة: [ويرس عمري كل هـ ـ أرض م ـ هدبء] أي [وعمري احتل كل الأرض من هدب ء (أي ابتداء من الهدبة)].

وفي الحقيقة، فإننا لم نعثر في النص الأصلي لنقش ميشع على نقص أو تشوه في الموضع المشار اليه. وترجمة الجملة كما هي واردة بوضوح في النقش هي «وعمري احتل كل أرض مهدبا، وأقام عليها في أيامه ونصف أيام ابنه أربعين سنة». ومهدبا الواردة هنا، قد ذكرت في التوراة مراراً كمدينة للموآبيين تحت اسم «ميدبا»، (انظر على سبيل المثال سفر العدد ٢١ : ٣٠ ويشوع ١٧ : ١٦ والأيام الأول ١٩ : ١٧ ـ ١٥ وأشعيا ١٥ : ٢). وترد ميدبا بالترافق مع المدن الموآبية الأخرى المذكورة في نقش ميشع، كما هو الأمر في سفر يشوع : ١٣: ٩ و ١٥ ـ ١٦ : [أخذ الراؤ وبينيون والجاديون ملكهم الذي أعطاهم موسى في عبر

الأردن نحــو الشــروق . . فكــان تخمهم من عروعــير التي على حافــة وادي أرنــون ، والمــدينــة التي في وسط الوادي وكل السهل عند ميدبا : حشبون وجميع مدنهــا في السهــل ، وديبــون وبــاموت بعل وبيت بعل معون ويهصة وقد يموت وميفعــة وقَـرْيتــايم] . وهـــذه المدن المذكورة هنا ، قد وردت في نقش ميشع في الأسطـر التــالية : ميدبا وردت مهدبا في السطرين ٨ و٣٠ ، وعروعير في السطر ٢٦ ، وديبــون وردت ديبــان في الأسطــر ١و٢ و٢٨ ، وبعــل معــون وردت بعل معــان في السطــرين ٩و٣٠ ، ويهصــة وردت في السطــرين ١٩و٢٠ ، وقَـرْيتايـم وردت قرْيتان في السطر ١٠ .

من هنا فان تفكيك كلمة «مهدبا» في السطر السابع من النص ، لا يقوم على أســاس مقنــع ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالاضافة التعسفية لأل التعريف «هـ» قبل كلمة «أرص» .

أمــا عن قولــه بأن «مهـدبا» لا تتحول إلى «مادبا» لأن حرف الهاء الذي يتوسط الكلمة لا يسقط عادة من اللفظ في اللغات السامية ، فقول لا محل له هنــا . لأن «مأدبــا» هو الاسم الحـديث لموقــع في شرقي الأردن اليوم ، يُظن أنه المـوقــع القديم لمهدبا نقش ميشع أوميدبا التوراة . والاسم الحديث ، إذا صح أنــه ذات المــوقــع القديم ، فانه محور عن «ميدبا» الاسم التوراتي . وتحول الياء إلى ألف أمــر وارد وفق لائحــة تحولات الأحــرف التي وضعهــا الصليبي نفســه (الصفحات ٢١ و٢٢) .

وكتعليق أخــير على هذه الجملة التي تطــوع الصليبي لملء فراغهــا في الصفحة ١٣ من كتابه ، نذكر بأنه في الصفحة ١١ ، أي قبل صفحتين فقط ، كان قد اعــترض على قيــام عالم الآثــار واللغــات السامية وليم . ف ألبرايت ، بمــلء فراغ مماثــل في أحــد نقــوش «لخيش» بفلسطين ، بكلمات مقترحة لفهم النص . قال الصليبي [هناك بقايا جملة تقرأ كالتالي «ء دني هل ء تكتب ء . . . . . . هـ تعسو كزءت . . . سلم» والــترجمــة وهي مرة أخــرى من عمــل و . ف البرايت تقول بكل صفاقة : «والآن يا مولاي هل لك أن تكتب لهم قائلاً لماذا

فعلتم هكذا حتى بأورشليم» . إن مثل هذه الترجمة الاعتباطية لا يجوز السماح بها، حيث هناك أقل احترام للأمانة العلمية]!!!

بعد ذلك يأتي الصليبي إلى شاهده التالي، وهو عبارة عن كلمتين متفرقتين وردتا في النقش، فيبحث في مدلوليهما دون ايرادهما في سياقهما الطبيعي : [في أجزاء من النقش ترد لفظة «قر» باعتبارها تعني «قرية» ولفظة «كمش» على أنها «كموش» اسم اله موآب . وفي أجزاء أخرى تظهر كل من «قر» و «كمش» بشكل مميز على أنهما أسماء لبلدتين أو قريتين متجاورتين في أراضي موآب . وقريتا «القر» و «قماشة» ما زالتا هناك إلى اليوم في الجزء نفسه من مرتفعات الطائف حيث تقع «الهدبة»].

وقد بحثنا دون طائل في النقش عن موضع وردت فيه كلمة «قر» على أنها تعني اسم موقع . وفي الحقيقة فقد وردت الكلمة أربع مرات في النقش، و ذلك في السطر ١١ و١٢ ومرتين في السطر ٢٤ ، وفي سياق منطقي ونحوي يشير إلى معناها كمدينة أو قرية . ففي السطر ١١ وردت الكلمة مسبوقة بحرف الجر «ب»، وفي السطر ١٢ وردت مسبوقة بأل التعريف «هـ» .

١١ ـ (فعمر ملك اسرائيل) «عَطَرُتْ» (اسم مدينة) فحاربت في المدينة (بـ ـقر) وأخذتها، وقتلت كل أهل

١٢ ـ المدينة (هـ ـقر) . .

ومن الواضح تماماً من سياق السطر ١١ أن «قر» تعني مدينة وأنها تعود إلى «عطرت» المدينة التي عمرها ملك اسرائيل فحارب فيها ميشع وأخذها . أما في السطر ١٢ فان أل التعريف السابقة لـ «قر» تظهر بوضوح أنها تعني أيضاً مدينة وليس اسم موقع .

أما في السطر ٢٤ فقد وردت الكلمة مرتين مسبوقة أيضاً بأل التعريف «هـ»

٢٣ ـ وأنا بنيت بيت الملك، وأنشأت البركتين بقرب

٢٤ ـ المــدينـة (هـ ـ قر). ولم توجد بئر في داخل القريـة (هـ ـ قر) بـ «قرحة» فقلت للشعب اجعلوا لكم آباراً. .

إن أل التعريف الكنعانية «هـ»، لا تدخل على أسماء المواقع، تماماً كما هو الأمـر في العـربيـة حيث نقـول «بغـداد» وليس «البغداد» و«دمشق» وليس «الدمشق» إلا في حالات نادرة تكون أل التعريف فيها جزءاً من المسمى الأصلي للمدينة مثل «القاهرة».

أمـا عن «كمـوش» إسم الـه المـوآبيـين، فقد بحثنا في النص عن سياق يمكن أن يفهم منه ورود الكلمة كاسم لمدينة فلم نوفق إلى ذلك. وربما كانت اشـارة الصليبي إلى السطـر ١٨ وهـو سطـر غير واضـح المعنى تمامـاً في نصفه الأول لأنه مسبوق ببضع كلمات مشوهة في آخر السطر ١٧، حيث نقرأ:

١٧ ـ وأخذت من هناك. . .

١٨ ـ يهوه، وسحبتهم أمام كموش. ثم بنى ملك اسرائيل.

ولكننـا نتسـاءل، إذا كانت كل من كلمتي «كموش» و«قر» قد وردتا في نقش ميشع كأسماء لمدن موآبية، فلماذا لم تأت أخبار التوراة على ذكرها بتاتاً، وهي التي عددت كل مدن موآب، منـذ حلول بني اسـرائيـل في جوارهم أيـام موسى إلى آخر أيام أورشليم؟

بعد ذلك يقول الصليبي [هنا، وعلى بعد آمن من خصومه الاسرائيليين في جنـوب الحجـاز، أصبـح هذا الملك «صـاحب مواشي» كما تصفـه التـوراة العـبر يـة، قادراً على الازدهـار مرة أخـرى، وعلى استملاك مراع جديدة في أرض «حـر ن» أي حوران، لما كان لديـه من «بقرن» (أبقار) و«معز» (ماعز) و ص ء ن» (ضـان أو أغنـام). وحتى الآن كان قراء منقـوشـة ميشع غايـة في التشـوش حول تفسـيرها إلى درجة أنهم أخفقوا في التعرف إلى هذه الكلمات الأخـيرة الثـلاث كما تظهر في المنقوشة، بما تعنيه في الواقع. وفي حين أن كلمة «بقرن» هي بوضوح «بقر» بصيغة جمع المذكر، فقد قرأوها على أنها «بـ ـ قرن» التي معناها «بقرى» أما «معز» و«ضأن» فقد حذفتا كلياً من الترجمة بسبب سوء

التأويل العام للإطار الذي وردت فيه هاتان الإشارتان الصريحتان إلى الماعز والأغنام].

لا شك أن إشارة الصليبي في المقطع اعلاه، هي إلى الأسطر الأخيرة في النص، من السطر ٢٩ إلى السطر ٣٤. أما ما ذكره الصليبي عن تشوش قراء المنةوشة في تفسير هذا الجزء، فليس مصدره عجز المترجمين وسوء تأويلهم العام للنص، بل تشوه الجزء الأسفل من النصب، وفقدان الكثير من الكلمات التي لم يستطع المترجمون اقتراح بدائل مناسبة لها، لأن ما تبقى من الكلمات الواضحة في الأسطر الناقصة لا يقدم سياقاً ذا دلالة. ولا ندري كيف استطاع الصليبي أن يستنتج من هذه الأسطر الستة المشوهة، أن ميشع قد أصبح قادراً على الازدهار مرة أخرى، وعلى استملاك مراعٍ جديدة في موطنه الثاني. أما عن كلمة «بقرن» الواردة في السطر ٢٩، والتي يرى أنها «بقر» بصيغة جمع المذكر وليست «بقرى» (بمدن)، فان معنى السطر (الذي لم يورد لنا نصه كاملاً) لا يستقيم بتاتاً مع هذا الاجتهاد (راجع النص). أما كلمة «ضأن» فلم تحذف كلياً من الترجمات، وهي واردة في نصنا أعلاه، وفي انسجام تام مع الاطار العام التي وردت ضمنه، ولكننا أخفقنا في التعرف على كلمة «معز» في ما وصلت إليه أيدينا من نسخٍ محققة ومنشورة للنص. ويمكن للقارىء أن يتحقق بنفسه من ذلك، ويساعدنا في البحث عن الكلمة، وهي تكتب بالكنعانية على الشكل التالي «IOש».

وأما عن أرض «حرن» التي يقرنها بحوران، ويقول أن ميشع قد استملك فيها مراع جديدة، فقد وردت في النص «حورنان» لا «حرن»، وهي مدينة موآبية وردت في التوراة تحت اسم «حورونايم»، وهي مثنى كهف أو وهدة، ولا علاقة لها بحوران (انظر أشعيا ١٥ : ٥ وارميا ٤٨ : ٣ و٥ و٣٤).

وأخيراً نتساءل، إذا كان الموآبيون قد رحلوا عن جوار مملكتي يهوذا واسرائيل في أواسط القرن التاسع نحو شرقي الأردن، فكيف نجد مملكتهم ما زالت قائمة في مطلع القرن السادس إلى جانب مملكتي إيدوم وعمون، كما

نستشف من نبوءات النبي ارميا الذي أتاه الوحي، كما يقول الكتاب، في السنة الأولى لحكم نبوخذ نصر ملك بابل: [في ابتداء مُلك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا، صار هذا الكلام إلى ارميا من قبل الرب قائلاً. هكذا قال الرب لي، اصنع لنفسك ربطاً وأنياراً واجعلها على عنقك وارسلها إلى ملك آدوم وإلى ملك موآب وإلى ملك بني عمون]. ارميا ٢٧ : ١ ـ ٣. وهاهو ارميا يبشر بخراب موآب، ويعدد مدنها واحدة واحدة، بعد مضي أكثر من قرنين على التاريخ المفترض لزوال موآب ورحيل شعبها:

[قريب مجيء هلاك موآب وبليتها مسرعة جداً. اندبوها يا جميع الذين حواليها وكل العارفين اسمها، قولوا كيف انكسر قضيب العز عصا الجلال. انزلي من المجد اجلسي في الظماء أيتها الساكنة بنت ديبون، لأن مهلك موآب قد صعد اليك وأهلك حصونك. قفي على الطريق وتطلعي يا ساكنة عروعير، اسألي الهارب والناجية قولي ماذا حدث. قد خزي موآب لأنه قد نُقض. ولولوا واصرخوا أخبروا في أرنون أن موآب قد أهلك. وقد جاء القضاء على أهل السهل. على حولون وعلى يهصة وعلى ميفعة وعلى ديبون وعلى نبو وعلى بيت دبلتايم وعلى قريتايم وعلى بيت جامول وعلى بيت معون وعلى قريوت وعلى بصرة وعلى كل مدن موآب] ارميا ٤٨ : ١٦ ـ ٢٣.

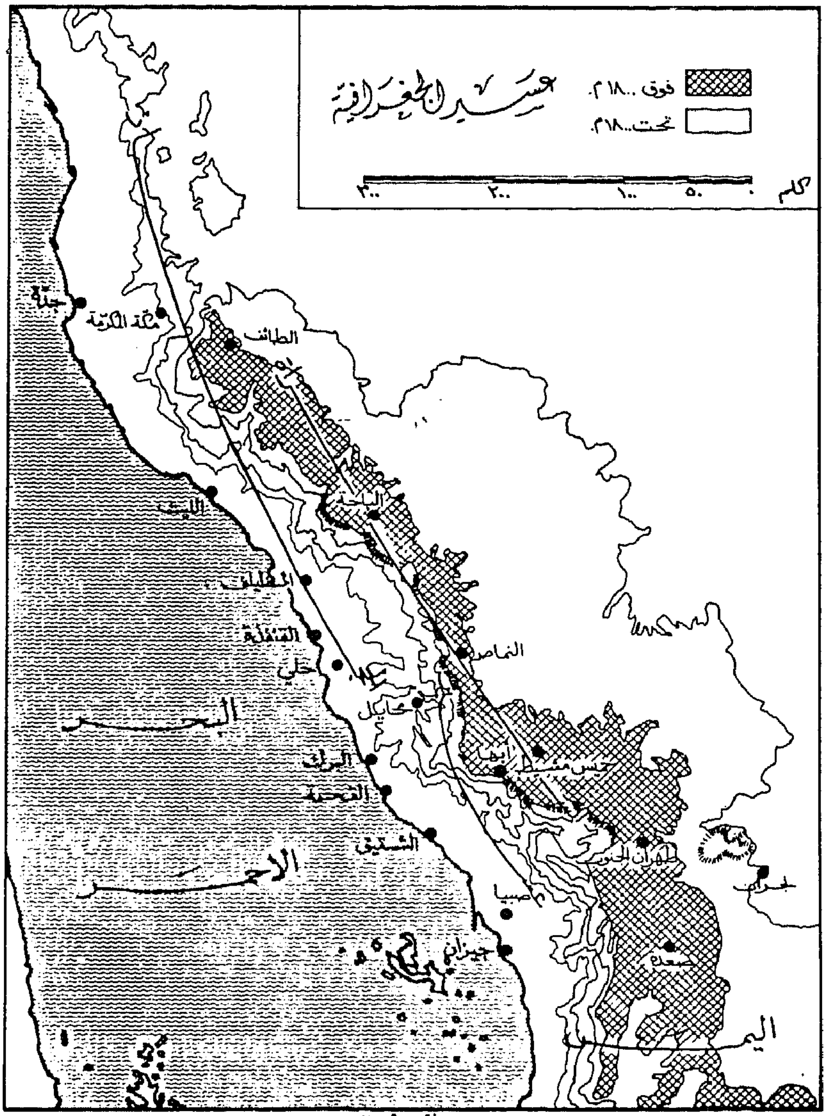
خاتمة

نحن من المؤمنين بأن دور الكتاب المتميز، لا يتمثل في ما يقدمه من أفكار جاهزة تعفي من التفكير بأخذ اليسير الذي يعطيه، بل في الحث على التأمل والبحث والنقد والتجاوز. وبهذا المعنى، فان كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، قد أخذ مكانه كأحد المباحث الهامة الجديدة، دون أن ينال منه، كما نعتقد، تقصير نتائجه عن خلق قناعات ترتكز إلى سند موضوعي مكين.

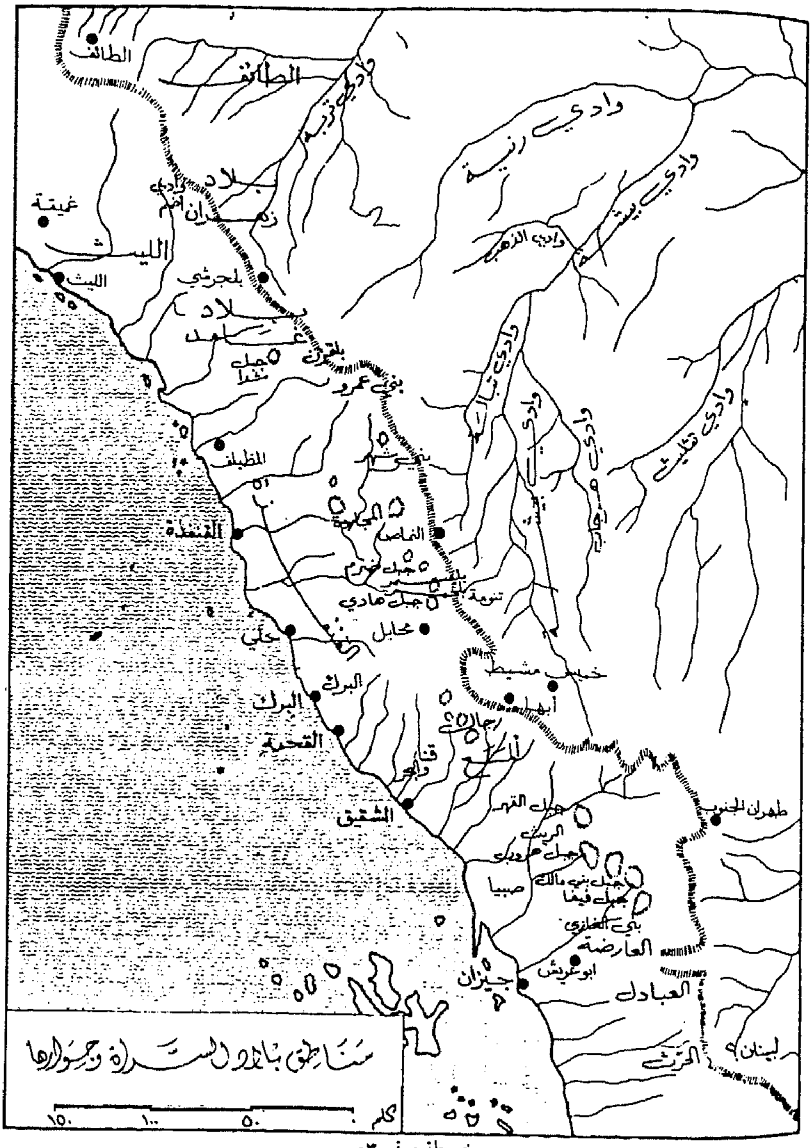
لقد قلنا في فاتحة الكتاب، بأننا ننطلق من موقف منفتح راغب في تقبل الجديد وان حمل في طياته هدماً للقديم، ووعدنا بتمحيص علمي دافعه اهتمامنا بتاريخ وحضارة الشرق القديم، لا عنايتنا بمسألة التوراة وأهلها، ممن لا شأن لهم يذكر في ذلك التاريخ، ولا مكاناً متميزاً في تلك الحضارة. وقلنا بأننا مستعدون لتقبل ما يصمد من أطروحات الصليبي بعد وضعها على المحك العلمي، بل ولتبنيه. فماذا تبقى مما قدمه لنا كمال الصليبي بعد هذا الحوار الهادىء الطويل؟ جوابنا على ذلك أنه قد بقي الكثير. بقيت المحاولة العلمية الرصينة، والموقف الجريء، وسابقة محرضة على النقد في أقصى حدوده الممكنة.

إن من لم يطلع على خفايا كتاب الصليبي وأدق تفاصيله وأفكاره، كما فعلنا، لا يستطيع أن يدرك مدى الجهد العلمي المبذول لإكماله، ومبلغ ما رصد له من تحقيق وصبر وأناة، وما وراءه من ذخيرة علمية وفكر مرتب، مما جعله بحق مثالاً في البحث المنهجي المنظم. ونحن نزجي الشكر للدكتور كمال الصليبي على الأوقات الممتعة والمضنية التي بذلناها في مقابل جهده الكبير، وعلى الفرصة التي أتاحتها لنا مبادرته لوضع كثير من الأمور في نصابها، مما وددنا منذ زمن أن ننبري له، فكان حوارنا هذا بمثابة المدخل السهل لما أردناه.

ملحق
خرائط كمال الصليبي

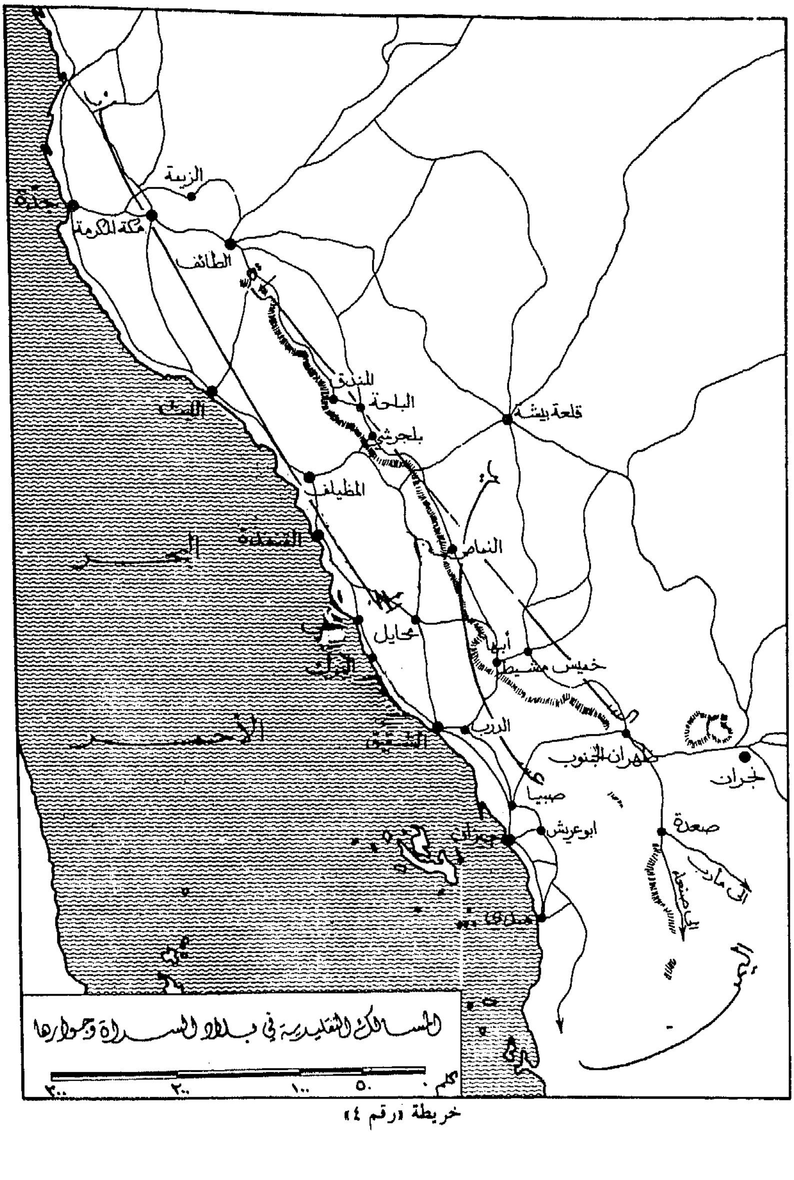

عسير الجغرافية
فوق ١٨٠٠م.
تحت ١٨٠٠م.
كلم ٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
جدة
مكة المكرمة
الطائف
الليث
القنفذة
حلي
البرك
القحمة
الشقيق
صبيا
جيزان
النماص
أبها
ظهران الجنوب
صعدة
البحر
الأحمر

خريطة «رقم ٢»

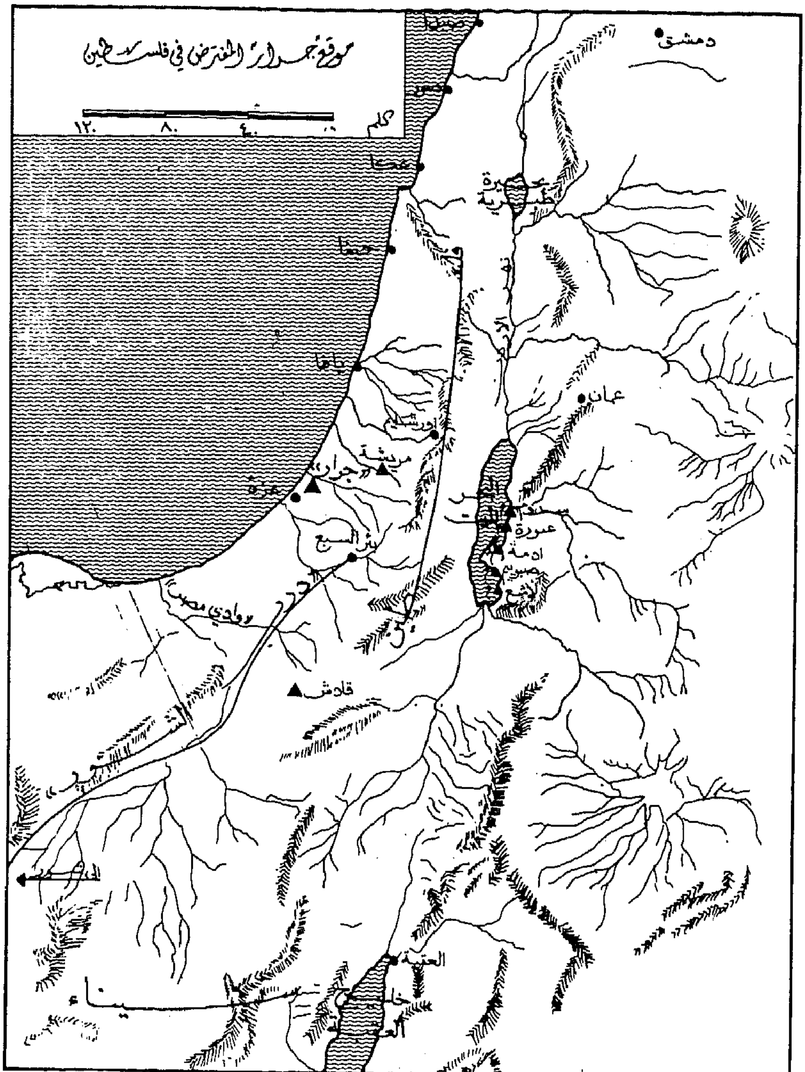


الطائف
غيقة
الليث
بلجرشي
بلاد غامد
بني عمرو
وادي رنية
وادي بيشة
وادي تثليث
القنفذة
النماص
تنومة
جبل هادي
محايل
حلي
البرك
القحمة
خميس مشيط
أبها
رجال ألمع
الشقيق
ظهران الجنوب
صبيا
العارضة
أبو عريش
جيزان
العبادل
مناطق بلاد السراة وجوارها
كلم ٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠

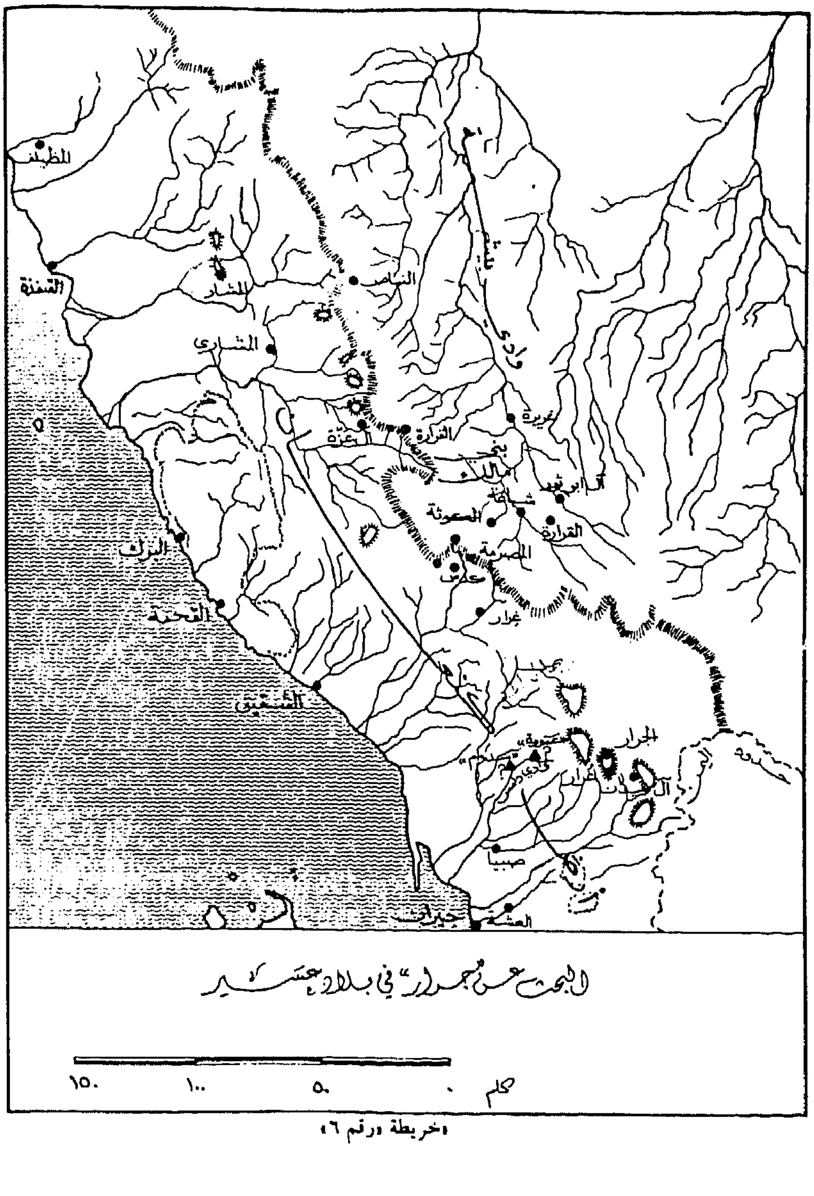
خريطة «رقم ٣»


المسالك التقليدية في بلاد السراة وجوارها
كلم ٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
الزيمة
جدة
مكة المكرمة
الطائف
الليث
المندق
الباحة
بلجرشي
قلعة بيشة
المظيلف
القنفذة
النماص
محايل
البرك
أبها
خميس مشيط
الشقيق
الدرب
ظهران الجنوب
نجران
صبيا
ابو عريش
جيزان
صعدة
الى مأرب
الى صنعاء
البحر الأحمر
اليمن

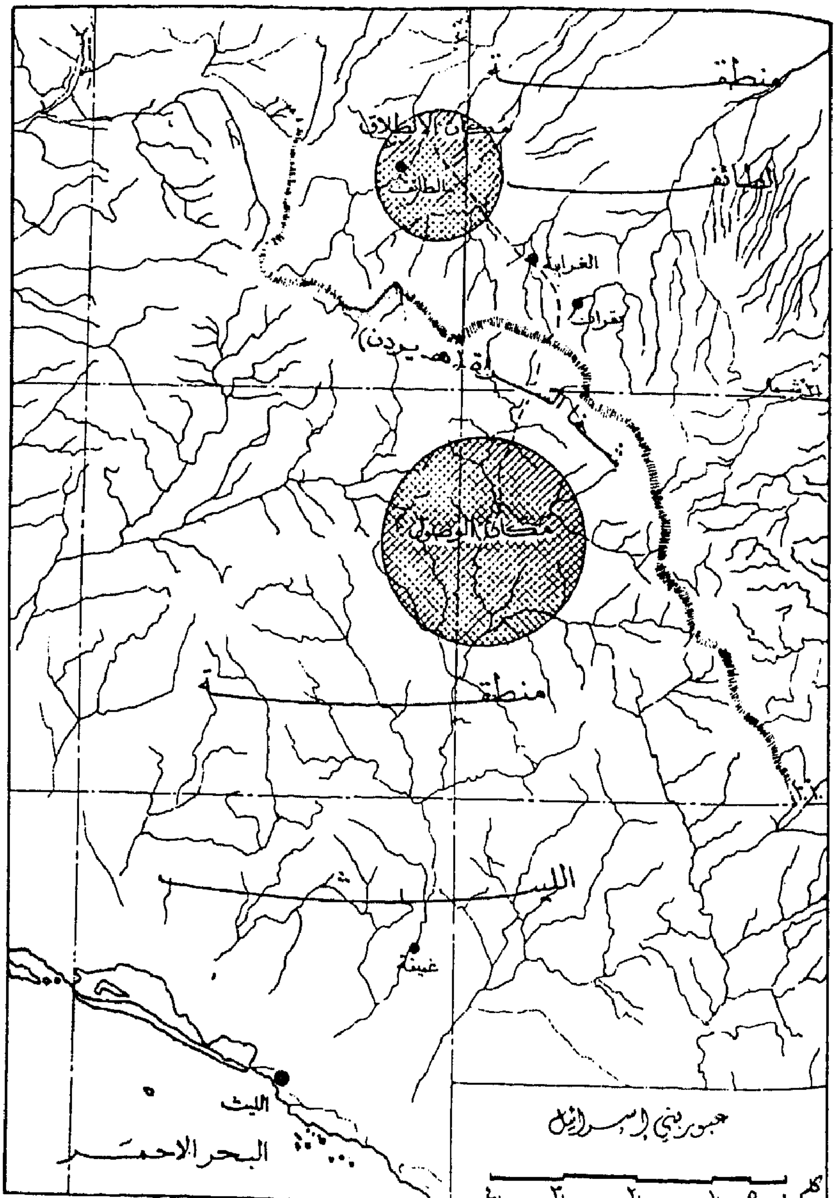
خريطة (رقم ٤)


موقع جرار المفترض في فلسطين
كلم
١٢٠ ٨٠ ٤٠ ٠
دمشق
بحيرة طبرية
عمان
مريشة
جرار
بئر السبع
وادي مصر
قلادش
عمورة
ادمة
صبوييم
العقبة
سيناء

خريطة (رقم ٥)



«خريطة «رقم ٦»



خريطة ، رقم ٥٧

دليل الأسماء

«ب»

«ت»

«ث»

«ج»

«ح»

«ز»

«س»

«ش»

«ص»

«ط»

«ع»

«غ»

«ف»

«ق»

«ك»

المحتويات

المؤلف في سطور

* فراس السواح ، مفكر سوري يبحث في الميثولوجيا وتاريخ الأديان كمدخل لفهم البعد الروحي عند الإنسان .

* من مواليد حمص / سورية ١٩٤١

* صدرت له الأعمال المطبوعة التالية :

* مغامرة العقل الأولى

دراسة في الأسطورة - سورية وبلاد الرافدين

الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٦ . الطبعة الحادية عشر

دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٦

* لغز عشتار

الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة .

الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٨٥ . الطبعة السادسة

دمشق دار علاء الدين ١٩٩٦

* جلجامش

ملحمة الرافدين الخالدة

الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٦

* دين الإنسان

بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني

الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٤

الطبعة الثانية ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٥

* آرام دمشق واسرائيل

في التاريخ والتاريخ التوراتي

الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٥

صادرات دار علاء الدين

٢٧ - الحدث التوارتي

.... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٣

٢٨ - ذكراه في القلب

..................آنا غاغارين - ترجمة

...............محمد بدرخان - دمشق - ١٩٩٠

٢٩ - دين الإنسان

.... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٤

٣٠ - رموز مقدسة

.............نيقولاي ريريخ - ترجمة

........د. ماجد علاء الدين دمشق - ١٩٩٣

٣١ - آرام دمشق واسرائيل

.... فراس السواح - دمشق ١٩٩٥

٣٢ - لغز عشتار

.... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٣

٣٣ - مغامرة العقل الأولى

.... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٣

٣٤ - ملحمة الزمن

.... اناتولي سافروفوف - ترجمة د.

.........ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢

٣٥ - برتراند رسل

.... سمير عبده - دمشق - ١٩٩٣

٣٦ - بدايات الحضارة

...... عبد الحكيم الذنون - دمشق - ١٩٩٣

٣٧ - البلدان النامية والعلاقات الإقتصادية

...........ا. س. بورتيانكوف - ترجمة

......د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٨٤

٣٨ - تاريخ القانون في العراق

...... عبد الحكيم الذنون - دمشق - ١٩٩٣

٣٩ - التحليل النفسي للأقوال المأثورة

.... سمير عبده

.......................- دمشق - ١٩٩٣

٤٠ - تحضير الكيك والكاتو

مرغريت باتن - ترجمة فاتن عمران - دمشق - ١٩٩٣

٤١ - جلجامش

.... فراس السواح - دمشق - ١٩٩١

٤٢ - الجنس في العالم القديم

بول فرشياور ترجمة فائق دحدوح - دمشق - ١٩٩٣

٤٣ - الصحافة السورية بين النظرية والتطبيق

..... د. عدنان ابو فخر - دمشق - ١٩٨٤

٤٤ - صفحات من تاريخ فن الرقص في العالم

.... فائق شعبان - دمشق - ١٩٩٣

٤٥ - طقوس الجنس المقدس

...... ترجمة نهاد خياطة - دمشق - ١٩٩٣

٤٦ - العرافة وسوسة أم ..؟

ترجمة د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٩٣

٤٧ - مدخل إلى علم تصنيف المكتبات

.... برجس عزام - دمشق - ١٩٨٦

٤٨ - المأكولات الشهية للشعوب الشرقية

..... ف. م. ميلينيك - ترجمة سميح شيا

.... دمشق - ١٩٩٢

٤٩ ـ نحن والأبراج

... ترجمة دار علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٠ ـ نظرية الدولة في الفكر العربي

.... محمد علي جمعة ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥١ ـ شريعة حمورابي

مجموعة من المؤلفين ـ ترجمة اسامة سراس

...................ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٥٢ ـ الديانة الفرعونية

واليس بدج ـ ترجمة نهاد خياطة ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٥٣ ـ أزمة العالم

فيدل كاسترو ـ ترجمة نصر الشمالي ـ دمشق

ـ.............................. ١٩٨٩

٥٤ ـ الأخوة كينيدي

.... غروميكو ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٥ ـ البيت الأبيض وأسرار المخابرات الأمريكية .

..... ك. ف. بتروسينكو ـ دمشق ـ ١٩٩١

٥٦ ـ مذكرات عن الإنقلاب العسكري

... ميخائيل غورباتشوف ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٥٧ ـ الاساطير والحقائق عن عائلة ستالين

...... ترجمة سميح شيا ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥٨ ـ ملحمة الرجال

..... احمد فرحات الناصر ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٥٩ ـ أسرار المدافن المصرية

.... اجاثا كريستي ـ ترجمة

.................مازن ... دمشق ـ ١٩٩٤

٦٠ ـ الشركس في فجر التاريخ

.... برزج سمكوغ ـ دمشق ١٩٩٥

٦١ ـ سيد درويش

.... احمد بوبس ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٦٢ ـ الزيتون

..... م . طه الشيخ حسن ـ دمشق ١٩٩٥

٦٣ ـ الوقواق والديك

............ترجمة د. ماجد علاء الدين

.......................ـ دمشق ـ ١٩٨٥

٦٤ ـ الوقت الضائع

ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمسق ـ ١٩٩٢

٦٥ ـ قصص قصيرة

ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٦ ـ حكاية العملاق العجيب ـ جونغ

... ترجمة ريما علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٧ ـ قفزة

. ترجمة رسلان علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٩٢

٦٨ ـ الذئب والثعلب

.... ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ

.......................دمشق ـ ١٩٨٥

٦٩ ـ المرآة والقرد

ترجمة د. ماجد علاء الدين ـ دمشق ـ ١٩٨٥

٧٠ ـ اللؤلؤة النادرة

..... ترجمة اكرم ابو راس ـ دمشق ـ ١٩٩٣

٧١ ـ حلوى الأطفال

..... ترجمة فاتن عمران ـ دمشق ـ ١٩٩٣

الحدث التوراتي
والشرق الأدنى القديم

لا تكمن خطورة نظرية الدكتور كمال الصليبي التي بسطها في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» في محتوى النظرية ذاتها بالدرجة الأولى، بل في المنهج غير التاريخي الذي طبقه على مسألة تاريخية في غاية الحساسية بالنسبة إلى قضايا التاريخ القديم وقضايا الواقع السياسي الراهن. إن المقولات غير المدعمة علمياً تصدر عن مؤرخ معروف، يمكن أن تقود إلى مزالق ومتاهات أكثر مما توصل إلى حقائق تساهم في النهضة التي يشهدها علم التاريخ وعلم الآثار في هذه المنطقة اليوم، وتفتح الباب أمام البعض لإلغاء العلم التاريخي لمصلحة التبرير والرؤية الانفعالية والايديولوجية لأحداث التاريخ.

فراس السواح، الباحث المعروف في الميثولوجيا وتاريخ الديانات الشرقية، يقدم في مؤلفه هذا، مناقشة شاملة للأطروحات الرئيسية لكمال الصليبي، اعتماداً على الحقائق التاريخية والأركيولوجية الثابتة، في مقابل المنهج اللغوي الأحادي الذي أتى بالتوراة من جزيرة العرب، وفي مقابل بعض الدراسات والأبحاث الأخرى التي تتذرع بالشعارات الإيديولوجية لتخفي الأسئلة العلمية اللازمة لفهم المسار الحقيق لتاريخ الشرق القديم. وذلك من خلال حوار علمي هادىء بعيد عن المواقف الانفعالية والنظرات المسبقة، وبطريقة يتناول من خلالها المفاصل الرئيسية في تاريخ الشرق القديم، بشكل سلس ومتتابع، وبعضاً من أهم مشكلاته ومعضلاته، وذلك لتعميم الفائدة على مختلف شرائح القراء.

الناشر

منشورات دار علاء الدين دمشق

هاتف: ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١ - ص.ب: ٣٠٥٩٨